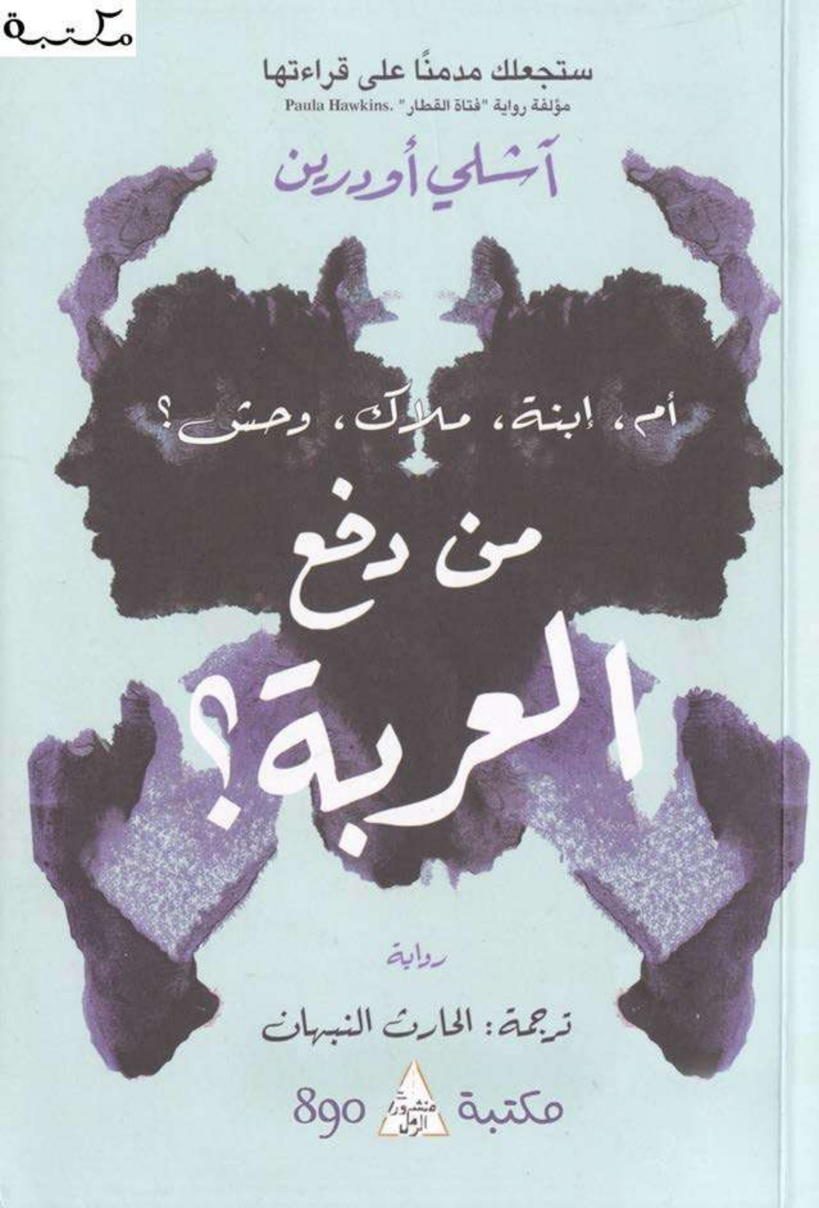

مكتبة
ستجعلك مدمنًا على قراءتها
مؤلفة رواية "فتاة القطار" .Paula Hawkins
آشلي أودرين
أم، إبنة، ملاك، وحش؟
من دفع العربة؟
رواية
ترجمة: الحارث النبهان
مكتبة 890
منشورات الرمل



آشلي أودرين

من دفع العربة؟

أم، ابنة، ملاك، وحش؟

الكتاب: من دفع العربة؟
تأليف: آشلي أودرين
ترجمة: الحارث النبهان



دار التنوير

مصر: القاهرة – جاردن سيتي – 2 شارع فؤاد سراج الدين (السريا الكبرى سابقاً) – الدور الأرضي – شقة رقم 2

لبنان: بيروت – بئر حسن – بناية قاسم فارس (سارة بنما) – الطابق السفلي

هاتف: 009611843340 – بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

Manshoorat Alraml is an Imprint of Dar Altanweer

آشلي أودرين

من دفع العربة؟

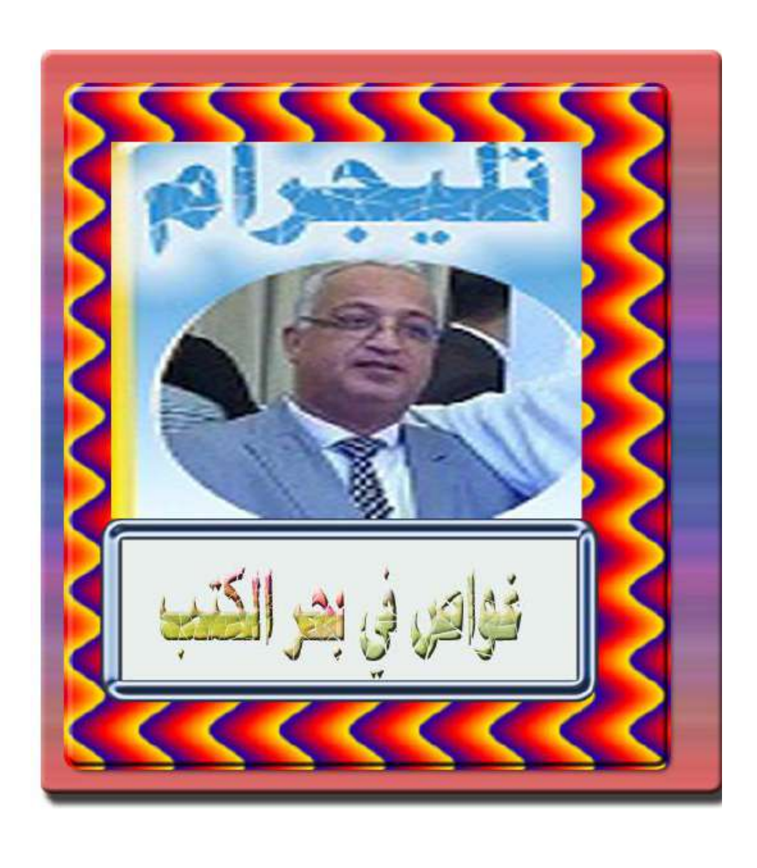
أم، ابنة، ملاك، وحش؟

مكتبة | 890
سُر مَن قرأ

ترجمة
الحارث النبهان

رواية




تليجرام
غواص في بحر الكتب

يقال لنا كثيرًا إن ضربات قلب أمِّنا أول صوت نسمعه عندما نكون في رحمها. الحقيقة إن أوَّل صوت يلامس جهاز السمع الناشئ حديثًا هو نبض دم الأم الجاري في أوردتها وشرايينها. تنبض قلوبنا متجاوبة مع ذلك الإيقاع الأول حتى قبل أن تكون لنا آذان تسمع. وحتى قبل أن تحبل أمهاتنا بنا، كنا موجودين -جزئيًا- على هيئة بويضات في مبايضهنّ. تتكوّن كل بويضات المرأة في مبيضيها حين تكون جنينًا في الشهر الرابع في رحم أمها. يعني هذا أن حياتنا منذ أن نكون خلية تبدأ، عندما نكون بويضات، في أرحام جداتنا. أمضى كل منا خمسة شهور في رحم جدّته التي تكوّنت بدورها في رحم جدتها. إننا نبض متجاوبين مع إيقاعات دم الأم حتى قبل أن تكون هي نفسها قد ولدت!

لايان رايموند - عندما كان قارعو الطبول نساءً

يتألّق بيتكَ في الليل كأنما كل ما فيه مُتَقدٌ نارًا.

تبدو الستائر التي اختارتها للنوافذ كأنها من قماش كتانيٍّ باهظِ الثمنِ. طيّات الستائر الرقيقة غير متداخلة... عادة ما تسمح لي بأن أقرأ مزاجكَ. أستطيع رؤية الفتاة تلوّح بشعرها المربوط خلف رأسها وهي تعمل على واجباتها المدرسية البيتيّة. أستطيع مراقبة الصبيّ الصغير يقذف كرة التنس صوب السقف المرتفع اثنتي عشرة قدمًا، في حين تدخل زوجتكَ غرفة المعيشة مرتدية بنطلونًا بيتيًا مشدودًا على ساقيها، وترتّب الغرفة لكي تخلّصها من فوضى ذلك اليوم. تعود الألعاب إلى سلّتها. وتعود الوسائد إلى الأريكة.

لكنّك تركت الستائر مفتوحة هذه الليلة. لعلّك فعلتَ هذا حتى ترى تساقط الثلج. ولعلّك فعلته حتى تستطيع ابنتك أن تنظر إلى الخارج مترقّبةً ظهور الوعل. كفّت عن تصديق هذا منذ وقت طويل، لكنها تتظاهر بالتصديق من أجلك أنت.

كلُّ شيءٍ من أجلكَ أنت!

أنتم متأنّقون جميعًا. الطفلان يرتديان ملابس متناسقة، يجلسان على الأريكة الجلدية الوثيرة بينما تلتقط زوجتك بهاتفها صورة لهما. الطفلة تمسك بيد الطفل. أنت تضع شيئًا في آلة التسجيل في آخر الغرفة، وزوجتك تتكلّم معك، لكنّك ترفع إصبعك وتستمهلها: كاد الأمر ينتهي. تقفز الطفلة متمايلة، وتقفز زوجتك جارّة الطفل معها، ويرقصون جميعًا. أنت ترفع كأسًا، كأس ويسكي، وتأخذ منها رشفة، رشفتين، وتبتعد عن آلة التسجيل خفيفًا كأنها طفل رضيع قد غفا. هكذا تبدأ الرقص دائمًا. تمسك به. يلقي برأسه إلى الخلف. تحمله وتقلّبه رأسًا على عقب. تمدّ ابنتك يديها إليك مطالبة بقبلة بابا، فتأخذ زوجتك الكأس من

يدك. تسير متهادية حتى الشجرة وتعدّل حبل مصابيح صغيرة ليس في وضع صحيح. ثم تتوقّفون جميعًا وتتقارب رؤوسكم وتصيحون قائلين شيئًا، تصيحون معًا بكلمة واحدة، في وقت واحد تمامًا، ثم تتحرّكون من جديد، هذه أغنية تعرفونها جيّدًا. تنسلّ زوجتك خارجة من الغرفة فيتابعها وجه ابنها متابعة تلقائية. أتذكر ذلك الإحساس... إحساس أن تكون الشخصَ الذي يحتاجون إليه.

أعواد الثقاب. تعود لكي تُشعل الشموع المصطفّة على رف زينة الموقد، فأتساءل إن كانت أغصان التنوب الأفعوانية حقيقية، وإن كانت لها رائحة أشجار الحقول نفسها. أترك نفسي أتخيّل -لحظة- وأراقب اشتعال النار في تلك الأغصان وأنتم جميعًا نائمون هذه الليلة. أتخيّل ألَق النار الدافئ الأصفر كالزبدة يتحوّل إلى فرقعة وحُمرة حارّة.

يلتقط الصبيّ محراك النار الحديدي، فتأخذه الفتاة من يده برفق قبل أن تلاحظ زوجتك الأمر، وقبل أن تلاحظه أنت. الأخت الطيّبة. الأخت المُعينة. الأخت الحانية.

لا أُمضي عادة هذا الوقت كله في المراقبة؛ لكنكم جميلون جدًا هذه الليلة، فلا أستطيع أن أحمل نفسي على الذهاب. الثلج... ثلج من النوع الذي يبقى، من النوع الذي ستصنع ابنتك منه في الصباح رجال ثلج حتى تُفرِح أخيها الصغير. أشغّل مساحتَيّ زجاج السيارة، وأعدّل الحرارة، وأرى الساعة تتغير من السابعة وتسع وعشرين دقيقة إلى السابعة وثلاثين دقيقة. إنه الوقت الذي تقرأ فيه لها قصة *«القطار القطبي السريع»*.

زوجتك... إنها جالسة الآن على الكرسي تنظر إليكم، أنتم الثلاثة، متقافزين في أرجاء الغرفة. تضحك وتزيح خصلات شعرِها الطويلة جانبًا. تتشمّم كأسك، وتضعها على الطاولة. تبتسم. ظهركَ إليها. لا تستطيع رؤية ما أراه؛ لا تستطيع رؤية أنها تضع إحدى يديها على بطنها،

وتدلّك ذلك الموضع بحركة بطيئة جدًا، ثم تطرق برأسها وتسرح أفكارها في ذلك الذي ينمو في داخلها. إنه خلايا فحسب. لكنّها كل شيء. تستدير صوبها فيعود انتباهها إلى الغرفة، إلى الأشخاص الذين تحبّهم.

سوف تخبرك صباح الغد.

لا أزال أعرفها معرفة حسنة جدًا.

أخفض عينيّ لكي أضع القفازَيْن في يدي. وعندما أرفع رأسي من جديد، أرى الفتاة واقفة بباب البيت المفتوح. وجهها نصف مُنارٍ بضوء المصباح المعلّق فوق رقم بيتك. في يدها طبق ممتلئ قطع جزر ومعجّنات حلوة. سوف تتركون بعض الفتات على بلاط الشرفة الأمامية. سوف تلعب معها، وسوف تلعب معك.

إنها الآن تنظر إليّ جالسة في سيارتي. أراها ترتجف. الثوب الذي اشترته لها زوجتك صغير عليها. أستطيع رؤية نمو ردفيها وبداية تشكّل ثدييها. بيدٍ واحدةٍ، تريح شعرها المربوط على كتفيها... حركة امرأة أكثر منها حركة طفلة.

ولأوّل مرّة في حياتها، أفكّر في أنّ ابنتنا تشبهني.

أنزل زجاج السيّارة، وأرفع يديّ... تحيّة، تحيّة سرّيّة.

تضع الطبق على الأرض عند قدمَيها، ثم تنظر إليّ من جديد قبل أن تستدير حتى تدخل... حتى تعود إلى أسرتها. أنتظر رؤية إغلاق الستائر، وأنتظر رؤيتك تخرج إلى الباب لكي تفهم ما جعلني أتوقّف بالسيارة عند بيتك في ليلة كهذه الليلة. حقًّا، ماذا يمكن أن أقول؟ أأقول لك إنني أشعر بالوحدة؟ أأقول لك إنني مشتاقة إليها. أأقول لك إنني أستحق أن أكون الأم في داخل بيتك المتألّق؟

لكنها تدخل غرفة المعيشة من جديد حيث استدرجتَ زوجتك إلى النهوض عن الكرسي. ترقصان معًا، متقاربين، يدك على ظهر قميصها.

تمسك ابنتنا بيد الصبيّ فتأخذه إلى نافذة غرفة المعيشة كأنها ممثّلة تؤدّي دورها على خشبة المسرح. إطار النافذة كأنه إطار محكم متقن لصورتهما معًا.

ابنك يشبه سام كثيرًا. إن له عينيه. وله تلك الموجة من شعر داكن منتهٍ بذؤابات ملتفّة... الذؤابات التي كنت ألفّها على إصبعي مرة بعد مرة.

ينتابني غثيان.

ابنتنا تنظر من النافذة، تنظر إليّ. يداها على كتفيّ ابنك. تنحني فوقه وتقبّل خدّه. ثم تقبّله من جديد، ثم تقبّله من جديد. يحبّ الصبي هذه العاطفة. لقد اعتادها. يشير لها إلى الثلج المتساقط، لكنها لا ترفع عنّي عينيها. تدلّك أعلى ذراعيه كأنها تحاول أن تدفئه. مثلما قد تفعل أمٌّ...

أراك تأتي إلى النافذة وتركع حتى تصير على مستوى الصبي. ترفع رأسك وتنظر إلى الخارج. لا تثير سيارتي انتباهك. تشير إلى ندف الثلج مثلما فعل ابنك، وتتابع بإصبعك مسارًا في السماء. أنت تحدّثهما عن الزلّاجة. تحدّثهما عن الوعل. عينا الصبيّ تنقّبان في ظلمة الليل، تحاولان رؤية ما تراه أنت. تداعب تحت ذقنه بحركة لعوب. لا تزال عيناها متعلّقتين بي. أجد نفسي أستند إلى ظهر مقعدي. أبتلع ريقي وتشيح عينيها عني. إنها تفوز دائمًا.

وعندما أنظر من جديد، أراها لا تزال هناك، تراقب سيارتي.

أتوقّع أن تمتدّ يدها إلى الستارة، لكنها لا تمتدّ إليها. لا تتركها عيناي هذه المرة. ألتقط حزمة الأوراق الثخينة الموضوعة على مقعد السيارة إلى جانبي، وأشعر بثقل كلماتي.

أتيت لكي أعطيها هذه الرزمة.

هذه هي القصة... من جانبي.

- 1 -

زلقتَ كرسيك فقرّبته مني، ونقرت على كتابي بطرف قلم الرصاص، فنظرتُ إلى الورقة متردّدة في رفع عينيّ والنظر إليك. «مرحبًا!»... هكذا أجبتك مثلما يردّ المرء على اتصال هاتفي. أضحكتك إجابتي. وهكذا، جلسنا هناك ضاحكين، شخصين غريبين في مكتبة المدرسة يدرسان المقرّر الدراسي الاختياري نفسه. لم أرك قبل ذلك،- لا بد أن في صفّنا مئات التلاميذ. تسقط خصلات شعرك الملتفّة فوق عينيك فتزيحها بقلم الرصاص جانبًا. إن لك اسمًا غريبًا متميّزًا. سرتَ معي إلى البيت في وقت لاحق من ذلك العصر، وكان كل منّا صامتًا. لم تحاول إخفاء كم كنت مغرمًا بي، بل رحتَ تبتسم لي في كل لحظة؛ وكنت أشيح بوجهي كل مرة. لم يحدث لي من قبل أن انصبَّ عليَّ هذا الاهتمام كلّه. قبّلتَ يدي أمام مهجعي، فجعلنا هذا نضحك من جديد.

سرعان ما بلغنا الحادية والعشرين، وما عاد شيء يستطيع الفصل بيننا. ما كان أمامنا أكثر من سنة واحدة قبل التخرّج. أمضينا تلك السنة ننام معًا في سريري في المهجع، وندرس معًا جالسَيْن على جهتين متقابلتين من الأريكة وقد تشابكت سيقاننا. كنا نخرج إلى البار مع أصدقائك، لكننا نعود إلى البيت في ساعة مبكرة دائمًا، نعود إلى الفراش، نعود إلى جِدّة إحساسنا بدفء كل واحد منّا. نادرًا ما كنت أشرب الكحول؛ وكنتَ قد اكتفيتَ مما يفعله الناس في الحفلات، - ما كنت تريد شيئًا غيري. وما كان يبدو لي أن أحدًا في عالمي معترضًا كثيرًا على هذا. كانت لي حلقة

أصدقاء ضيّقة، لكنهم كانوا أشخاصًا أعرفهم أكثر منهم أصدقاء. وكنت شديدة التركيز على مواصلة نيل درجات جيّدة حتى أحافظ على منحني الدراسيّة، فجعلني هذا من غير اهتمام بالحياة الاجتماعيّة التقليديّة في الجامعة، ومن غير وقت لها. أظنني لم أكن على علاقة وثيقة مع أي شخص في تلك السنين... إلى أن التقيتُك. لقد قدّمت إليّ شيئًا مختلفًا. انزلقنا خارجين من الدائرة الاجتماعية، وكان الواحد منا كل ما يحتاجه الآخر... يا للسعادة!

كانت الراحة التي أجدها معك غامرة. ما كان لدي شيء عندما التقيتك، فكان سهلًا عليك أن تصير كل شيء عندي. لا أعني أنك ما كنت جديرًا بهذا... بل كنت جديرًا به. كنت لطيفًا، فطنًا، مُساندًا. كنت أوّل شخص أُخبره بأنني أريد أن أصير كاتبة، فأجبتني: «لا أستطيع تخيّل أن تكوني أي شخص مختلفٍ». كنتُ شديدة الاستمتاع بنظرة الفتيات إلينا... كأنهنّ ترين فينا شيئًا يثير غيرتهنّ. كنت أشمّ رائحة شعرك الداكن وأنت نائم في الليل؛ وأسير بإصبعي على حافة فكّك ذي الزغب الخفيف حتى أوقظك في الصباح. كنتَ لي إدمانًا!

وفي عيد ميلادي، كتبت مئة شيء يعجبك فيّ... *14) يعجبني كيف تشخّرين قليلًا لحظة تغرقين في النوم. 27) أحب طريقتك الجميلة في الكتابة. 39) أحب أن أكتب اسمي بإصبعي على ظهرك. 59) أحب أن نتشارك أكل قطعة مافن في طريقنا إلى الدرس. 72) يعجبني مزاجك عندما تستيقظين أيام الأحد. 80) أحب رؤيتك تفرغين من قراءة كتاب جيّد، وكيف تضمّينه إلى صدرك آخر الأمر. 92) يعجبني أنك ستكونين أمًّا جيّدة ذات يوم.*

وضَعت القائمة من يدي وشعرت لحظة كأنك لا تعرفني أبدًا، «لماذا تظن أنني سأكون أمًّا جيّدة؟».

وخزت بطني بإصبعك مداعبًا إياي: «ولماذا لا تكونين أمًّا جيدة؟

أنت فتاة حنون. وأنت حلوة. لا أطيق انتظار أن أنجب منك أطفالًا صغارًا».

ما كنت أستطيع شيئًا غير أن أُرغم نفسي على الابتسام.

لم أعرف في حياتي كلّها شخصًا ذا قلبٍ توّاقٍ مثل قلبك.

«ستفهمين في يوم من الأيام، يا بلايذ! إن النساء في هذه العائلة... نحن مختلفات».

لا أزال أرى على فلتر السيجارة أثر أحمر الشفاه الورديّ الذي تستخدمه أمي. الرماد يتساقط في فنجاني ويسبح في آخر رشفة من عصير البرتقال. رائحة خبز التوست المحترق.

سألْتَني عن أمي، سيسيليا... سألتني مرات معدودة فقط. لم أقل لك إلا الحقائق: 1) رحلت أمي عندما كنت في الحادية عشرة؛ 2) لم أرها بعد ذلك إلا مرتين؛ 3) لا أعرف أبدًا أين هي الآن.

كنتَ مدركًا أن لديَّ المزيد مما لم أقله، لكنك لم تلحّ عليّ أبدًا! أفزعك ما قد تسمعه منّي. فهمت هذا. من حقّنا جميعًا أن يكون لدى كل منا ما يتوقّعه من الآخرين، ومن نفسه. الأمومة غير مختلفة عن هذا. نتوقّع كلنا أن تكون لنا أمهات جيّدات، وأن نتزوج أمهات جيّدات... أو أن نصير أمهات جيّدات.

1958 - 1939

ولِدت إيتا يوم بدأت الحرب العالمية الثانية. كانت لها عينان كالمحيط الأطلسي ووجه أحمر ممتلئ، منذ البداية.

وقعَتْ في هوى أول فتى التقته. ابن طبيب البلدة. كان اسمه لويس، وكان مهذّبًا حسن السمعة... أمر ليس شائعًا بين الفتيان الذين تعرفهم؛ ثم إنه ما كان من ذلك النوع من الأشخاص المبالين بأن حظ إيتا شاء لها أن تولد من غير جمال. كان لويس يسير مع إيتا إلى المدرسة واضعًا يده خلف ظهره، وذلك منذ أول أيام مدرستهما حتى آخرها. وكانت إيتا مسحورة بهذه الأشياء.

كانت لدى أسرتها مئات الأكرات من حقول الذرة. ولما صارت في الثامنة عشرة وقالت لأبيها إنها تريد الزواج من لويس، أصرّ الأب على أن يتعلّم من سيكون صهرًا له أصول الزراعة. ما كان لديه أبناء، فتمنّى أن يرث لويس عنه أعمال الأسرة. لكن إيتا ظنّت أن أباها لا يريد شيئًا غير أن يبرهن على رأيه أمام الفتى: الزراعة عمل شاقّ يحترمه الناس. ليست الزراعة للضعفاء. وبالتأكيد، ليست الزراعة مناسبة لشخص مثقّف. لقد اختارت إيتا شخصًا لا يشبه أباها أبدًا!

لقد خطط لويس لأن يكون طبيبًا مثل والده، وكانت في انتظاره منحة دراسية في كلية الطب. لكن رغبته في الزواج من إيتا صارت أكبر من رغبته في حيازة شهادة الطب. وعلى الرغم من مناشدة إيتا لأبيها بألاّ يكون شديدًا مع لويس، فقد جعله يعمل حتى آخر نَفَسْ. كان يستيقظ في الساعة الرابعة من فجر كل يوم ويخرج إلى الحقول الغارقة في الندى. من

الرابعة فجرًا حتى وقت الغسق. كانت إيتا تحبّ أنْ تذكّر الناس بأنه لم يشتكِ من ذلك أبدًا. باع لويس الحقيبة الطبّية والكتب الدراسية التي أورثه إياها أبوه، ثم وضع المال في وعاء على طاولة المطبخ. قال لإيتا إن هذا الوعاء بداية صندوق توفير من أجل مستقبل أطفالهما. ورأت إيتا أن هذا ينبئ بالكثير من مقدار ما كان لدى ذلك الرجل من غَيرية وإنكار للذات.

وفي يوم من أيام الخريف، قبل شروق الشمس، أصابت المطحنة المركّبة على عربة القش لويس بجرح بليغ. ظل ينزف حتى مات وحيدًا في حقل الذرة. وجده والد إيتا فجعلها تذهب لتغطية جسده بمشمَّع أتى به من الحظيرة. حملت إيتا ساق لويس المقطوعة وعادت بها إلى بيت المزرعة، فقذفت رأس أبيها بها بينما كان يملأ دلو ماء لكي يغسل الدم عن العربة.

لم تخبر أسرتها بعد عن الطفل الذي في أحشائها. كانت امرأة ضخمة الجسم، لديها سبعون باوندًا من الوزن الزائد الذي أخفى حملها جيدًا. ولدت الطفلة سيسيليا بعد أربعة شهور على أرض المطبخ أثناء هبوب عاصفة ثلجية. وكانت إيتا تحدّق في وعاء المال على طاولة المطبخ وهي تدفع بالطفلة خارج جسدها.

عاشت إيتا وسيسيليا عيشة هادئة في بيت المزرعة، وما كانتا تذهبان إلى البلدة إلا نادرًا. وعندما تذهبان إليها، كان سهلًا سماع الجميع يتهامسون عن تلك المرأة التي تعاني مشكلة في أعصابها. ما كان يقال أكثر من ذلك في تلك الأيام؛ وما كان أحد يتوقّع وجود ما هو أكثر من ذلك. واظب والد لويس على إعطاء والدة إيتا كميات من الأدوية المهدّئة حتى تجعل ابنتها تتناولها بقدر ما تراه ملائمًا. وهكذا كانت إيتا تمضي الشطر الأكبر من كل يوم من أيامها مستلقية في السرير النحاسي الصغير في البيت الذي ترعرعت فيه، في حين كانت أمها تعتني بسيسيليا الصغيرة. إلا أن إيتا لم تتأخّر كثيرًا في إدراك أنها لن تلتقي رجلًا آخر ما

دامت مستلقية في السرير مخدّرة بفعل تلك الأدوية. علّمت نفسها كيف تتحرّك من جديد، ثم صارت تعتني بسيسيليا وتتجوّل في البلدة دافعة عربتها أمامها، في حين تزعق الصغيرة مطالبة بجدّتها. كانت إيتا تقول إنها عانت ألمًا فظيعًا مزمنًا في معدتها، وإنها ظلت شهورًا كثيرة غير قادرة على الأكل. لم يصدّقها أحد، لكن إيتا ما كانت مهتمّة بنمائمهم الكسلى. لقد التقت هنري.

كان هنري جديدًا في البلدة؛ وكانا يذهبان إلى الكنيسة نفسها. كان مديرًا لستين شخصًا يعملون في مصنع للحلويات. وقد كان شديد اللطف مع إيتا منذ لقائهما الأول. كان رجلًا يحب الأطفال الصغار. وكانت سيسيليا جذّابة جدًّا. اتضح أن وجود الطفلة الصغيرة ليس مشكلة مثلما توقّع الجميع أن يكون.

لم يمضِ زمن طويل قبل أن يشتري هنري بيتًا مبنيًا على الطراز التيودوري في وسط البلدة، كان مطليًا بلون أخضر كالنعناع. هجرت إيتا السرير النحاسي إلى الأبد، واستعادت الوزن الذي كانت قد خسرته. كرّست نفسها من أجل صنع بيت لأسرتها. شرفة أمامية حسنة البناء فيها أرجوحة وستائر من الدانتيلا على كل نافذة، وفطائر حلوة بشرائح الشوكولاته في الفرن دائمًا. وذات يوم، أخطأ العمال الذين أوصلوا أثاث غرفة معيشتهما الجديدة، ولم تتأخّر الجارة عن توجيه العمال إلى وضع الأثاث في قبو بيتها مع أنها لم تكن من طلبه. ولما سمعت إيتا بالأمر، جرت في الشارع خلف الشاحنة مطلقة شتائم مقذعة وهي ترتدي مئزرها البيتي وفي رأسها لفافات الشعر. ضحك الجميع مما جرى. وضحكت إيتا نفسها آخر الأمر.

بذلت كل جهدها حتى تكون المرأة التي ينتظر منها أن تكونها.

زوجة صالحة، وأم جيدة.

بدا أن كلّ شيء سيسير على أحسن ما يرام.

- 2 -

أمور تتبادر إلى ذهني عندما أفكر في بدايتنا معًا:

والدك ووالدتك. لعلّ هذا ما كانت له تلك الأهمية كلها بالنسبة إلى الآخرين؛ لكن عائلتك أتت معك... أتت إلى حياتي! كانت عائلتك عائلتي الوحيدة. الهدايا السخيّة، وبطاقات الطائرة حتى أكون معكم جميعًا في عطلة مشمسة في مكان من الأماكن. كان بيتهما يفوح بالدفء، وبرائحة الملاءات المغسولة... دائمًا؛ وكلما ذهبنا لزيارتهما، كنت أجد نفسي غير راغبة في ترك ذلك البيت. كانت أمك تمسّ أطراف شعري بطريقة تجعلني راغبة في الاندساس في حجرها. كنت أحسّ أحيانًا أنها تحبّني مثلما تحبّك.

قبولُهما وضعَ والدي من غير أي اعتراض، وتغاضيهما عن تصرّفه الغريب عندما رفض دعوتهما لزيارة بيتهما في العطلة... كان ذلك لطفًا جعلني ممتنّة لهما. وبالطبع، لم يكن أحد ليأتي على ذكر سيسيليا لأنك كنت فطنًا فتحدّثت معهما في هذا الأمر قبل أن تأتي بي إلى بيتهما.

«بلايذ رائعة. هي رائعة حقًّا. لكن، مثلما تعرفان...». ما كانت أمي موضوعًا تتحدّثون عنه في ما بينكم؛ وما كانت لدى أيٍّ منكم شهيّة إلى أيّ شيء غير المسرّة.

لقد كنتم في غاية الكمال... كلّكم.

كنت تدعو أختك الصغيرة «حبيبتي»؛ وكانت تعبدك. كنت تتّصل بأهلك كل ليلة، وكنت أقف في الممر أصغي إلى ما تقوله، متمنيّة أن أستطيع سماع ما قالته أمك، فجعلتك تضحك ذلك الضحك كلّه. كنت

تذهب إلى بيت أهلك كل أسبوعين حتى تساعد والدك في أداء أعمال الحديقة. كنتم تتعانقون. كنت تجالس أبناء عمومتك الصغار في غياب أهلهم. وكنت تعرف وصفة خبز الموز التي تعدّها أمّك. كنت ترسل إلى والديك بطاقة في ذكرى زواجهما كل سنة. لم يحدث أبدًا أن أتى أبي وأمي على ذكر زفافهما.

أبي!... لم يردّ أبي عندما كتَبت إليه رسالة أخبره فيها بأنني لن أعود إلى البيت في عطلة عيد الشكر تلك السنة؛ لكنّي كذبت عليك وقلت إنه سعيد لأنني التقيت أحدًا، وإنه يرسل إلى عائلتك أطيب تحيّاته. كانت الحقيقة أننا لم نكن نتكلّم كثيرًا منذ أن التقيتك. كان أكثر التواصل بيننا يجري من خلال رسائل هاتفية مسجّلة. وحتى عند ذلك، كان الأمر قد تحوّل إلى اتصالات عادية لا طعم لها، أحاديث ذلك النوع الذي يحرجني أن تسمعه. لست أدري على وجه التحديد كيف وصلنا إلى تلك النقطة، أنا وأبي. كان الكذب أمرًا لا بد منه، ومثله تلك الأكاذيب الأخرى التي قلتها لك حتى لا تستطيع تخمين كم كانت صلاتنا العائلية في حالة مزرية. كانت العائلة مهمّة جدًا بالنسبة إليك. وما كان أحد منا مستعدًا للمخاطرة بالحقيقة الكاملة التي ستغيّر نظرتك إليّ.

تلك الشقّة الأولى. هناك، كنت أُحبك في الصباح أكثر من أي وقت آخر. أحببت كيف تجذب ملاءة السرير فوقك فتجعلها مثل خيمة تنام تحتها مزيدًا من الوقت... وتلك الرائحة الصبيانيّة الثقيلة التي تتركها على أغلفة وسائدنا. تلك الأيام، كنت أستيقظ في ساعة مبكرة، بل أستيقظ قبل الشمس أكثر الأحيان. أستيقظ وأكتب في آخر المطبخ الصغير الذي كان دائمًا شديد البرودة. كنت أتدثّر بمنشفة الحمام الكبيرة، وأشرب الشاي من فنجان من السيراميك طليته من أجلك في واحد من تلك الأماكن التي يصنعون فيها الخزفيات. أسمعك بعد ذلك تصيح باسمي... عندما

تكون الأرض قد صارت دافئة، ويكون النور المتسرّب من مصاريع النوافذ قد صار كافيًا لأن ترى تفاصيل لحمي. كنت تجذبني إلى الفراش فننغمر في التجارب. - كنت جريئًا، واثقًا، عارفًا ما يستطيعه جسدي... حتى قبل أن أعرف هذا. كنت تسحرني. ثقتك. صبرك. وتلك الحاجة البدائية التي كانت عندك... حاجتك إليّ.

ليالِيَ أمضيتها مع غريس. كانت غريس واحدة من زميلاتي في الجامعة، بقيتُ على صلة بها بعد تخرّجنا. لم أكن أُفصح عن مدى إعجابي بها لما أحسسته لديك من غيرة بسبب الوقت الذي أمضيه معها، وكذلك لأنك كنت ترى أننا نكثر من الشراب، مع إنني ما كنت أعطيها إلا أقل القليل، وما كانت علاقتي بها إلا بقدر ما تكونه الصداقة بين امرأتين. مع هذا، كنت تقدّم إلينا أزهارًا يوم الفالنتاين، عندما كانت غريس لا تزال من غير رَجل. كنت أدعوها إلى العشاء مرّة في الشهر، أو نحو ذلك. وكنت ثالثنا... تقلب دلو القمامة وتجلس عليه. كنت تتوقّف دائمًا في طريق عودتك من العمل لكي تشتري زجاجة نبيذ جيّدة تأتي بها إلى البيت. وعندما تبدأ النمائم بيننا، وتراها تُخرِج سجائرها، كنت تعتذر اعتذارًا مهذبًا وتفتح كتابًا. سمعناك ذات ليلة تتكلّم مع أختك على الشرفة عندما كنا جالستين في الداخل (هل تتخيّل هذا؟). كانت أختك تعاني آثار انفصالها عن شخص كانت معه، فاتصلت بأخيها، موضع ثقتها. سألتني غريس عما فيك من مشكلات. مزاج رديء؟ غير مُرضٍ في الفراش؟ لا بد أن تكون فيك مشكلة لأن ما من رجل كامل هكذا. لكن ما من مشكلة فيك... ليس في ذلك الوقت... لم تكن هناك أية مشكلة يمكنني الحديث عنها. كنت أستخدم كلمة «حظ». كنت محظوظة. ما كان لديّ الكثير. لكنك كنت لديّ.

عملُنا. قليلًا ما كنا نتحدث عن عملنا. كنت أحسدك على نجاحك المتزايد؛ وكنت تعرف هذا. - كان لديك انتباه شديد إلى الفوارق بين مسارَيْنا العمليين، وبين دخلي ودخلك. كنت تجني مالًا؛ وكنت أحلم. المال الذي جنيته منذ تخرجي كان قليلًا جدًّا، كان لا شيء... تقريبًا، باستثناء بضعة مشاريع كتابة حرّة. لكنك كنت كريمًا في الإنفاق على معيشتنا. أعطيتني بطاقة ائتمان. لم تقل يومها شيئًا غير: «استخدميها في كل ما يلزمك». في ذلك الوقت، كنت قد بدأت عملك في شركة البناء، وتلقيتَ ترقيتين خلال الزمن نفسه الذي لم أنتج فيه غير ثلاث قصص قصيرة. ثلاث قصص لم تُنشر أبدًا. كنت تذهب إلى عملك فتبدو كأنك ملكُ شخص آخر.

كانت رسائل الرفض تأتيني مثلما كان متوقّعًا لها، - لكنّك ظللت تذكّرني بلطف، مرّات كثيرة، بأن هذا جزء مما يحدث دائمًا. سوف ينجح الأمر. أحسست بأن لديك إيمانًا سحريًّا بي. وأردت من كل قلبي أن أثبت لنفسي أنني جيدة مثلما كنت تظنني. «اقرأي لي. اقرأي لي ما كتبته اليوم، من فضلك!». كنت أجعلك تتوسّل، دائمًا، ثم تضحك مقهقهًا عندما أتظاهر بالإذعان وأقبل أن أقرأ لك. عادتك السخيفة المضحكة تلك. كنت تتكوّر على الأريكة بعد العشاء، مرهقًا، لم تخلع ملابس العمل بعد. كنت تغمض عينيك فأقرأ لك ما كتبته وأراك تبتسم عند كل جملة بارعة.

وليلة جعلتك ترى أول قصة منشورة لي، ارتعشت يدك لحظة أمسكت تلك المجلة الثقيلة. كثيرًا ما تذكّرت هذا. تذكّرت اعتزازك بي. ظللت أرى تلك اليد المرتعشة سنين كثيرة بعد ذلك... ظللت أراها تحمل رأسها الصغير الرطب الذي لا تزال آثار دَمي عليه.

لكن، قبل ذلك:

طلبت الزواج مني في عيد ميلادي الخامس والعشرين.

قدّمت إليّ خاتمًا لا أزال أضعه في إصبع يدي اليسرى.

- 3 -

لم أسألك أبدًا إن كان فستان زفافي يعجبك. اشتريته مستعمَلًا لأنني رأيته في واجهة واحد من المتاجر التي تبيع بأسعار مخفّضة، فلم أستطع إبعاده عن ذهني طيلة الوقت الذي أمضيته مع أمك في البحث في متاجر فساتين الزفاف ذات الأثمان الباهظة. لم تكن تهمس همسًا مثلما كان يفعل بعض العرسان الذين تصيبهم الرهبة، فيتعرّقون أمام مذبح الكنيسة ويتململون في وقفتهم. تبدين جميلة! لم تقل لي شيئًا عن فستاني عندما اختبأنا خلف جدار القرميد الأحمر، منتظرين لحظة الخروج إلى الفناء، حيث كان ضيوفنا يحتسون الشامبانيا، ويتحدّثون عن الحرّ في ذلك اليوم، ويتساءَلون عن موعد تقديم طبق المقبّلات التالي. كنت كأنك غير قادر على النظر إلى شيء غير وجهي المشرق المتورّد. كنت غير قادر على أن تفارق عيناك عينيّ.

كنتَ وسيمًا مثلما لم تكن في يوم من الأيام. أستطيع الآن أن أغمض عينيّ وأراك في السادسة والعشرين، أرى كيف كان جلدك يبدو لامعًا، وكيف كانت خصلات شعرك متدليّة على جبهتك. أقسم أن في وجنتيك شيئًا باقيًا من وجنتي الطفل الممتلئتين.

ظلّ كلٌّ منا ممسكًا بيد الآخر طيلة تلك الليلة، ضاغطًا عليها. ما أقل ما كان واحدنا يعرف الآخر في ذلك الوقت! وما أقل ما كنا نعرفه عن الشخصين اللذين سوف نكونهما.

كنا قادرَيْن على إحصاء عدد مشكلاتنا على بتلات أقحوانة واحدة في باقة الأزهار التي حملتها؛ لكننا لم نلبث أن صرنا تائهَين في حقلٍ كاملٍ منها بعد وقت قصير.

«لن تكون هناك طاولة من أجل عائلة العروس»، - هذا ما سَمعت مُنظِّمة حفل الزفاف تقوله للرجل الذي كان يوزّع الكراسي ويضع بطاقات الأسماء.

أومأ لها برأسه إيماءة صغيرة.

قدَّم إلينا أبوك وأمك خاتمَيّ الزواج قبل بدء مراسمه. قدّما إلينا الخاتمين في صَدَفة فضية كانت هدية لجدّة أمك من رجل أحبّته لكنه ذهب إلى الحرب ولم يعد بعد ذلك. في تلك الصدَفة كان منقوشًا عهده لها: فيوليت – *سوف تجدينني دائمًا.*

قلتَ لي يومها: «كم كان اسمها جميلًا»!

كان على كتفيّ أمّك شال ثمين بلون رمادي فضي. رفَعت نخبنا قائلة: «يحدث أحيانًا أن تشهد الزيجات تباعدًا. لا نلاحظ كم ابتعد الواحد منا عن الآخر إلى أن ننظر فلا نرى من حولنا غير المياه، ونشعر بأننا صرنا غير قادرَيْن على العودة». توقّفتْ قليلًا ونظرت إليّ فقط... «فليصغِ كل منكما إلى نبضات قلب الآخر، وسوف يعثر عليه دائمًا. عندها، تستطيعان أن تعودا إلى شاطئ الأمان». أمسكتُ بيد أبيك فوقفتَ رافعًا كأسك.

مارسنا الحب في تلك الليلة بدافع من الإذعان... لأن هذا ما كان علينا أن نفعله. كنا مرهقَين، مستنفدَين. لكننا شعرنا بأن الأمر حقيقيٌّ جدًّا. كان خاتما الزواج في يدينا، وكانت لدينا فاتورة حفلة الزفاف... وصداعٌ بعد تلك الليلة.

أبدَ الدهر ستكونين أول أصدقائي، توأم روحي، شريكتي في الحياة بكل ما فيها، بحلوها وبمرّها، خلال عشرات آلاف الأيام التي سنعيشها معًا. أنت، يا فوكس كونر... أنت من أحب. سأكون كلّي لك.

ثم مرت سنين، ورأتني ابنتنا أضع الفستان في صندوق سيارتنا. كنت أعيده إلى المكان نفسه الذي وجدته فيه.

- 4 -

أتذكّر تمامًا كيف كانت الحياة في الزمن الذي أعقب ذلك.

السنين التي سبقت مجيء ابنتنا، فيوليت.

كنا نتناول طعام العشاء في وقت متأخر، على الأريكة، ونتابع في التلفزيون برامج عن الشؤون الجارية. كنا نشتري وجبات جاهزة كثيفة التوابل نضعها على طاولة رخامية صغيرة سوداء لها زوايا حادة. وكنا نشرب كؤوس النبيذ الفوار عند الساعة الثانية من بعد ظهر كل يوم عطلة، ثم نغفو قليلًا إلى أن يصحو أحدنا، بعد ساعات، على أصوات الناس السائرين في الخارج. يحدث أن نمارس الجنس. يحدث أن نقصّ شعرنا. كنت أقرأ صفحات الرحلات والأسفار في الصحف، وأشعر كأنني أجري بحثًا، بحثًا حقيقيًا، عن المكان الذي سنذهب إليه في المرّة القادمة. كنت أجوب المتاجر الغالية حاملة في يدي كأس شراب حارّ على سطحه زَبَدٌ أبيض. وفي الشتاء، كنت أستخدم قفازات جلدية إيطالية. كنتَ تلعب الغولف مع أصدقاء. وكنتُ أهتم بأخبار السياسة! نستلقي متكوّرين على أريكة الردهة، ونقول في نفسَيْنا إن من اللطيف أن نكون معًا، متلامسَيْن. كنت أحب متابعة الأفلام لأنها شيء قادر على أخذ ذهني بعيدًا عن المكان الذي أنا جالسة فيه. صارت الحياة أقلّ صعوبة. صارت الأفكار أكثر تألّقًا. كانت الكلمات تأتي من غير صعوبة! كانت دورة الحيض خفيفة. كنتَ تُشغّل أغاني وموسيقى تملأ البيت كلّه، أشياء جديدة، فنانون سمعتَ واحدًا من الناس يتحدّث عنهم على كأس من البيرة في مؤسّسة كلّها أشخاص راشدون. ما كان صابون الغسيل

عضويًا؛ هذا ما جعل ملابسنا تفوح دائمًا بشذى الجبال الاصطناعي المنعش. كنا نذهب إلى الجبال. تسألني عما أكتبه. وما كنت أنظر أبدًا إلى أي رجل آخر لأتساءل كيف يكون الأمر إن ضاجعته بدلًا منك. كنت تقود سيارة غير عملية أبدًا، كل يوم، تقودها إلى أن يتساقط الثلج رابع مرة في تلك السنة، أو خامس مرة. قلت لي إنك تحب أن يكون لدينا كلب. كنا ننظر إلى الكلاب في الشوارع ونتوقّف أحيانًا لكي نداعبها. ما كان المتنزّه مهرَبي الوحيد من أعمال المنزل. وما كانت في الكتب التي نقرأها صورٌ. ما كنا نفكّر في أثر شاشات التلفزيون على الدماغ. وما كنا مدركين أن الأطفال يحبّون الأشياء أكثر إذا كانت مصنوعة لكي يستخدمها الكبار. كان كل واحد منا يظنّ أنه قد عرف الآخر. كان كل واحد منا يظنّ أنه عرف نفسه.



- 5 -

صيفَ بلغتُ السابعة والعشرين. كرسيان قديمان قابلان للطي على الشرفة المطلّة على الزقاق بيننا وبين المبنى المجاور. صف المصابيح الورقية البيضاء الذي علّقته جعل -لست أدري بأية طريقة- رائحة القمامة الحارّة المتصاعدة من الأسفل واضحة. كان ذلك عندما قلتَ لي ونحن نحتسي كأسَيْن من نبيذ أبيض منعش: «فلنبدأ المحاولة... الليلة».

تكلمنا في هذا الأمر من قبل؛ تكلّمنا فيه مرات كثيرة. كنتَ تبدو سعيدًا على نحو خاصّ عندما أحمل أطفالَ آخرين، أو عندما أجثو لكي ألاعبهم. *أنتِ أمٌّ بطبيعتك!* لكني أنا من كان يتخيّل الأمر تخيّلًا. الأمومة! كيف ستكون الأمومة؟ كيف سيكون إحساسي بها؟ الأمومة لائقة بك.

سأكون مختلفة. لن أكون مثل بقية الأمهات اللواتي لا يجدن صعوبة في هذا. سأكون كل ما لم تكُنْه أمّي.

نادرًا ما كانت تخطر في ذهني تلك الأيام... أمّي! كنت حريصة على هذا. أزيحها جانبًا عندما تأتيني من غير دعوة. أنفخها مثلما أنفخ ذرّات رماد السيجارة المتساقطة في كأس العصير التي في يدي.

أتى الصيف فاستأجرنا شقّة أكبر فيها غرفة نوم ثانية... شقّة في بناية فيها مصعد شديد البطء. الشقّة التي عشنا فيها قبل ذلك كانت من غير مصعد؛ وما كانت مناسبة من أجل عربة الأطفال. كان كلٌّ منا يلفت انتباه الآخر إلى مستلزمات الأطفال، بلكزات صغيرة، من غير كلمات. قطَعُ ملابسَ صغيرة جميلة في واجهات المتاجر. إخوة وأخوات صغار، يدًا بيدٍ. كنا نعيش ترقّبًا. كنا نعيش أملًا. قبل شهور من ذلك، ازداد انتباهي

إلى دورات الحيض عندي. صرت أتابع مواعيد الإباضة. صرت أسجل المواعيد في دفتر صغير. وفي يوم من الأيام، رأيت وجهين صغيرين مبتسمين على شريحة اختبار الحمل. كانت حماستُك في غاية الجمال. سوف تصير أبًا ممتازًا. وسوف أصير أم طفلتك الرائعة.

أنظر إلى تلك الأيام فأستغرب كم كنت واثقة آنذاك. ما عاد لديَّ إحساسٌ بأنني ابنة أمي. كنت أحسّ بنفسي زوجتك. كنت أتظاهر، منذ سنين، بأنني زوجة ممتازة لك. أردت أن تظلّ سعيدًا دائمًا. وأردت أن أكون أيَّ شخصٍ غير تلك الأم التي أتيتُ منها. وأيضًا، أردت طفلًا.

- 6 -

آل إلّنغتون... كان بيتهم على مسافة ثلاثة بيوت من البيت الذي نشأتُ فيه. وكانت حديقتهم الحديقة الوحيدة في الحيّ التي تظلّ خضراء طيلة أيام الصيف الجافة التي لا تنتهي. دقّت السيدة إلنغتون بابَنا بعد أن تركتني سيسيليا باثنتين وسبعين ساعة، بالضبط. كان أبي لا يزال نائمًا يشخر على الأريكة حيث ظلّ ينام كل ليلة طيلة السنة الأخيرة. قبل ساعة واحدة فقط، كنت قد أدركت أن أمي لن تعود إلى البيت هذه المرة. تفقّدت فساتينها ودروج الحمّام والمكان الذي تضع فيه علب سجائرها. كان كل ما يهمّها قد اختفى. في ذلك الوقت، كنت مدركة أن عليّ ألّا أسأل أبي أين ذهبت.

«بلايذ، هل تحبين أن تأتي من أجل شواء الأحد اللطيف في بيتنا؟».

كانت خصلات شعرها المتراصّة لامعة، صلبة، خارجة من صالون التجميل قبل قليل، فلم أستطع إلا أن أوجّه إجابتي إلى تلك الخصلات بإيماءة من رأسي وبكلمة شكر. وعلى الفور، ذهبتُ إلى غرفة الغسيل وارتديتُ أفضل ملابسي - سترة زرقاء داكنة، وكنزة عالية الياقة مخطّطة بألوان قوس قزح أخرجتهما من الغسالة. لقد فكّرت في سؤالها إن كان ممكنًا أن يأتي أبي أيضًا، لكن السيدة إلنغتون كانت شديدة الدقّة من النواحي الاجتماعية فأدركت أنها لم تشمل أبي بدعوتها... وأدركت أن لهذا سببًا.

كان توماس إلنغتون الأصغر أفضل صديق عندي. لست أدري متى منَحته هذا التميّز، لكنه كان الشخص الوحيد الذي يهتم بأن يلعب

معي عندما كنت في العاشرة من عمري. لم أكن أشعر بالراحة مع البنات اللواتي في سنّي. بدت لي حياتي مختلفة عن حياتهنّ. مختلفة عن حياتهنّ باهتمامهنّ بوصفات المخبوزات السهلة، وبشرائط الشّعر المصنوعة بيتيًا، وبجواربهنّ المتناسبة مع ملابسهنّ. أمهاتهنّ أيضًا. تعلّمت في وقت مبكر جدًّا أن كَوْني مختلفة عنهنّ يجعلني غير مرتاحة.

لكني كنت أجد راحة في بيت آل إلنغتون.

كان معنى دعوة السيدة إلنغتون أنها، بكلّ تأكيد، قد عرفت أن أمي قد رحلت. لست أدري كيف عرفت هذا لأن أمي ما عادت تسمح لي بأن أذهب إلى العشاء في بيت آل إلنغتون. قرّرَت أمي في لحظة من اللحظات أن عليّ أن أكون في البيت قبل الساعة الخامسة إلا ربعًا، كل ليلة... بيتنا الذي ما كان فيه شيء أعود إليه: الفرن بارد دائمًا، والبراد خالٍ دائمًا. في ذلك الوقت، كنت أتعشى مع أبي وجبة جاهزة من الشوفان. كان يجلب إلى البيت مظاريف صغيرة من السكر البني لكي نضعه فوق ذلك الشوفان... مظاريف يملأ بها جيوبه من الكافيتريا في المستشفى حيث كان مسؤولًا عن العمال الذين ينظّفون المكان. كان دخله مقبولًا جدًّا... وفق المعايير المحلّية، على الأقل. لكن عيشنا ما كان يبدو كذلك.

لا أدري كيف تعلّمت أن من حسن الأدب أن يجلب المرء معه هدية عندما يكون مدعوًا إلى عشاء لطيف. وهكذا قطفت باقة أزهار صغيرة من شجيرة أمام بيتنا، مع أن أكثر تلك الزهرات البيض قد تحوّل إلى لون وردي مغبر لأننا صرنا في آخر شهر أيلول. ربطتُ الزهرات بشريط مطاطي كالذي أربط به شعري.

قالت لي السيدة إلنغتون: «أنت صبية ذكيّة كثيرًا!». ثم وضعت الأزهار في مزهرية زرقاء جعلتها تحتلّ مركز الطاولة المزدحمة بأطباق يتصاعد منها البخار.

كان دانييل، شقيق توماس الأصغر، يحبني حب العبادة. كنا نلعب

بالقطارات في غرفة المعيشة بعد المدرسة، في حين يكتب توماس واجباته البيتية مع أمه. وأما أنا، فكنت أدّخر واجباتي إلى ما بعد الساعة الثامنة، إلى ما بعد انصراف أمي إلى سريرها، أو إلى ما بعد ذهابها لقضاء الليلة في المدينة. كثيرًا ما كانت تفعل ذلك، - تذهب إلى المدينة ولا تعود إلا في اليوم التالي. هكذا، كانت كتابة واجباتي توفّر لي شيئًا أفعله ريثما يأتيني النعاس. كان دانييل الصغير يسحرني. يتكلّم مثل الكبار، ويعرف كيف يُجري عمليات الضرب منذ أن كان في الخامسة من عمره. كنت أمتحن معرفته جدول الضرب ونحن نلعب على سجادة آل إنغتون البرتقالية الخشنة، فأشعر بالحيرة لشدّة ذكائه. كانت السيدة إنغتون تأتي أحيانًا لكي تستمع إلينا، ولا تنسى أبدًا أن تمسّ رأس كل منا قبل ذهابها. *أحسنتما... كلاكما!*

كان توماس ذكيًا أيضًا، لكن ذكاءه كان مختلفًا. كان قادرًا على تأليف قصص عجيبةٍ، يكتبها في دفتر صغير له سلك، اشترته أمه لنا من المتجر الذيٍ عند زاوية الشارع. وبعد ذلك، كنا نرسم على كل صفحة صورة متناسبة مع ما كتبناه فيها. يستغرق الكتاب الواحد أسبوعًا واحدًا - ننفق وقتًا طويلًا في مناقشة ما ينبغي أن نرسمه من أجل كل جزء من أجزاء القصة، ثم نمضي وقتًا طويلًا في بري الأقلام الملونة كلها قبل أن نبدأ الرسم. وذات مرة، سمح لي توماس بأن آخذ معي واحدًا من تلك الكتب إلى البيت. كانت تلك القصّة عن أم لطيفة جميلة أصابها نوع نادر من الجدري القاتل فمرضت مرضًا شديدًا. تذهب الأسرة لقضاء عطلتها الأخيرة معًا في جزيرة بعيدة، حيث تعثر في الرمل على عفريت سحري صغير اسمه جورج، لا يقول إلا شعرًا. يعِدهم العفريت بمنحهم قدرة خارقة إن هم أخذوه معهم في حقائبهم إلى الناحية الأخرى من العالم. يوافقون على ذلك، فيمنحهم القدرة على تمنٍ... *أن تعيش أمّكم إلى الأبد، إلى آخر الزمان، وعندما ينتابكم حزن، ما عليكم إلا أن تغنّوا هذه الأغنية!*

يسكن العفريت جَيب الأم ويظل فيه إلى الأبد. ويظل الجميع سعداء.
اعتنيت كثيرًا برسم أفراد الأسرة على صفحات الكتاب. كانوا شديدي الشبه بآل إنغتون، لكن معهم طفلة لا تشبههم أبدًا: ابنة لها بشرة وردية نضرة، مثل بشرتي.

وفي الصباح، وجدت أمي جالسة على حافة سريري تقلّب الكتاب الذي أخفيتُه عميقًا في درج ملابسي.

«من أين أتيت بهذا؟»... طرحت عليّ السؤال من غير أن تنظر في اتجاهي، ثم توقّفت عند الصفحة التي رسمت فيها نفسي مع تلك الأسرة السوداء.

«صنعته بنفسي. مع توماس. في بيته». مددت يدي لكي آخذ الكتاب منها؛ لكي آخذ كتابي. كانت حركتي راجية، لكنها أبعدت يدها عني ثم ألقت بالكتاب على رأسي بطريقة توحي بأن تلك الصفحات المربوطة بسلك، وكل ما فيها، تثير تقزّزها. خدشت زاوية الكتاب ذقني قبل أن يسقط على الأرض، بيننا. حدّقت في الكتاب مُحرَجة، مُرتبكة. شعرت بالحرج من الصور التي لم تعجبها، ومن أنني خبأت عنها ذلك الكتاب.

نهضت أمي واقفة، رقبتها الدقيقة منتصبة، وكتفاها مرتدتان إلى الخلف. وبهدوء، أغلقت الباب من ورائها.

أعدت الكتاب إلى بيت توماس في اليوم التالي.

«لماذا لا تريدين الاحتفاظ به؟ لقد كنت معتزة كثيرًا بما صنعتماه». أخذت السيدة إنغتون الكتاب من يدي، ورأت أنه مجعّد في عدة مواضع. وبيدها، مسّدت الغلاف بحركة رقيقة. قالت لي: «لا بأس...»، ثم هزّت رأسها حتى أفهم أنني لست مضطرة إلى الإجابة... «يمكنك أن تحتفظي به عندنا».

وضعته على رفّ الكتب في غرفة المعيشة. وقبل خروجي من بيتهم في ذلك اليوم، لاحظت أنها وضعَت الكتاب مفتوحًا على الصفحة الأخيرة

بحيث تصير الصورة مواجهة للغرفة - أسرة من خمسة أشخاص، أنا من بينهم، يضع كل منهم ذراعه حول وسط الآخر؛ وطوفان من قلوب صغيرة منهمرٌ من أمنا الباسمة الواقفة وسطنا.

بعد عشاء يوم الأحد الذي أعقب رحيل أمي، اقترحت علي السيدة إنغتون أن أشاركها تنظيف المطبخ. وضعت شريط كاسيت في آلة التسجيل وراحت تغني قليلًا وهي ترفع الأطباق عن الطاولة، وتمسح سطح المجلى. كنت أغسل الأطباق بالماء وأنظر إليها بطرف عيني نظرة خجلى. توقّفت عن الغناء، والتقطت قفّاز الفرن الذي كان على الطاولة. نظرت إليّ بابتسامة لعوب، ثم وضعت يدها في القفاز ورفعتها حتى صارت إلى جوار رأسها.

قالت بصوتٍ حادٍّ مضحك وهي تحرك أصابعها داخل القفاز، الذي صار دمية متكلّمة: «يا آنسة بلايذ، نحن نطلب من كل ضيوفنا المهمّين هنا، في برنامج بعد العشاء في بيت آل إنغتون، أن يجيبوا عن بعض الأسئلة المتعلّقة بهم. لذا، أخبرينا عما تحبّين فعله من أجل قضاء وقت ممتع! هل ذهبتِ إلى السينما في يوم من الأيام؟».

ضحكت ضحكة مرتبكة لأنني لم أعرف كيف أسايرها في هذه اللعبة. «آه، نعم. أحيانًا». لم أكن قد ذهبت إلى السينما أبدًا. ولم يسبق لي أبدًا أن تحدّثت مع دمية متكلّمة. أطرقت برأسي ورحت أعبث بالأطباق في المجلى. دخل وماس المطبخ جريًا، وأطلق صيحة فرح: «ماما تؤدّي العرض المتكلّم من جديد!». أتى دانييل مسرعًا من خلفه: «اسأليني شيئًا! اسأليني!» وقفت السيدة إنغتون تضع إحدى يديها على خصرها في حين ظلّت اليد الأخرى تتكلّم من خلال القفاز. كان صوتها الحاد منبعثًا من زاوية فمها. مدَّ السيد إنغتون رأسه من الباب حتى ينظر.

قالت الدمية: «والآن، يا دانييل، ما هو أكثر ما تحب أن تأكله؟... لا تقل آيس كريم!». راح دانييل يقفز في مكانه وهو يفكّر في إجابته،

في حين بدأ توماس يصيح مقترحًا عليه عدة إجابات. «فطيرة! أعرف أنها فطيرة!». شهق قفاز السيدة إلنغتون وقال: «فطيرة! لا تقل لي إنك تريد فطيرة الحمّيضة... صحيح؟ هذا يخيفني كثيرًا!». انفجر الولدان ضاحكَيْن. وقفت مصغية إليهما وهما يتابعان تلك اللعبة. لم أعرف هذا الشعور أبدًا. التلقائية. السخف المضحك. الراحة. رأتني السيدة إلنغتون أنظر إليهم من عند المجلى، فاستدعتني إليها بحركة من إصبعها. وضعت قفّاز الفرن على رأسي وقالت: «ضيفتنا سوف تقدّم حلقة الليلة! يا للسعادة!...». ثم همست لي: «هيا، اسألي الولدين عما يحبّان فعله. هل يحبّان أكل الديدان أم يفضّلان ابتلاع مخاط الآخرين». أطلقت ضحكة عصبية قصيرة، فاتسعت عيناها، ثم ابتسمت كأنها تقول لي، *ثقي بي... سوف يعجبهما هذا... هذان الولدان السخيفان!*

سارت معي إلى البيت في تلك الليلة. أمر لم تفعله قبل ذلك أبدًا. كانت الأنوار في بيتنا مطفأة كلّها. ظلّت واقفة إلى أن فتحت الباب حتى تتأكّد من رؤية حذاء أبي خلف العتبة. أخرجت من جيبها الكتاب الذي فيه قصّة العفريت السحري وأعطتني إياه. «أظنك الآن تريدين هذا الكتاب». كنت أريد الكتاب. قلّبت الصفحات بإصبعي، وللمرة الأولى في تلك الليلة، تذكّرت أمي.

شكرتها على العشاء؛ شكرتها من جديد. انعطفتُ عند نهاية الممر الذي أمام بيتنا، ثم نادتني: «الوقت نفسه، الأسبوع القادم!... إذا لم أرك قبل ذلك». أظنّها كانت تدرك أنها ستراني قبل ذلك.

- 7 -

عرفتُ لحظةَ أن أصبحت في داخلي. ملأني دفؤك، فعرفت. ما كنت قادرة على لومكَ لأنك ظننتني مجنونة -كنا نحاول منذ أشهر- لكننا لم نلبث أن ضحكنا معًا، بعد ثلاثة أسابيع عندما كنا مستلقيين على أرض الحمام في شقتنا كأننا معتوهان ثملان. لقد تغيّر كل شيء. وأنت، تغيّبت عن عملك في ذلك اليوم، هل تتذكّر هذا؟ تابعنا الأفلام ونحن في السرير، وطلبنا طعامًا جاهزًا، في كل وجبة. أردنا أن نكون معًا، فقط، أنت وأنا، وهي. كنت عارفة أنها أنثى.

ما عدت قادرة على الكتابة. يطير ذهني بعيدًا كلّما حاولت. يطير فيَ التفكير في كيف سيكون شكلها، وكيف ستكون هي.

بدأت الذهاب إلى صفوف تمرينات ما قبل الولادة. كنا نبدأ كل جلسة بشيء يسمّونه «حلقة الاسترخاء»، حيث تقدّم كل منا نفسها وتخبر الآخرين عن عدد الشهور التي انقضت منذ حملها. سحرتني رؤية ما كان قادمًا إليّ، وسحَرَني النظر إلى بطون الأمهات في المرآة ونحن نؤدّي سلسلة الحركات الرياضية التي كانت تبدو لي كأنها لا تستحقّ القيام بها. لم يظهر على جسدي أي تغيّر بعد، وما كنت أطيق انتظار رؤيتها تصنع متسعًا لنفسها... في داخلي... في العالم. طرأ تغير على تجوّلي في المدينة عندما أخرج لقضاء حوائجي. صار لدي سرّ. وصرت أتوقّع أن ينظر إلي الناس نظرة مختلفة. أردت أن أضع يدي على بطني التي لا تزال مسطّحة وأقول، *سوف أصير أمًا*. هذه هي *أنا*، الآن. كنت غارقة في هذا كله.

***

كنت في المكتبة ذات يوم، وأمضيت ساعات كثيرة في تصفّح الكتب التي في قسم الحمل والولادة. بدأ حملي يصير ظاهرًا. مرّت بجانبي امرأة تنظر إلى كعوب الكتب باحثة عن عنوانٍ بعينه. كان الكتاب الذي أخذَته عن الرف كتابًا عن النوم، كاد يصير باليًا لكثرة الاستعمال.

«كم شهرًا؟».

«ستة أشهر». استعرضَت جدول المحتويات مارّة عليه بإصبعها، ثم نظرَت إلى بطني قبل أن ترفع عينيها إلى وجهي: «وأنت؟».

«اثنا عشر أسبوعًا». أومأت كل منا للأخرى برأسها. بدت لي امرأة اعتادت أن تخمّر الشاي في بيتها وتذهب إلى دروس الرقص في السادسة صباحًا، لكنها صارت الآن قانعة بأن تأكل البطاطس المهروسة الباقية من اليوم السابق، وبأن تذهب إلى المتجر لشراء الحفاضات.

«لم أبدأ بعد التفكير في مشكلة النوم».

«أهو حملك الأول؟». أومأتُ برأسي، وابتسمت.

«هذا حملي الثاني». حملتُ الكتاب. «صدقًا. ما عليك إلا أن تحلّي مشكلة النوم وسوف يسير كل شيء على ما يرام. لا أهمية لأي شيء آخر. لم أدرك الأمر عندما حملتُ أول مرة».

ضحكْتُ... أظنني ضحكْت... وشكرتها على هذه النصيحة. انبعث بكاء طفل من الناحية الأخرى من قاعة المكتبة. تنهّدت المرأة.

«إنه طفلي». أشارت من فوق كتفها إلى مصدر البكاء، ثم أخذت عن الرفّ نسخةً ثانيةً من الكتاب نفسه الذي بحثت عنه. ناولتني النسخة فلاحظت آثار قلم تلوين وردي على يديها. «حظًا طيبًا!».

سارت مبتعدة عني، فبدت لي من الخلف ممتلئة، وبدت أنثوية بحوضها المتسع العريض وشعرها المنحدر حتى كتفيها... شعر مجعّد بعد النوم القليل الذي استطاعت العثور عليه. بدت لي أمًّا، بكل وضوح. أكان هذا نتيجة مظهرها، أم حركتها؟ أكان هذا لما بدا عليها من أن لديها أشياء تهتمّ بها أكثر مما لديّ؟ متى يحدث هذا لي؟ هذا الانتقال؟ وكيف سأتغيّر؟

- 8 -

«فوكس! تعالَ وانظر». كان ذلك ثالث صندوق كبير ترسله إلينا أمّك منذ إخبارنا لها بأن لدينا جنينًا. كانت في غاية الحماسة؛ وكانت تتّصل كل أسبوع لكي تعرف كيف أحسّ بحَمْلي. أخرجت من الصندوق بطانيات ثمينة مطوية، وقبّعات للمواليد الجدد، وحذاء أبيض صغيرًا جدًا. وفي أسفل الصندوق، وجدت رزمة منفصلة كتبت عليها «أشياء فوكس عندما كان رضيعًا». فتحتها فكان فيها دبٌّ قماشيٌّ بالٍ له زرّان مكان العينين، وبطانية ناعمة مهترئة لها حوافّ من الحرير، بطانية كانت في يوم من الأيام بيضاء مثل العاج. تمثال صغير من البورسلين فيه صبيّ رضيع جالس على قمر مكتوب عليه اسمك بحروف رشيقة مذهّبة. رفعت الدب إلى أنفي، ثم قرّبته من أنفك. بدأت تحكي لي ذكرياتك. كنت نصف مصغية إليك، وكان ذهني في مكان آخر... كان يبحث في ماضيّ عن تلك الأشياء الأليفة نفسها، عن بطانيات ودُمى قماشية وكتب مفضّلة... لكنّي لم أستطع العثور على شيء.

«أتظننا قادران على فعل هذا؟»، سألتك عندما جلسنا نتناول عشاء تلك الليلة، وكنت أعبث بالطعام في طبقي. صرت شبه عاجزة عن أكل اللحم منذ بَدَأ حملي.

«فعل ماذا؟».

«أن نكون أبًا وأمًا. أن نربّي طفلًا».

مددْت يدك، وابتسمت لي، وغرست شوكتك في قطعة اللحم التي في طبقي.

«سوف تكونين أمًّا جيّدة، يا بلايذ».

وبإصبعك، رسمت قلبًا على ظهر يدي.

«تعرف أن أمي نفسها... لم تكن... لقد رحلت. لم تكن أبدًا مثل أمك».

«أعرف هذا». صمتنا معًا. كنت قادرًا على مطالبتي بقول المزيد. كنت قادرًا على أن تمسك بيدي وتنظر في عينيّ وأن تطلب مني أن أتابع الكلام. لكنك أخذت طبقي ووضعته في المجلى.

قلت لي آخر الأمر: «أنت مختلفة». احتضنتَني من الخلف. ثم لمست في صوتك غضبًا لم أتوقّعه: «أنت لست مثلها أبدًا».

لقد صدّقتكَ. تصير الحياة أكثر سهولة عندما أصدّقك.

استلقينا بعد ذلك على الأريكة، وضعتَ يديك على بطني كأنَّ العالم كله بينهما. كنا نحب أن ننتظر حركاتها تحت جلد بطني المشدود... خيال العروق الزرقاء - الخضراء تحت الجلد مثل ألوان الأرض. يتحدّث بعض الآباء مع بطون زوجاتهم، يقولون إن الجنين قادر على سماعهم. لكننا كنا ننتظر منها إخبارنا أنها موجودة هناك. وكنتَ تظل صامتًا كأنك في حالة من الرهبة، أو كأنكَ في حلم لا تستطيع تصديق أنه صار حقيقة.

- 9 -

«قد يكون هذا اليوم يومنا».

أحسست بالجنين ثقيلًا في الصباح، أحسست به منخفضًا. كنت أحلم طيلة الليل بأن السائل الذي في رحمي قد أغرق الفراش كله. لكن الذعر أتاني سريعًا فأخذني إلى موضع ظللت أتجنّبه طيلة أربعين أسبوعًا من حَملي. همستُ لنفسي وأنا أغلي الماء من أجل الشاي... *لا بأس إن أتت. لا بأس إن كان الأمر هكذا. لا بأس في إنجاب هذه الطفلة*. جلست إلى طاولة المطبخ وكتبت هذه العبارات على ورقة، ثم ظللت أكتبها إلى أن دخلتَ الغرفة.

«المقعد جاهز في السيارة. وسوف يظلّ هاتفي في يدي طيلة النهار».

زلقت الورقة فدسستها تحت مفرش الطاولة، قبّلتني، وخرجت إلى عملك. كنت أعرف.

في الساعة السابعة والنصف من تلك الليلة، كنا معًا على أرض غرفة النوم. تركت حزوز أرضية الباركيه أثرها على ركبتيّ. كنت تضغط على ردفيّ، وكنت أحاول أن أتنفّس بعمق، وبانتظام، لقد تمرّنّا على فعل هذا. لقد ذهبنا إلى دورة تدريبية. لكني لم أستطع العثور على ذلك الإحساس بالهدوء الذي وُعدت به. على ذلك الحدس الذي من المفترض أن يأتيني. كنا نسجّل كل ما يحدث بكلمات متعجّلة نكتبها، نتابع إحصاء الدقائق والتقلصات. اختطفت الورقة من يدك وقذفتكَ بها.

صحت بك: «نحن ذاهبان الآن».

ما عدت أطيق البقاء في شقّتنا أكثر من ذلك. كانت كأنها بركان،

وكنت أجد صعوبة في إبقائها داخلي. كل ما تأهّبت له بدا لي الآن مستحيلًا. لم أكن مستعدة؛ لم تكن طرفي مفتوحة. لم أستطع تخيّل سقوطها من حوضي؛ ولم أستطع إقناع نفسي بأن أتوسّع مثلما يتوسّع مصب نهر. كنت متشنّجة، مذعورة. لم أعرف ما ينبغي علي فعله.

ما قالوه عن الألم كان صحيحًا، - لكنّي ما عدت قادرة على تذكّر كيف كان ذلك الإحساس. أتذكر الإسهال. أتذكر كم كانت الغرفة باردة. أتذكر رؤيتي ملاقط التوليد على عربة في الممر المزَيَّن بزينات عيد الميلاد عندما كنا نخرج للسير فيه بين التقلّصات. كانت يدا الممرضة أشبه بأيدي الحطابين. كنت أتذمّر باكية كلما أدخلت يديها لكي تختبر توسعي فتشيح بوجهها عني.

همستُ من غير أن أخاطب أحدًا: «لا أريد أن يحدث هذا». كنت في غاية الإرهاق. كنتَ واقفًا على مسافة قدمين مني تشرب الماء الذي أتتك به الممرضة. لم أستطع إبقاء صوتي منخفضًا.

«ما الذي لا تريدين أن يحدث؟».

«الطفلة».

«هل تعنين الولادة؟».

«لا، أعني الطفلة».

«ألا تريدين التخدير الآن؟ أظنك في حاجة إليه». أمَلتَ رقبتك حتى تنظر إلى الممرضة، ووضعت قطعة قماش باردة خلف رقبتي. أتذكر كيف رفعت شعري كأنه عرف فرس.

ما كنت أريد أدوية. أردت أن أشعر كم يمكن أن يزداد الأمر سوءًا. قلت لها، *عاقبيني! مزّقيني!* قبّلت رأسي، فصفعتك لكي تبتعد عني. كرهتك. كرهتك بسبب كل ما أردته مني.

رجوتهم أن يتركوني أدفع الجنين وأنا جالسة على كرسي المرحاض - كان الجلوس على ذلك الكرسي أكثر الوضعيات راحة لي؛ وكنت عند

ذلك قد دخلت مرحلة من الهذيان. ما عدت قادرة على الإصغاء إلى أي شيء مما يُقال لي. وأنتَ... هدّأتني وأعدتَني إلى السرير، فوضعوا قدميَّ على حامل الساقين الخاص بالولادة. لم أشعر بأن شيئًا من ذلك كلّه كان صحيحًا. إحساسي بالحرقة. مددت يدي حتى أتحسّس ألسنة اللهب التي كنت واثقة من وجودها هناك. لكن أحدًا أبعد يدي.

«اللعنة عليك».

قال الطبيب: «هيا الآن، أنت قادرة على فعل هذا».

أجبته بصوتٍ حادٍّ: «لا أستطيع. لن أفعله».

قلتَ لي بنبرة هادئة: «عليكِ أن تواصلي الدفع».

أغمضت عينيّ، وتمنّيت أن يحدث شيء فظيع، أن يحدث فشل كبير. الموت. أردت موتًا، أردت موتي، أو موت الجنين. حتى منذ ذلك الوقت، ما كنت أظن بأن واحدة منا تستطيع أن تظل حيّة في وجود الأخرى.

وعندما خرجَتْ آخر الأمر، حملتها الطبيبة وقرّبتها من وجهي، لكنني كنت شبه عاجزة عن رؤيتها في مواجهة ذلك الضوء الساطع. جعلني الألم أرتعش ارتعاشًا عنيفًا. قلت لهم إنني قد أتقيأ. ظهرتَ إلى جانبي، إلى جانب الطبيب، فالتفتَ إليك بدلًا مني وقال لك إن المولود أنثى. وضعتَ يدك تحت رأسها الزلقة؛ وبحذر، قرَّبتَها من وجهي. سمعتك تقول لها شيئًا. لست أدري ما قلته لها، - كانت لك لغتك الخاصّة السرّية معها منذ أول دقيقة لها في هذا العالم. عند ذلك، حملها الطبيب واضعًا كفه تحت بطنها كأنها قطة صغيرة، وطلب من الممرضة أن تأخذها. عاد إلى عمله. انسكبت سوائل الرحم على الأرض. راح الطبيب يخيط الجرح، ورحت أحدِّق في المصباح مذعورة مما أقدمتُ عليه. صرت الآن واحدة منهنّ، من الأمهات. لم يحدث لي من قبل أن شعرت بهذه الحيوية كلّها، بهذا التوتّر كلّه. اصطكّت أسناني اصطكاكًا شديدًا حتى حسبت أنها ستتكسر. ثم سمعت صوتها. سمعت بكاءها. بدا

لي الصوت مألوفًا إلى حد كبير. وسمعت صوتًا آخر يقول لي: «هل أنت مستعدّة، يا ماما؟». وضعوها على صدري العاري. أحسست بها كأنها قطعة خبز كبيرة دافئة باكية. لقد نظّفوها من دمي ولفّوها ببطانية صغيرة ناعمة من عندهم. رأيت على أنفها بقَعًا صفراء. وبدت لي عيناها عكرتين، داكنتين. حدَّقَت تلك العينان في عينيَّ.

«أنا أمّكِ!».

لم أعرف النوم في تلك الليلة الأولى في المستشفى. بقيت أحدّق فيها صامتة من خلف الستارة المخرَّمة المحيطة بمهدها. كانت أصابع قدمَيْها صفًا من حبات بازلاء صغيرة. كنت أزيح بطانيتها عنها وأمرّ برأس إصبعي على جلدها حتى أراها تنكمش وترتعش. كانت حيّة. لقد أتت منّي. رائحتها مثل رائحتي. لم تقبل أن ترضع مني حتى عندما عصروا ثديي كأنه قطعة هامبرغر، فانسكب الحليب على ذقنها. قالوا إن الأمر في حاجة إلى صبر. اقترحت الممرضة أن تأخذها حتى أستطيع النوم، لكنّي في حاجة إلى النظر إليها. لم أنتبه إلى دموعي حتى بدأت تسيل على وجهي. رحت أمسح كل قطرة دمع عن جلدها برأس إصبعي، ثم أتذوّقها. أردت أن أتذوّق طعمها. أصابعها. أطراف أذنيها. أردت أن أحتّها في فمي. كنت في حالة خدَر جسدي بسبب الأدوية المسكّنة، لكن هرموناتي جعلتني أشعر بأن نارًا تتّقد في داخلي. لعل الأمهات يعتبرن هذا الشعور حبًّا، لكنه كان عندي شيئًا أقرب إلى الدهشة. كان شيئًا كأنه عَجَب مما حدث. لم أفكر في ما أفعله بعد ذلك، في ما سنفعله عندما نعود إلى البيت. لم أفكر في تنشئتها وفي رعايتها والاهتمام بها؛ ولم أفكر في الشخص الذي ستصيره. أردت أن أكون معها وحدي. في ذلك الحيّز الزمني العجيب، أردت أن أشعر بكل نبضة.

كان جزء من عقلي يدرك أننا لن نكون بعد الآن موجودتَيْن معًا على هذا النحو.

1962

فتحت إيتا صنبور الماء في الحمّام حتى تغسل شعر سيسيليا الطويل المتشابك. كانت في الخامسة من عمرها؛ ونادرًا ما كان أحد يطلب منها أن تسرّح شعرها بالفرشاة. كان مرفقاها مستندَيْن إلى السيراميك الأخضر بلون ثمرة الأفوكادو.

قالت لها إيتا: «أميلي رأسك إلى الخلف». ثم جذبتها بقوّة. جذبت رأسها بضعة إنشات إضافية إلى أن صارت سيسيليا تحت الماء البارد المنهمر. شهقت واختنقت وارتعشت إلى أن استطاعت تحرير نفسها من أصابع إيتا المتشبّثة بجلدها. ولما استعادت أنفاسها، رفعت رأسها فرأت إيتا تنظر إليها. لم تتزحزح إيتا أبدًا. فهمت سيسيليا أن الأمر لم ينته بعد.

أمسكت إيتا بأذنيها وأرغمتها على العودة إلى حيث كانت، تحت تيار الماء. ملأ الماء منخريها فأحرقهما. أحسّت كأن رأسها تعوم في الماء مبتعدة عنها.

عند ذلك، تركتها إيتا. سحبت السدّادة الطرية المتسخة التي أغلقت بها المصرف، ثم خرجت من الحمام.

لم تتحرّك سيسيليا من مكانها. لقد أفلت منها خراؤها أثناء العراك، فظلّت راقدة هناك، مرتعشة، متسخة، مرتجفة بردًا، إلى أن غفت على الأرض.

عندما استيقظت إيتا، وجدت نفسها في السرير، وأدركت أن هنري قد عاد من العمل، وأنه جالس في غرفة المعيشة يتابع التلفزيون، ويأكل

طبقًا من اللحم المقلي أعاد تسخينه، في حين كانت رقاقة ورق الألمنيوم مطوية بعناية على الطاولة من أجل استخدامها في اليوم التالي.

دخلت سيسيليا الغرفة وعلى كتفيها منشفة. نظر إليها وسألها بفم ممتلئ عما جعلها تظلّ مستيقظة حتى منتصف الليل. قالت له سيسيليا إنها بالت في فراشها.

تهدّلت ملامح وجهه. طوّقها بذراعيه وحملها إلى سرير أمها. كانت تفوح برائحة خرائها لكن هنري لم يقل شيئًا عن ذلك. هزّ إيتا حتى استيقظت.

«عزيزتي، ألا تغيّرين ملاءات سيسيليا؟ لقد تبرّزت في فراشها».

حبست سيسيليا أنفاسها. فتحت إيتا عينيها وأمسكت يد سيسيليا بتلك القبضة نفسها التي كادت تقتلها قبل ساعات. سارت بها إلى غرفتها، ووضعت رداء ليليًا على رأسها، ثم أجلستها بحزم على السرير. كان قلب سيسيليا يخفق عنيفًا وهما مصغيتان معًا إلى وقع خطوات هنري نازلة درجات السلّم. اعتادت سيسيليا أن تصغي لتسمع وقع خطوات هنري. يقلب حضوره مزاج إيتا على الفور مثلما يفعل مفتاح النور بالمصباح.

لم تنطق إيتا بأية كلمة. ولم تمسّها أبدًا. لم تفعل شيئًا غير الخروج من الغرفة.

أدركت سيسيليا أن الغريزة التي دفعتها إلى الكذب كانت محقّة. ما حدث بينها وبين أمها ينبغي أن يبقى سرًّا بينهما.

خلال السنوات الخمس التي أعقبت ذلك، مرّت أوقات أخرى كانت فيها مشكلات إيتا مع «أعصابها» واضحة لسيسيليا. كانت تغلق باب البيت أحيانًا وتمنعها من دخوله عند عودتها من المدرسة. الباب الأمامي مقفل، والباب الخلفي مقفل. والستائر مُسدلة كلّها. لكن سيسيليا كانت قادرة على سماع صوت الراديو منبعثًا من الداخل، أو على سماع صوت

صنبور الماء منبعثًا من المطبخ. كانت تذهب إلى «مين ستريت» حتى تقتل الوقت عن طريق التجول في المتاجر والنظر إلى أشياء لم تعد أمها تبدي أي اهتمام بشرائها... صابون برائحة الفاكهة، أو شوكولاته بنكهة النعناع أحبّتها كثيرًا في ما مضى.

وبعد مرور ساعة على هبوط الظلام، تعود سيسيليا إلى بيتها مرة أخرى. سيكون هنري في البيت، وسيكون طعام العشاء جاهزًا على الطاولة. ستقول لهنري إنها كانت في المكتبة؛ وسيربِّت على رأسها ويقول لها إنها ستصير أذكى تلميذة في صفها إذا واصلت الدراسة هكذا. سوف تتجاهلها إيتا تجاهلًا تامًّا كأنها لم تقل شيئًا أبدًا.

وفي أيام أخرى، كانت سيسيليا تنزل في الصباح من أجل تناول طعام الإفطار، وتكون إيتا جالسة إلى الطاولة مطرقة الرأس ناظرة إلى حجرها... تكون وجنتاها الممتلئتان بيضاوين. كأن عينها لم تغفلا لحظة واحدة. ما كانت سيسيليا تعرف شيئًا عما تفعله أمها في تلك الليالي؛ وأما في تلك الصباحات فقد كانت إيتا تبدو لها غائبة، بعيدة كل البعد. كانت تبدو حزينة. لا ترفع رأسها إلى أن تسمع صوت خطوات هنري على السلم.



- 10 -

قلت لي: «أنت قلقة؛ وهي قادرة على الإحساس بهذا». كانت تبكي منذ خمس ساعات ونصف الساعة. وقد بكيت أربع ساعات خلال ذلك الوقت. جعلتُك تبحث عن معنى كلمة «مغص» في واحد من كتب الأطفال التي عندي.

«أكثر من ثلاث ساعات، ثلاثة أيام في الأسبوع، ثلاثة أسابيع متعاقبة».

«إنها تبكي منذ مدة أطول».

«لم يمض على مجيئها إلا خمسة أيام، يا بلايذ».

«أعني الساعات. أعني أنها تبكي أكثر من ثلاث ساعات».

«لديها غازات فحسب... هكذا أظن».

«أريد أن تلغي زيارة أهلك لنا». ما كنت قادرة على التعامل مع أمك الكاملة من كل ناحية... على التعامل مع وجودها عندنا خلال عطلة عيد الميلاد... بعد أسبوعين فقط. كانت تتصل دائمًا، وكانت تبدأ كل مكالمة بعبارات من قبيل، *أعرف أن الأمور مختلفة هذه الأيام، لكن عليك أن تثقي بي... ماء الأعشاب المضاد للمغص. قماطات أكثر إحكامًا.* وجبات مسحوق *الأرز في زجاجة الإرضاع.*

«سوف يكونان عونًا كبيرًا لك، يا حبيبتي. سوف يكونان عونًا لنا».

كنتَ راغبًا في وجود أمك الكاملة معنا!

«لا يزال نزيفي مستمرًا. رائحتي مثل رائحة اللحم النيء. لا أستطيع ارتداء قميصي لأن ثديي يؤلماني كثيرًا. انظر إليّ، يا فوكس».

«سأتحدّث إليهما هذه الليلة».

«هل تستطيع أخذها؟».

«أعطني إياها. حاولي أن تنامي قليلًا».

«أظن أن الطفلة تكرهني».

«هششش».

«لقد حذّروني من تلك الأيام الصعبة الأولى. حذّروني من أن ثديي سيصيران متصلّبين كأنهما كتلتان إسمنتيتان. حذّروني من رغبة المولودة في الرضاعة كل حين. حدّثوني عن بخاخة الماء التي سأغسل بها أسفلي. قرأت الكتب كلها. أجريت أبحاثًا كثيرة. لم أسمع أحدًا يتحدّث عن كيف سيكون إحساسي عندما توقظني بعد أربعين دقيقة من النوم، ولا عن الدم على ملاءات السرير، ولا عن الخوف من معرفة ما سيحدث بعد ذلك. أحسست بأنني الأم الوحيدة في العالم التي لن تستطيع النجاة من هذا كلّه. الأم الوحيدة التي لن تشفى من الغرزات الممتدّة من شرجها حتى مهبلها. الأم الوحيدة التي لا تستطيع تحمّل ألم ضغط لثتَيّ المولودة على حلمتيها، تلك اللثتان القاطعتان مثل حدّ السكين. الأم الوحيدة التي لا تستطيع التظاهر بأن عقلها لا يزال قادرًا على العمل بين فكّي قلة النوم الضاغطين عليه. كنت الأم الوحيدة التي تنظر إلى ابنتها وتقول في نفسها، *أرجوكِ، ابتعدي عني!*

لا تبكي فيوليت إلا عندما تكون معي. جعلني هذا أشعر بشيء يشبه الخيانة.

كان منتظرًا أن تريد كل منا الأخرى!

- 11 -

كانت يدا الممرضة الليلية أنعم يدين أحسستهما في حياتي كلّها. كانت بدينة لا يكاد الكرسي يتّسع لها. وكانت رائحتها كرائحة الليمون، وكرائحة مثبّت الشعر. كانت شديدة الهدوء أيضًا.

وأنا، كنت متعَبة.

تمرّ كل أم جديدة بهذا، يا بلايذ. أعرف أنه صعب. أتذكّره جيدًا.

لا بد أن أمك كانت قلقة لأنها هي من استأجر تلك المرأة من غير أن تسألنا. هي من دفعت لها أجرها. انقضت ثلاثة أسابيع، ولم تكن الصغيرة تنام أكثر من ثلاث ساعات ونصف الساعة في كل مرة. ما كانت تريد شيئًا غير أن تأكل وتبكي. صارت حلمتا ثديَّ مثل اللحم النيء المطحون.

أنت لم تر الممرضة الليلية إلا نادرًا، - تكون أكثرَ الليالي نائمًا قبل وصولها. كانت تأتيني بالصغيرة كل ثلاث ساعات، لا تتأخّر دقيقة، ولا تبكّر دقيقة. أسمع خطواتها الثقيلة تقترب من الباب، فأستيقظ من نومي العميق مجفلة وأخرج ثديَّ من فتحة قميصي قبل أن أفتح عينيّ. أعيدها إليها عندما ننتهي من الرضاعة. تأخذها إلى غرفتها حيث تجعلها تتجشّأ، وتغير حفاضاتها، وتهدهدها بين ذراعيها، وتضعها في مهدها لكي تنام. قليلة جدًّا الكلمات التي تبادلناها، لكنّي أحببتها. كنت في حاجة إليها. ظلّت تأتي أربعة أسابيع إلى أن قالت أمك لي بصوتها الحازم، وإن يكن لطيف النبرة: حبيبتي. *لقد مرّ شهر كامل. عليك الآن أن تتولّي الأمر بنفسك.*

كانت معنا في آخر يوم للممرضة الليلية، أتت بالطفلة إلى غرفتنا من

أجل رضعة الصباح الباكر قبل أن تذهب إلى بيتها. لكنّها لم تخرج من الغرفة مثلما تفعل عادة. وأنت... كنت نائمًا إلى جانبي، وكنت تشخر.

همستُ مخاطبة المرأة: «إنها طفلة حلوة، أليست كذلك؟».

تململت في جلستي محاولة تهدئة البواسير العنيدة، ووضعت الحلمة في فم الصغيرة. ما كنت أعرف حقًا إن كانت ابنتي حلوة؛ لكني أحسست بأن هذا ما تقوله أية أم جديدة عن قطعة اللحم الدافئة الوردية التي أضافتها إلى هذا العالم.

وقفت الممرضة فوقنا ونظرت إلى أسفل، إلى حلمتي البنية الضخمة وإلى فيوليت التي تحاول التقاطها من جديد. لم نألف الأمر بعد... كان الحليب متناثرًا على وجه الطفلة. لم تُجِبني الممرضة.

«هل ترين أنها طفلة طيبة؟». لعلّها لم تسمعني! كشّرتُ ألمًا. لقد التقطت حلمتي. تراجعت الممرضة خطوة إلى الخلف وراحت تنظر إلينا كأن هناك شيئًا تحاول أن تفهمه.

«أحيانًا تفتح عينيها على اتساعهما وتنظر إليّ مباشرة مثل...». لم تكمل جملتها. هزت رأسها وأطلقت من بين أسنانها صفيرًا خفيفًا.

قلت موضّحة بكلمات سمعتها من أمهات غيري: «إنها جادة. وهي شديدة الانتباه». ما كنت واثقة مما أرادت الممرضة قوله.

ظلّت واقفة في مكانها من غير أي كلام بينما تابعت الإرضاع. أومأت برأسها بعد مضي وقت... بعد مضي وقت طويل جدًا. لا أدري إن كان لديها شيء آخر أرادت قوله لي. وعندما انتهت الصغيرة من الرضاعة، حملتها الممرضة بهدوء وربّتت على كتفها. ذهبت لكي تعيدها إلى مهدها، ثم لم أرها بعد ذلك أبدًا.

أزعجَنا أن رائحة تلك المرأة الشبيهة برائحة مثبت الشعر، ظلت عدة أسابيع حتى اختفت من غرفة ابنتنا الصغيرة. لكنّي ظللت أذهب إلى تلك الغرفة أحيانًا لكي أحاول شم بقاياها.

- 12 -

كانت المساعدة التي قدّمتها الممرضة الليلية خلال ذلك الشهر مفيدة. خرجنا من الضباب، أنا وفيوليت، ووجدنا لنفسينا نظامًا ثابتًا. ركّزتُ كثيرًا على ذلك النظام. كان نهاري محدّدًا بموعد ذهابك إلى عملك وبموعد عودتك إلى البيت من جديد. إبقاؤها حيّة بين الموعدين كان كل ما عليَّ فعله. مهمّة واحدة في اليوم الواحد، ذلك كان هدفي على الدوام. بضع مرات خرجت فيها من أجل التسوّق. مواعيد طبيبها. استبدال ملابس داخلية اشتريتها في وقت سابق، لكنها لم تلبسها أبدًا... صارت صغيرة عليها. قهوة مع قطعة معجّنات حلوة. كنت أجلس على مقعد في الحديقة، في البرد، وأتابع التهام بقايا قطعة المعجنات الجافّة وأنظر إليها محشورة في بدلة ثلج مبطنة بالزغب، وأنتظر موعد قيلولتها التالية.

لقد التقيت مجموعة صغيرة من النساء في صف تمرينات ما قبل الولادة؛ وكانت مواعيد ولادتهنّ جميعًا قريبة من موعد ولادتي، قبله وبعده. ما كنت على معرفة جيّدة بهنّ، لكنّي أضفت في وقت من الأوقات إلى مجموعة الإيميل الخاصّة بهنَّ. كثيرًا ما كنت أتلقّى دعوات لكي أخرج معهنّ في نزهة، أو لكي نتناول طعام الغداء معًا في مكان يستطيع استقبال تلك الكمية الكبيرة من عربات الأطفال. كنت أراك مسرورًا عندما تسمع بأن لديَّ خططًا للقائهنّ، - كنت متحمّسًا لأن أكون مثل بقية الأمهات. وكنت أذهب من أجلك أنت، أكثر الأحيان... أذهب حتى أجعلك ترى أنني أمٌّ طبيعية.

وعلى غرار بقية أيامنا كلّها، صار لأحاديثنا روتينها المتكرّر المعتاد. كيف ينام أطفالنا، وأين ينامون، ومتى ينامون، ومتى يأكلون، وكم يأكلون، وبرنامج المأكولات الصلبة، والاستعانة بمربية أو بحضانة أطفال نهارية، وأنواع الأدوات التي اشترتها كل واحدة، فصارت غير قادرة على العيش من غيرها، وصارت مقتنعة بأن على الأخريات شراءها أيضًا. وأخيرًا، يحين موعد قيلولة أحد الأطفال الصغار... قيلولة غير مسموح بها إلا في بيته، وفي مهده، حتى لا يضطرب البرنامج الذي لم تتوصّل إليه أمّه إلا بصعوبة كبيرة. عندها، نلملم أشياءنا وننصرف. وفي بعض الأحيان، عندما ندفع الفاتورة، أستجمع شجاعة كافية لأن أقول ما كان يدور في ذهني. ألقي بكلماتي كأنها طعم:

«الأمر صعب كثيرًا بعض الأيام، أليس كذلك؟ أعني هذه الأمومة كلّها».

«أحيانًا، هذا صحيح. لكنك تعرفين أن هذا أروع ما سنفعله في حياتنا كلّها. تشعرين بأن الأمر يستحق هذا العناء كلّه عندما ترين وجوههم في الصباح». كنت أنظر إلى أولئك النساء نظرة متمعّنة محاولة العثور على أكاذيبهنّ. لكنّ شيئًا لم يظهر لي... لم تخطئ أية واحدة منهنّ، أبدًا.

لا أقول إلا: «تمامًا». كنت أحرص دائمًا على إبداء ما يوحي بموافقتي على كلامهنّ. لكنّي أنظر إلى وجه فيوليت في عربتها وأظلّ أنظر إليه طيلة المسافة حتى البيت متسائلة عما يجعلها لا تبدو لي أفضل شيء في حياتي كلّها.

وذات مرة، بعد أسابيع من توقّفي عن الانضمام إلى أولئك الفتيات في نزهاتهنّ، مررت بواجهة أحد المقاهي فرأيت في داخله، عند طاولة مطلّة على الشارع، أمًّا جالسةً تنظر إلى طفلها. كان عمر الرضيع ثلاثة أشهر، أو أربعة أشهر... لعلّه أصغر قليلًا من فيوليت. رأيته محمولًا بين يدي أمه، محدّقًا في وجهها. لم يتحرّك فم المرأة أبدًا. لم تنطق شفتاها

بأية عبارة تطمئن صغيرها: *أنت طفل ماما، وأنت طفلي الحلو. كم أنت طفل جميل!* بدلًا من ذلك، أمالت طفلها قليلًا، ثم أمالته قليلًا إلى الجهة الأخرى كأنها تتفحّص قطعة مصنوعات خزفية بحثًا عن عيب محتمل فيها. تلكّأتُ أمام واجهة المقهى، وبقيت أنظر إليهما علّني أرى حبًّا... علّني أرى أسفًا أو ندمًا. تخيّلت الحياة التي لعلّها كانت لديها قبل أن يأتي هذا الطفل ويرغمها على الاختيار بين رائحة شقّتها المضطربة المزدحمة الفائحة برائحة حليبها، وبين الجلوس وحدها خلف واجهة المقهى.

دخلت المكان، وطلبت قهوة بالحليب ما كنت راغبة فيها. جلست على مقعد مرتفع إلى جوارها. كانت فيوليت نائمة في عربتها. رحت أدفع العربة بلطف إلى الأمام وإلى الخلف حتى لا تستيقظ. انزلق كيس الحفاضات المعلّق من مقبض العربة، وسقطت زجاجة الإرضاع وتدحرجت على الأرض. رفعتها وقرّرت ألّا أمسح حلمتها. كنت أحسّ بموجة من القوة عندما اتخذ قرارات سرية من هذا النوع، قرارات لا يمكن أن تتّخذها أمٌّ غيري لأنه ليس متوقّعًا من أية أم أن تتخذها... قرارات من قبيل التأخّر كثيرًا في إبدال حفاض مبتل، أو تجاهل موعد حمام الصغيرة -مرة ثانية- لأنني غير مهتمّة به. التفتت المرأة إليّ. نظرت كلٌّ منا إلى الأخرى. ما من ابتسامة أبدًا، بل إحساسٌ بالارتباك والخراقة/ حوّلته كل واحدة منا إلى نسخة من نفسها، التي لا تعيش ذلك الشعور الطيب الذي يتحدّثون عنه كثيرًا. سال شيء من الحليب من فم طفلها فمسحته بمنديل ورقي خشن.

«أيام صعبة، أليس هذا صحيحًا؟». قلت لها هذا مشيرة بذقني صوب الطفل الذي ظلّ وجهه من غير أي تعبير... كان ينظر إليها فقط.

«هناك قول معروف: تمر الأيام طويلة، لكن السنين تمضي سريعًا». أومأت برأسي ونظرت إلى طفلتي التي بدأت تتململ وبدأت ذقنها تتغضّن. «لكني أظن أننا سنرى ما سيحدث». قالت المرأة هذا بصوتٍ

مسطّح كأنها، هي أيضًا، لا تصدِّق أن الزمن الذي تعيشه سوف يشهد أي تغير بعد الآن.

«تقول بعض النساء إن كون الواحدة منهنّ أمًا أعظم إنجاز على الإطلاق. لكني لست أدري، ولست أشعر بعد بأنني أنجزت الكثير». ضحكتُ ضحكة صغيرة لإحساسي بأن الأمر بدأ، على نحو مفاجئ تمامًا، يتّخذ طابعًا شخصيًا جدًّا. لكنّي كنت في حاجة إلى هذه المرأة. كان فيها كل ما لم أجده عند صديقاتي اللواتي أخرج معهنّ لتناول طعام الغداء.

«طفلة؟».

قلت لها اسم ابنتي.

قالت لي اسم ابنها: «هاري. إنه هنا منذ خمسة عشر أسبوعًا».

جلسنا صامتَين بضع دقائق أخرى. ثم قالت المرأة: «يبدو الأمر كأنه شيء حدث لي... شيء حدث فجأة. يبدو كأنه شيء أُلقي في عالمي فقلب كل شيء رأسًا على عقب».

قلت ببطء وأنا أنظر إلى طفلتها كأنه سلاح موضوع في تلك العربة: «صحيح. تكونين راغبة فيهم، ويكبرون في داخلك، وتدفعينهم خارجًا، لكنّهم يظلّون كأنهم شيء أصابك».

رفعت هاري عن الطاولة ووضعته في العربة. دسّت البطانية تحته بطريقة مهملة فصارت كأنها سرير غير مرتّب جيّدًا. لم تتحدّث بعد مع طفلتها بذلك الصوت الغنائي مثلما تفعل تلك الأمهات كلّهنّ. لعلها لا تحدّثه بذلك الصوت أبدًا.

قالت لي: «قد نلتقي في وقت لاحق»، فغار قلبي. أقلقني أننا قد لا نلتقي بعد ذلك أبدًا. تلعثمت محاولة العثور على شيء أقوله حتى أستبقيها هناك، معي.

«هل تعيشين على مقربة من هنا؟».

«لا... لست من سكان هذه المنطقة في حقيقة الأمر. نعيش على مقربة من الناحية الشمالية من المدينة. لكني أتيت لأن لديَّ موعدًا هنا».

احمرّ وجهي وأجبتها: «سوف أعطيك رقم هاتفي». أجد دائمًا صعوبة كبيرة في اكتساب أصدقاءٍ جددٍ. لكنّي وجدت نفسي أتخيّل انغماسنا في تبادل للرسائل النصّيةِ في هزيع متأخّر من الليل بحيث تبثّ كل منا الأخرى شكواها بصدقٍ فظٍّ وتأسف للتجربة التي تعيشها.

«أوه. بالتأكيد. سوف أحفظ الرقم في هاتفي». بدا عليها عدم ارتياح، فبدأت أقول لها رقمي متمنية لو أنني لم أقدم على هذه المبادرة. لم يجرِ أي اتصال بيننا، ولم أصادفها بعد ذلك أبدًا.

لا أزال أفكّر في تلك المرأة أحيانًا. أتساءل إن كانت قد شعرت في آخر الأمر بأنها أنجزت شيئًا وإن كانت تنظر إلى هاري فتوقن بأنها أحسنت القيام بدور الأم وبأنها ربّت شخصًا صالحًا. لست أدري كيف يكون ذلك الإحساس!

- 13 -

كانت ابتسامتها الأولى لكَ أنت. بعد الحمام. كانت نظّارة القراءة على وجهك، فقلت لي إن من المؤكد أنها رأت انعكاس صورتها على عدستيها. لكننا كنا مدركين، كلانا، أنها أرادتك أنت منذ البداية. عندما تبكي، ما كنت قادرة على تهدئتها مثلما تفعل أنت، - كانت كأنها تذوب في جلدك وتبدو راغبة في البقاء هناك، في البقاء جزءًا منك. وكان يبدو لي أن رائحتي ودفئي لا يعنيان شيئًا عندها. يتحدّثون عن نبضات قلب الأم، وعن ذلك الصوت الذي يألفه الجنين في رحمها؛ لكني كنت كأنني بلد أجنبي!

كنت أصغي إليك تحاول استرضاءها بهمسات ناعمة تهدّئها وتجعلها تنام. كنت أدرسُك. كنت أقلّدك. وكنت تقول لي إن هذا من نسج خيالي، وإنني أقيم أهمية كبيرة لأمر غير موجود أصلًا. كنت تقول إنها ليست أكثر من طفلة صغيرة، وإن الأطفال الصغار لا يعرفون كيف لا يحبّون شخصًا من الأشخاص. لكن إحساسي يقول لي إنكما اثنان في مواجهة واحد، في مواجهتي.

كنا نمضي الوقت كلّه معًا... نعم، كانت هناك بالتأكيد أوقات تستسلم فيها وتغفو على صدري، أو وهي ترضع من ثديَّ. وكنت تشير إلى هذا وتقول لي إنه برهان على أنني مخطئة - *أرأيت، يا حبيبتي؟ ما عليك إلا أن تسترخي عندما تكونين على مقربة منها، وسوف تشعر بالراحة.* صدّقتك. كان عليَّ أن أصدّقك. كنت أمرّ بأنفي على الشعر الناعم فوق رأسها وأستنشق رائحتها. كنت أجدها رائحة طيبة... رائحة تذكّرني بأنها

أتت من داخلي؛ تذكّرني بأننا كنا، في وقت من الأوقات، متّصلتين عبر حبل دموي حيٍّ نابض. كنت أغمض عيني وأعيد في ذهني صور تلك الليلة التي أتت فيها. كُنت أفعل ذلك باحثة عن تلك الصلة بيننا، متحسّسة إياها. تلك الساعات الأولى. أعرف أنها كانت موجودة. كانت موجودة قبل الحلمتين المتشقّقتين النازفتين، وقبل الإرهاق التام والشكّ القاتل والخَدَر المقيت.

أنت تفعلين هذا بطريقة عظيمة. أنا فخور بك. كنت تهمس لي بهذا أحيانًا، في الظلام، وأنا أرضعها. كنت تمسّ رأسي ورأسها. فتاتاك. عالمك. وكنت أبكي عندما تخرج من الغرفة. لم أرد أن أكون المحور الذي تدوران من حوله كلاكما. ما كان باقيًا عندي شيء أقدّمه إليك أو إليها؛ لكن حياتنا بدأت معًا... فحسب. ماذا فعلت؟ لماذا كنت راغبة فيها؟ ولماذا ظننت بأنني قادرة على أن أكون أفضل من الأم التي أتيت منها؟

فكّرت في طرُقٍ للخروج من ذلك كلّه. فكرت في ذلك هناك، في الظلمة، مع تدفّق حليبي، ومع اهتزاز الكرسي إلى الأمام والخلف. فكرت في وضعها في مهدها والرحيل في منتصف الليل، فكّرت في المكان الذي وضعت فيه جواز سفري. فكّرت في مئات الرحلات المسجّلة في قائمة الطائرات المغادرة في المطار، الطائرات المغادرة إلى بلاد أخرى. فكّرت في مقدار المال الذي سأسحبه على الفور من آلة النقود. فكّرت في ترك هاتفي هناك، على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. ما الزمن اللازم حتى يجفّ حليبي وحتى يتخلّى ثدياي عن تقديم دليل على أنها قد وُلدت.

كانت تلك الإمكانيات تجعل ذراعَيّ ترتجفان.

كانت لديَّ أفكار لم أسمح لها بأن تترك شفتيّ... أفكار لا تعرفها أكثر الأمهات.

- 14 -

كنت في الثامنة من عمري؛ وكان الوقت قد تجاوز كثيرًا موعد نومي. كنت واقفة في الممر، مرتدية ملابس النوم، مصغية إلى أمي وأبي يتشاجران في غرفة المعيشة.

سمعت صوت زجاج يتكسّر. أدركت أن ما انكسر كان التمثال الصغير لامرأة في فستان جنوبي طويل حاملة في يدها مظلّة. لست أدري من أين أتى ذلك التمثال - لعله كان هدية الزفاف. كانا يتشاجران من أجل شيء وجده في جيب معطفها، ثم من أجل رحلات أمي إلى المدينة. ثم راحا يذكران شخصًا اسمه ليني. ثم راحا يتحدّثان عني. قال أبي إنه يحسّني قد صرت هادئة أكثر مما ينبغي، منسحبة كثيرًا. قال إن من الضروري أن أحظى بشيء من اهتمامها، من وقت لآخر.

«هي ليست في حاجة إليّ، يا سيب».

«أنت أمها يا سيسيليا».

«ستكون أحسن حالًا لو لم أكن أمها».

وعندما بدأ نحيب أمي... كانت تبكي فعلًا... شيء لم أسمعه منها قبل ذلك أبدًا على الرغم مما يدور بينهما من مشادّات في كل ليلة، تقريبًا، فاستدرت لكي أعود إلى غرفتي. كان وجهي حارًّا، وكانت النبرات الحادّة المتوترة في صوتها تجعل معدتي تتقلّص. لكنّي سمعت أبي يذكر اسم جدتي. قال: «سينتهي بنا الأمر تمامًا مثلما انتهى بإيتا». اتّجهت خطوات أبي صوب المطبخ. سمعت صوت اصطدام عقبَيّ كأسين زجاجيتين ثقيلتين بطاولة المطبخ، ثم صوت انسكاب الويسكي.

هدّأها تناول تلك الكأس. انتهت المشاجرة بينهما. كنت أعرف هذا الجزء من روتينهما المتكرّر، - تأتي تلك اللحظة عندما يستبد بها التعب، ثم يشرب أبي إلى أن يأتيه النوم.

لكنها كانت راغبة في الكلام تلك الليلة.

تركت ظهري ينزلق على الجدار، وجثمت على الأرض. بقيت جالسة طيلة ساعة تلَت ذلك، مصغية إليها تكلّمه، مستمعة إلى تلك الأجزاء من ماضيها، إلى تلك الأجزاء التي لسعت عقلي أول مرة.

في تلك الليلة، نام أبي معها في غرفة النوم... نادرًا ما كان يفعل ذلك. كان بابهما مغلقًا عندما استيقظت صباح اليوم التالي. أعددت إفطارًا لنفسي، ثم ذهبت إلى المدرسة. لم يتشاجرا تلك الليلة. كانا هادئين. متمدّنين. كتبت واجباتي المدرسية. رأيت أمي تمسّ ظهره بيدها بعد أن وضعت أمامه طبق دجاج بالغت في طهوه. شكرها أبي، وخاطبها بكلمة «عزيزتي». كانت تحاول، وكان يسامحها.

ولسوف يصير هذا شيئًا تفعله على امتداد عدة سنوات أعقبت تلك الليلة. أكون في غرفة نومي، في الطابق العلوي، فأسمع اسم إيتا وأعرف أن أمرًا قد أطلق عنان أمي من جديد... فتتسارع نبضات قلبي. كنت أحاول ألا أتنفس عند كلامها حتى أسمع كل كلمة تقولها لأبي. كنت في توق إلى معرفة من كانتها أمي، قبل أن تصير أمي.

بدأت أفهم خلال تلك الليالي التي لم أنم فيها وأنا أعيد استعراض الأشياء التي سمعتها... بدأت أفهم أننا نكبر كلنا انطلاقًا من شيء ما. بدأت أفهم أننا نظلّ حاملين البذرة التي نشأنا منها. وبدأت أفهم أنني جزء من بستانها.

1964

ما كانت سيسيليا قادرة على النوم من غير دميتها التي كان اسمها بث آن. ظلّت هكذا حتى صار عمرها سبع سنين. كانت تحب دميتها أكثر من أي شيء آخر، - تحب رائحتها وملمس شعرها الحريري بين أصابعها عندما تغفو. بحثت عنها ذات ليلة بحثًا محمومًا وهي تحاول أن تتذكّر أين رأتها آخر مرة. صاحت إيتا غاضبة من أسفل سلم القبو، فأدركت سيسيليا أن وقع خطواتها المتنقّلة في أرجاء البيت كلّه قد أزعجها... ينبغي أن تكون الآن في فراشها.

«سيسيليا، إنها هنا، في الأسفل».

كانت في القبو حجرة صغيرة من أجل المخلّلات... صغيرة بحجم بيت كلب. كانت إيتا قد كفت عن صنع المخللات منذ سنين، وكانوا قد أكلوا كل ما بقي لديهم. قرفصت عند مدخل تلك الحجرة، وكان شعرها المربوط في كرة خلف رأسها ناتئًا صوب ابنتها.

«لماذا وضعتها في عمق الحجرة. كان ينبغي أن تضعيها هنا».

«لم أضعها! أكره هذه الحجرة!».

«لا بأس، إنها لا تتسع لي. ادخلي وخذي دميتك».

قالت سيسيليا متذمّرة إن قميص نومها سوف يتّسخ. وإنها لا تحب ذلك المكان، لكنها استطاعت رؤية بث آن راقدة، في الزاوية.

«لا تكوني قطة جبانة، يا سيسيليا. إن كنت تريدينها، فاذهبي وخذيها».

جثمت سيسيليا على أطرافها الأربعة، فدفعتها إيتا إلى الأمام. سقطت على ساعدَيها وبدأت تبكي؛ لكنها كانت مصرّة على استعادة بث

آن فتابعت تقدّمها بحركة بطيئة حتى بلغت نهاية ذلك الكهف الصغير المظلم. بدت لها أوعية المخلل المصفوفة عند الجدار كأن فيها ماءً آسنًا. بدأت تشعر بصعوبة التنفّس هناك.

سمعت صرير شيء من خلفها، لكن جدران تلك الحجرة كانت أقرب من أن تسمح لها بالاستدارة. انتبهت عندها إلى أن ما كانت تراه من التماع النور على زجاج أوعية المخلّل التي من حولها قد اختفى. ما عادت قادرة على الحصول على كفايتها من الهواء، فصاحت منادية إيتا. كان الحصى تحت ركبتيها ينغرس في جلدها كلما تحركت. حاولت أن تزحف خلفًا، وحاولت رفس الباب بكعب قدمها حتى تفتحه؛ لكنه كان مقفلًا. سمعت صوت رنين الهاتف آتيا من غرفة المعيشة، وسمعت خطوات إيتا الثقيلة على درجات السلم. سمعتها تقول: «آلو!». ثم مرّت لحظة صمت انبعث بعدها صوت التلفزيون. سمِعت صوتًا مألوفًا؛ إنها أخبار المساء ظلّت سيسيليا قادرة على سماع صوت إيتا مكتومًا وهي تتكلّم في الهاتف. كان ذلك في شهر أيلول من سنة 1964؛ وكانوا يعلنون النتائج التي توصّلت إليها لجنة وارنر. وكانت إيتا، - كغيرها من الناس، مهووسة بأخبار اغتيال الرئيس كيندي. لم تعد إيتا أبدًا. كان هنري هو من فتح لها الباب عندما عاد إلى البيت بعد نوبة عمله الليلية. جرّ سيسيليا من عقبيها حتى أخرجها من تلك الحجرة. كانت على كفّي يديها خدوش. وجرت مجادلة في شأن أخذها إلى المستشفى لكي يفحصوها هناك. رأى هنري أن تنفّسها كان ضحلًا، وأن عينيها غير طبيعيتين. لكن إيتا فازت: ظلّوا في البيت.

جلس هنري إلى جوار سرير سيسيليا أثناء نومها. كان يضع قطع قماش رطبة على رأسها. لم يذهب إلى عمله في اليوم التالي. لم يكلّم أحدهما الآخر طيلة أيام كثيرة. انتزع هنري باب تلك الحجرة في القبو، ونقل ما كان باقيًا فيها من أوعية المخلّلات فوضعها في خزانة في المطبخ.

قال وهو يهز رأسه: «لم يكن ذلك الباب يفتح ويغلق جيدًا في يوم من الأيام».

وبعد أسبوع من ذلك، همست إيتا بشيء لسيسيليا عندما أنهت طبق طعام العشاء. كان هنري في عمله. وكانتا تستمعان إلى الأخبار من راديو المطبخ. لم تسمعها سيسيليا جيّدًا؛ لكنها ظنّت ما قالته إيتا لها كان: «أردت أن أعود من أجل إخراجك، يا سيسيليا». مسّت وجنة سيسيليا بشفتيها، وظلّت على تلك الحال لحظة. لم تطلب سيسيليا منها أن تكرّر ما قالته لها.

- 15 -

ما أسرع ما ينقضي الوقت! استمتعي بكل لحظة.
تتحدّث الأمهات عن الزمن كأنهنّ لا يعرفن عملة غيره.
هل تستطيعين تصديق هذا؟ هل تستطيعين تصديق أنها أتمت شهرها الثامن؟

كنت أسمع هذه العبارات من بقية الأمهات، -تقلنها بحيوية وابتهاج،- تؤرجحن العربات أمامًا وخلفًا على الرصيف، وفيها أطفالهنّ نائمون تحت بطانيات بيضاء ناعمة باهظة الثمن. تتحرّك اللهّايات في أفواههم. كنت أنظر إلى فيوليت، فأرى عينيها محدّقتين في وجهي وهي راقدة، وأرى قبضتيها متحرّكتين، وساقيها متيبّستين، عاجزتين، عاجزتين، عاجزتين. أتساءل في نفسي: كيف استطعنا اجتياز هذه المسافة كلّها، ستة شهور كاملة. أحسّها كأنها ست سنين.

هذا أفضل عمل في العالم، أليس كذلك؟ الأمومة؟

كان هذا ما قالته الطبيبة في واحد من مواعيد فيوليت من أجل تلقّي الحقن. كانت الطبيبة أمًا لثلاثة أطفال. حدّثتها عن عودة ظهور البواسير التي كانت في حجم حبّات العنب، وعن الزمن الطويل الذي انقضى منذ أن مارسنا الجنس آخر مرة... منذ آخر مرّة تذكّرت فيها قضيبك تذكّرًا عابرًا. ابتسمت الطبيبة، وارتفع حاجباها. نعم. *أفهم هذا. أفهمه حقًّا.* وكأنني صرت الآن جزءًا من النادي، وصرت مطّلعة على أسراره التي لا يأتي أحد على ذكرها. ما لم أستطع إخبارها به كان إحساسي بأن سنّي قد ازدادت قرنًا كاملًا منذ ولادة فيوليت. ما كنت قادرة على القول إنها تبدو

كأنها تطيل زمن كل ساعة نمضيها معًا. وما كنت قادرة على إخبارها بأن الشهور قد مضت بطيئة وبأنني كثيرًا ما أغسل وجهي بماء بارد، حتى في النهار، حتى أرى أن كان ذلك كلّه حلمًا، - حتى أرى إن كان ذلك هو السبب الذي يجعلني من غير إحساس بانقضاء الزمن.

... كأنك تغمضين عينيك لحظة فتجدينهنّ، فجأة، قد صرن فتيات كبيرات. إنهنّ تتحوّلن إلى أولئك الأشخاص الحلوين الصغار أمام عينيك، أمام عينيك تمامًا! وأما ما كان يبدو لي فهو أن نمو فيوليت شديد البطء. لم أكن ألاحظ أي تغيّر فيها إلى أن تحملَها وتهزها أمام وجهي. كنت تقول لي إن ملابسها صارت صغيرة عليها، وإن بطنها صارت بارزة من تحت قمصانها، وإن طول بنطلوناتها ما عاد يتجاوز ركبتيها إلا قليلًا. كنت تحزم لعبها وأشياءها وتزيحها جانبًا، وتشتري لها في طريق عودتك من العمل دمى تغمض أعينها وتفتحها وتصدر أصواتًا، تشتري لها أشياء من أجل الكائنات البشرية الصغيرة التي تنمو وتتعلّم وتفكّر. وكنت مقتصرة على محاولة إبقائها حية. كان تركيزي منصبًّا على أكلها ونومها وفيتاميناتها التي أحسّ أنني ما كنت قادرة على تذكّرها. كان تركيزي منصبًّا على الأيام المتتالية التي تتدحرج مثل جلاميد صخر يرتطم بعضها ببعض.

- 16 -

ونحن... لا يستطيع أي شخصين متزوّجين تخيّل ما قد تؤول إليه العلاقة بينهما بعد إنجاب أطفال. لكن ثمة استثناء يناسبك إلى أقصى حد. الاستثناء هو أن يصير الاثنان فريقًا واحدًا، حيث يكون العمل ضمن فريق ممكنًا. كان أداؤنا ناجحًا. وكانت طفلتنا تأكل وتستحمّ وتمشي وتنام وتكتسي ثيابًا وتُبدّل حفاضات... وكنتَ تفعل كل ما تستطيع فعله. كانت معي طيلة النهار، لكنّها تصبح لك لحظة دخولك البيت. الصبر. الحب. العاطفة. كنت شاكرة لكل ما تقدّمه إليها من أشياء لا تريد قبولها منّي. كنت أنظر إليكما معًا؛ وكنت أغار. أردت أن يكون عندي كل ما كان عندك.

لكن اختلال التوازن هذا كان مكلفًا. لقد انجرفنا بعيدًا عن عشر سنين مريحة، ثمينة سهلة عشناها معًا. بدلًا من ذلك، كان حضوري يجعلك تنسحب. وكانت أحكامك تجعلني قلقة، متوتّرة. كلما ازداد ما تأخذه فيوليت منك، كلما نقص ما تعطيني إياه.

كنا مستمرّين في تبادل القبل عند اللقاء، وفي تبادل الأحاديث على العشاء في المطاعم في الليالي القليلة التي نخرج فيها معًا. وكنت تضع دائمًا يدك على ظهري عندما نسير مقتربين من بيتنا. مقتربين من العشّ الذي بنيناه معًا. لقد ترسّخت في سلوكنا حركات بعينها، وبقينا مستمرّين عليها. ولكن، كانت هناك أشياء غائبة صغيرة لا تكاد تُرى. توقّفنا عن حلّ الكلمات المتقاطعة معًا. وما عدت تترك باب الحمام مفتوحًا عندما تستحم. ظهرَ فراغ في مكان ما كان فيه فراغ قبل ذلك؛ وفي ذلك الفراغ، ظهر استياء.

حاولت أن يكون أدائي أفضل. صرت أبًا، فجعلك هذا جميلًا جدًّا. لقد تغيّر وجهك. صار دافئًا. صار ناعمًا. حاجباك يزدادان ارتفاعًا كلما كانت ابنتك على مقربة منك؛ وفمك لا يُغلق أبدًا. عجبًا... لقد صرت شخصًا أكثر تألقًا من الرجل الذي عرفته! كنت توّاقة إلى أن تحدث لي هذه الأشياء مثلما حدثت لك. لكنني صرت أكثر قسوة، كأنني تصلّبت. صار مظهر وجهي حانقًا، وصار متعبًا، بعد أن كانت الحياة قد ورّدت وجنتيّ ذات مرة، وبعد أن كانت تتألّق في عينيّ الزرقاوين. صار مظهري مثل مظهر أمي... تمامًا قبل أن تهجرني.

- 17 -

في وقت من الأوقات أثناء شهرنا السابع معًا، بدأت فيوليت أخيرًا تغفو أكثر من عشرين دقيقة في المرة الواحدة. عدت إلى الكتابة. لم أقل لك شيئًا عن هذا - كنت دائم الإصرار على أن أنام عندما تغفو ابنتنا في النهار؛ وكلما عدت إلى البيت تسألني إن كنت قد نمت. كان ذلك الأمر الوحيد الذي يهمك. أردتني أن أظلّ منتبهة، وأن أظلّ صبورًا. أردتَ أن أكون مرتاحة حتى أستطيع أداء واجباتي. كنت في ما مضى تهتم بشخصي - بسعادتي، وبالأمور التي تجعلني في حال أفضل. لكني صرت الآن شخصًا يؤدي خدمة. ما كنت تراني امرأة. وما كنت إلا أمًّا لطفلتك.

هذا ما جعلني أكذب عليك أكثر الأيام لأن من الأسهل أن أكذب عليك: نعم، نمت قليلًا. نعم، نلت قسطًا من الراحة. وأما الحقيقة فهي أنني كنت أعمل على قصة قصيرة. كانت الجمل تنسكب مني انسكابًا. وما كنت قادرة على تذكّر شيء يشبه هذا التدفق في أي وقت مضى. كنت قد تأهّبت لأن يحدث عكس هذا: غيري من الكاتبات اللواتي لديهنّ أطفال أنبأنني بنضوب الطاقة، وبعجز الدماغ عن العمل على الورق مثلما كان يعمل من قبل... في السنة الأولى على الأقل. لكنني كنت أشعر بالحياة تعود إليّ عندما تضيء شاشة الكمبيوتر أمامي.

تستيقظ فيوليت كل ساعتين -بكل دقة- وأكون كلَّ مرّة غارقة في نوم عميق. أحسّ بنفسي في مكان آخر، نفسيًّا وعاطفيًّا. صرت معتادة أن أتركها تبكي، وأن أعِدَ نفسي بكتابة صفحة إضافية واحدة. ألجأ

أحيانًا إلى وضع السماعتين في أذني؛ وفي أحيان أخرى، تصير الصفحة صفحتين، أو أكثر من صفحتين. وفي بعض الأحيان، أواصل الكتابة ساعة أخرى. وعندما يزداد بكاؤها حدّة، أغلق اللابتوب وأندفع إليها كأنني ما سمعت صراخها إلا في تلك اللحظة. *أوه! هل استيقظتِ الآن؟ تعالي لكي تري ماما!* من الذي كنت أقوم بهذا التمثيل من أجله؟ لست أدري! ينتابني حرَج عميق عندما تدفعني بيديها كلّما حاولت تهدئتها. كيف لي أن ألومها على رفضها إياي؟

يوم أتيت إلى البيت في وقت مبكر.

لم أسمعك داخلًا لشدة صراخها، ولأن السماعتين كانتا في أذني. توقّف قلبي عندما أدرتَ الكرسي الذي كنت جالسةً عليه فكدت تسقطني أرضًا. جريتَ إلى غرفة النوم كأن الطفلة تحترق. حبست أنفاسي ورحت أصغي إليك وأنت تهدّئ بكاءها. كانت في حالة هستيرية. كنت تقول لها: «أنا آسف جدًّا، أنا آسف جدًّا». كنت آسفًا جدًا لأنني أمّها. هذا ما كنت تعنيه.

لم تخرج بها من غرفتها. جلستُ على الأرض في الممرّ مدركة أن ما من شيء بيننا سيظلّ على حاله. لقد خنت ثقتك. لقد أكّدت لك كل ما كان لديك من شكوك صامتة.

عندما دخلت الغرفة أخيرًا، وجدتكَ تهزّ كرسيها. كانت عيناك مغمضتين ورأسك مرتدّةً إلى الخلف. كانت اللهّاية في فمها.

تقدمت من الكرسي حتى آخذها منك، لكنك رفعت ذراعك لكي توقفني.

«بحقّ الرب، ماذا كنتِ تفعلين؟».

كان لديّ من الإدراك ما جعلني أمتنع عن التماس أية أعذار لنفسي. لم أر قبل ذلك اليوم يدك ترتعش غضبًا مثلما رأيتها الآن.

ذهبت إلى الحمام، وظللت أبكي إلى أن برد الماء.

وعندما خرجت، وجدتك تقلي البيض. كانت جالسة في حضنك.

«تستيقظ من نومها عند الساعة الثالثة، كل يوم. كانت الساعة الرابعة وخمسًا وأربعين دقيقة عندما وصلت إلى البيت».

رحت أنظر إلى الملعقة الخشبية تتحرّك في المقلاة.

«لقد تركتِها تبكي ساعة ونصف الساعة».

لم أستطع النظر إليك، ولا إليها.

«هل يحدث هذا كل يوم؟».

قلت بنبرة قاطعة: «لا»... وكأن هذا قادر على إنقاذ كرامتي.

حتى تلك اللحظة، لم يكن أيٌّ منا قد نظر إلى الآخر. بدأت فيوليت تتململ.

«إنها جائعة. أطعميها». ناولتني إياها، فأطعمتها.

في فراشنا تلك الليلة، استدرت إلى الناحية الأخرى وتكلّمت كأنك تكلّم النافذة المفتوحة.

«ما مشكلتكِ؟».

أجبتك: «لست أدري. آسفة».

«عليك أن تكلّمي أحدًا... طبيبًا».

لم أقل شيئًا.

«أنا قلق عليها».

أجبته، «فوكس. أرجوك. لا تقلق عليها».

ما كان ممكنًا أبدًا أن أوقع بها أي أذى. وما كان ممكنًا أبدًا أن أعرضها إلى أي خطر.

مرّت سنين بعد ذلك؛ وانقضى زمن طويل بعد أن بدأت تنام طيلة الليل، لكني ظللت أستيقظ كلما بكت. أضع يدي على صدري وأتذكّر ما

فعلت. أتذكّر وخزة الإحساس بالذنب؛ وأتذكّر أيضًا إحساسي الطاغي بالرضا عندما تجاهلتُها. أتذكّر نشوة الكتابة أكثر مما أتذكر ذلك المزيج من الموسيقى والبكاء. ما أسرع ما كانت الصفحة تمتلئ! وما أسرع ما كان قلبي ينبض! وما كان أشد خجلي عندما انكشف أمري!

- 18 -

ما كانت أمي قادرةً على البقاء في أماكن ضيّقة. في طفولتي، كانت خزانة المؤونة غير مستخدمة؛ وكانت رفوفها ممتلئة غبارًا، وفيها فضلات الفئران التي أتت من أجل قليل من الفستق المتروك هناك، ومن أجل كيس سكر مفتوح. سقيفة الفناء الخلفي كانت مقفلة. وكان القبو ذو السقف المنخفض مغلقًا بعوارض خشبية ثخينة مثبتة بمسامير صدئة أتت بها سيسيليا من الكراج ووضعتها بنفسها.

عندما كنت في الثامنة، في يوم قاتل الحرارة من أيام شهر آب، جلست أمام بيتنا ذي الحرّ الحارق، ورحت أرقب أمي جالسة تدخّن إلى جانب الطاولة البلاستيكية، الموضوعة على العشب الأصفر الخشن الممتدّ من السياج، المصنوع من أسلاك معدنية متشابكة صدئة متعفّنة إلى السياج الآخر. كان الجو كلّه صمتًا وكأن الأصوات المنبعثة من الحي غير قادرة على الارتحال عبر تلك الكثافة... كثافة الهواء التي كنت شبه عاجزة عن إدخالها إلى رئتيّ. كنت في بيت آل إلنغتون في وقت سابق من ذلك اليوم. وقد أرسلتنا السيدة إلنغتون إلى القبو البارد حتى نرتاح من الحرّ قليلًا. تظاهرنا أننا ذاهبون إلى القبو في نزهة. جلبت لنا بطانية وبيضًا مسلوقًا وعصير تفاح في كؤوس ورقية، وجلبت أيضًا بالونات باقية من حفلة عيد ميلاد دانييل. سألتُ أمي إن كنا نستطيع النزول إلى قبو بيتنا. ألا نستطيع نزع تلك العوارض الخشبية؟ ألا نستطيع استخدام الجانب الخلفي من المطرقة لكي ننتزع المسامير المغروسة فيها، مثلما فعل أبي عندما أصلح الشرفة الأمامية في الأسبوع الماضي؟ أجابتني بنبرة حادة: «لا. كفّي عن طرح الأسئلة».

«لكن، يا ماما، من فضلك... أشعر بالغثيان. الحر في كل مكان، عدا القبو».

«كفّي عن هذه الأسئلة، يا بلايذ. إنني أحذّرك».

«سأموت هنا... بسببك أنت».

صفعتني على وجهي، لكن كف يدها انزلقت على العرَق الناضح من وجنتيّ، فما كان منها إلا أن انحنت صوبي وضربتني من جديد. لكنها ضربتني بقبضة يدها هذه المرة؛ ضربتني على فمي. كانت ضربة مباشرة قوية. طارت واحدة من أسناني واصطدمت بآخِر فمي فسعلت دمًا تناثرت قطراته على قميصي.

نظرت إلى تلك السن في كفّي، فقالت أمي: «إنها سن لبنية. سوف تتساقط كلّها على أية حال».

أطفأت سيجارتها في بقعة تراب وسط العشب الجاف. لكني استطعت رؤية تقزّزها من نفسها ظاهرة على شفتيها المصبوغتين. لم تضربني قبل ذلك أبدًا... وما كنت أعرف الإحساس بذلك المزيج من الخجل والإشفاق على النفس والألم في القلب. ذهبت إلى غرفتي وصنعت لنفسي مروحة من نشرة دعائية لأحد متاجر البقالة وجدتها في صندوق البريد. استلقيت على الأرض بقميصي وسروالي التحتي. عندما دخلت أمي الى الغرفة بعد ساعة من ذلك، أخذَت المروحة من يدي ومسّدت طيات الورقة قائلة إنها بحاجة إلى الكوبون لكي تشتري أفخاذ الدجاج.

جلسَتْ على سريري... شيء لا تفعله إلا في ما ندر. ما كانت تطيق البقاء في غرفتي زمنًا طويلًا. تنحنحت بصوت أَبَحّ.

«عندما كنت في مثل سنك، فعلت أمي لي شيئًا شديد القسوة... في القبو. لذا، لا أستطيع النزول إليه».

لم أتحرّك عن الأرض. فكّرت في الأشياء التي كنت أسترق السمع

إليها في ساعات متأخّرة من الليل عندما يعلو الصياح بينها وبين أبي. احمرّ وجهي عندما تذكّرت أسرارها. نظرت إلى قدميها العاريتين وهي تحك إحداهما بالأخرى. كانت أظافر قدميها مطلية حديثًا بلون أحمر لامع كلون الكرز.

«لماذا كانت أمك شديدة القسوة عليك؟».

كانت قادرة على رؤية قلبي يقفز تحت قميصي الذي لطّخه دمي.

«كانت لديها مشكلة». أوحت لي نبرة صوتها بأن تلك الإجابة ينبغي أن تكون واضحة لي حتى في تلك السن. انتزعت كوبون أفخاذ الدجاج من أسفل النشرة الدعائية، ثم أعادت ثني الورقة مثلما كانت. مددت يدي لكي أمسّ إصبع قدمها، لكي أحس ذلك الطلاء الصقيل، حتى أحسّها. لكن لم أمسّها أبدًا. أجفلت أمّي، لكنها لم تبعد قدمها. حدّقنا معًا في إصبعي الذي استقرّ على ظفر قدمها.

قالت لي: «آسفة من أجل سنك». نهضت واقفة. وببطء، أبعدتُ يدي عن قدمها.

قلت: «على أية حال، كانت سِنًا متخلخلة».

كانت تلك أول مرة تخبرني فيها عن إيتا... تخبرني بنفسها. أظنّها ندمت بعد ذلك لأنها صارت شديدة البرودة معي في الأسابيع التالية. لكنّي أتذكر رغبتي في أن أمسّها من جديد، في أن أمسّها أكثر، في أن أكون على مقربة منها. أتذكّر وقوفي إلى جانب سريرها في الصباحات حتى أمرَّ بإصبعي مَرًّا خفيفًا على وجنتها قبل أن أخرج من الغرفة سائرة على أطراف أصابعي عندما تتململ في نومها.

- 19 -

قرّرت الامتناع عن الكتابة خلال الأشهر التالية. قرّرت التركيز على فيوليت وحدها.

كان رأي طبيبتي أنني لا أعاني حالة اكتئاب ما بعد الولادة. كنت مقتنعة بهذا، مثلها. لقد أديت الاختبار المعلّق في لوحة على جدار غرفة الانتظار في عيادتها:

هل أصابك توتّر أو قلق من غير أي سبب وجيه؟	لا
هل تخشين أمورًا كنت تتطلّعين إليها في ما مضى؟	لا
هل تصيبك تعاسة تحرمك النوم؟	لا
هل يراودك التفكير في إيقاع الأذى بنفسك؟	لا
هل يراودك التفكير في إيقاع الأذى بمولودك؟	لا

نصحتني الطبيبة بأن أخصّص مزيدًا من الوقت لنفسي، وأن أعود إلى فعل ما كنت أفعله قبل إنجابي، كالكتابة مثلًا. كنت مدركة أن هذا لن يعجبكَ. فقلت لك إن الطبيبة اقترحت عليَّ بعض التمرينات، فضلًا عن قضاء بعض الوقت خارج البيت. عليّ أن أذهب لرؤيتها من جديد بعد ستة أسابيع. بدأت أخرج في الصباح مع فيوليت فور خروجك من البيت. كنا نمضي ساعات في الخارج. كنت أسير بها إلى مركز المدينة حيث يقع مكتبك؛ وكنت تخرج لملاقاتنا حتى نتناول فنجان قهوة. كان تعجبك زقزقة فيوليت عندما تراك خارجًا من المصعد؛ وكانت تعجبك رؤية وجهي النضِر المتورّد الموحي بأنني مستمتعة بما يحدث. في ذلك الوقت، كاد عمرها يبلغ سنة، وصار يبدو عليها الانتعاش لرؤية العالم الذي من حولها. هذا ما جعلني

ألتحق بدروس موسيقى اسمها «ماما وأنا»، وكذلك ببرنامج للسباحة. ومن جديد، صرت أكثر دفئًا معي - أعجبتك هذه النسخة الجديدة مني، ورأيتها نسخة جيّدة. كان عليّ إثبات أشياء كثيرة في ذلك الوقت. حرصنا على البقاء منشغلين، وحرصتُ على البقاء صامتة.

هل كانت هناك لحظات حلوة؟ بالطبع، كانت لديَّ تلك اللحظات. شغّلت موسيقى ذات ليلة، وبدأت تنظيف المطبخ. كان الطعام متناثرًا في كل مكان... على ثيابي كلّها، وعلى وجهها، وعلى الأرض. كانت جالسة تضحك في كرسيّها، وكنت حاملة بيدي مشبك خلط الطعام. مدّت ذراعيها إليَّ. رفعتها ودُرت بها في أرجاء المطبخ فرمت برأسها خلفًا وراحت تزقزق فرحًا. أدركت أننا لم نعِش من قبل لحظة مثل هذه اللحظة... لم نعثر من قبل على الراحة، على السخف، على المرح. السيدة إنلغتون ودميتها المتكلّمة، قد نحاول فعل ذلك بدورنا. بدلا من ذلك، كنت أحاول دائمًا أن أبحث عما بيننا من سوء تفاهم. غمرتها بالقبلات فأبعدت رأسها عني حتى تنظر إليّ... لم تألف هذا النوع من العاطفة إلا منك أنت. ألصقت شفتيها الرطبتين بخدّي وأطلقت صوتًا جديدًا... آآآآه.

«نعم، نحن نحاول، أليس هذا صحيحًا؟».

سمعتك تتنحنح. كنت واقفًا في الممر تنظر إلينا. ابتسمت لنا. استطعت رؤية ارتياحك في استرخاء كتفيك. كنا في ذلك المطبخ صورة لا شائبة فيها أبدًا.

وعندما انتهيت من تغيير حفاضاتها، عدت وسكبت لنا كأسَيّ نبيذ، ثم قبّلتني على رأسي وقلت لي: «إنني أفكّر في أمر. عليكِ أن تعودي إلى الكتابة من جديد».

لقد اجتزت كل امتحان جعلتَني أجتازه. كنا في غاية الشوق إلى أن يكون إحساسنا بالحياة طيّبًا. وكان لدينا معًا أمل في أن يتحقّق هذا لنا. غمرت أنفي في رقبة فيوليت الدَّبِقة، وتناولت كأس النبيذ من يدك.

- 20 -

«ماما».

قفزتَ مبتعدًا عن الأرجوحة وقلت لي: «هل سمعت هذا؟».

«أوه، يا إلهي! لقد سمعتها».

«قوليها من جديد».

«ماما».

تعثّرت وانسكبت القهوة من كأسي عندما اقتربت منها. أمسكت بمقدّمة الأرجوحة وقرّبتها مني وقبّلتها على شفتيها الرطبتين. قلت لها، «نعم! ماما! هذه أنا».

«ماما!».

«ألم أقل لك؟».

ضغطتَ على كتفيّ من الخلف، وبدأنا ننظر إليها وأنا أتظاهر بمحاولة دغدغة قدميها كلما اقتربت الأرجوحة مني. كانت تضحك عند ذلك، وتقول اسمي مرّة بعد مرة لكي تراقب ردّة فعلي. لقد أدهشتني حقًّا. بدأنا نتمايل معًا، رفعت يدي وتحسّست ذقنك الحليقة يوم العطلة. أدرت وجهي صوبك وقبّلتَني قبلة سريعة سعيدة خالية البال. كانت فيوليت تنظر إلينا. بقينا واقفين هكذا زمنًا أحسسته ساعات كثيرة.

نامت في عربتها أثناء عودتنا إلى البيت. لم أشعر بهذا القرب منكما منذ زمن طويل جدًّا، فحاولت أن أبقى متمسّكة به. خفّة ساقي عندما سرنا، وذلك العمق الموحي بالرضا في أنفاسي الممتلئة. حملتها إلى مهدها محاذرةً إيقاظها. ثم نزعت حذاءها الصغير من قدميها وهي نائمة.

خرجت إلى الممر متّجهة إلى المطبخ حتى أنظف ما خلّفه إفطارنا من فوضى هناك. لكنك جذبتني من ذراعي. جررتني إلى الحمام وفتحت ماء الدوش. استندت إلى المنضدة الصغيرة ناظرة إليك وأنت تخلع ملابسك.

«تعالي معي».

فكّرت في نصف ثمرة الأفوكادو الباقية على طاولة المطبخ، وفي البيض الباقي في المقلاة. مر زمن طويل جدًّا منذ آخر مرّة تلامسنا فيها.

«هيا، يا ماما».

ما كدنا نبدأ حتى سمعنا صوتها الصغير آتيًا عبر الممر. لقد استيقظت. مددت يدي إلى صنبور الماء ظانّة أنك راغب في الجري إليها قبل أن تبدأ البكاء.

همست لي، «ظلّي هنا. سننتهي سريعًا». كنتَ جاهزًا، فبقيت معك.

صار صراخها أكثر إلحاحًا كأنه يذكّرنا بوجودها؛ لكنك لم تتوقّف. أردتني أكثر مما أردتَها. غضبت من نفسي لما شعرت به من رضا عند ذلك، ولأنني تركت هذا الأمر يزيد إثارتي إلى أقصى حدٍّ. أصغيت إلى صوتها عبر أصداء انهمار الماء. أردت أن أسمعها تبكي، وأن أتخيّلك متجاهلًا إياها مثلما أفعل أحيانًا. بلغنا الذروة معًا تحت انصباب الماء الناعم من فوقنا.

أغلقنا الصنبور فور انتهائنا. كانت فيوليت صامتة. لم تبدأ البكاء مثلما توقعت، مثلما انتظرت منها أن تفعل، مثلما تفعل عندما تكون معي فقط. ألقيتَ إليّ منشفة مثلما قد تفعل زميلة لي في غرفة الخزائن في النادي الرياضي... كانت عادتك أن تجفّف جسدي بنفسك، ببطء، وكان هذا جزءًا مما نفعله معًا. كان صوت فيوليت خافتًا، آتيًا من بعيد كأنه مجموعة نغمات لا معنى لها؛ فتخيلتها مستلقية على ظهرها، رافعة ساقيها في الهواء، ممسكة بأصابع قدميها المتعرّقة. كان ذلك أنها كأنك

موجود وكأنك ستأتي إليها سريعًا. لففت وسطك بمنشفة أخرى وطبعت قبلة على كتفي العارية، ثم ذهبت إليها.

وعندما عدنا إلى المطبخ، أعددتَ لنا سندويتشين بالجبن المشوي، بينما كنت أزيل بقايا طعام الإفطار. كنت تدندن وتمسّني كلما اقتربت منك. قالت فيوليت تلك الكلمة مرة بعد مرة وهي تراقب ردود أفعالك وتؤرجح ساقَيْها عاليًا في كرسيها المرتفع: *ماما. ماما.*

1968

ما كانت تصرفات إيتا عصبيّة على التوقّع دائمًا. تمرّ فترات تعرف فيها كيف تتصرّف وكيف تبدو مثلما هو متوقّع من أية أم. كانت سيسيليا تشعر بأن هذا ليس سهلًا عليها... كانت ترى الصعوبة أحيانًا في ارتعاش يديّ إيتا، ارتعاشة عصبيّة عندما تدقّ أمّ أخرى بابها لكي تلقي عليها التحية، أو عندما تطلب منها سيسيليا أن تضفر لها شعرها. لكن ما من أحدٍ كان يراقب إيتا مراقبة دقيقة في ذلك الوقت. الحقيقة أنهم أقلعوا عن ذلك جميعًا. إلا أن شيئًا في إيتا كان يجعلها راغبة في المحاولة. تنجح محاولاتها أحيانًا، وتفشل في أحيانٍ أخرى. لكن سيسيليا ظلّت منتبهة إليها... ظلّت منتبهة إليها كل مرة.

كان لدى سيسيليا حفلة راقصة في المدرسة بعد العطلة عندما صارت في الصف السادس؛ وما كان لديها شيء ترتديه. ما كانوا يذهبون إلى الكنيسة، وما كانوا يحتفلون كثيرًا. إلا أن هذا الأمر ما كان مبعث اهتمام خاص لدى سيسيليا، وما كان مزعجًا لها. قالت إيتا إنها ستصنع لها شيئًا خاصًّا ترتديه. لم تجد سيسيليا شيئًا تقوله: في حياتها كلّها، لم تر أمها تفعل شيئًا! وفي اليوم التالي، عادت إيتا من متجر الأقمشة ونادت سيسيليا من أسفل السلم.

«سيسيليا، تعالي وانظري!».

بسطت إيتا نموذجًا ورقيًا لفستان فضفاض، وإلى جانبه عدة أذرع من قماش قطني أصفر داكن. وقفت سيسيليا ساكنة في حين راحت إيتا تسجّل قياسات جسدها الطويل النحيل المختلف كثيرًا عن جسد أمها. أحسّت

سيسيليا كأن شخصًا غريبًا يتحسّسها عندما راحت كفّا أمها تجريان على ساقيها وتحيطان بخصرها الدقيق، ثم ترتفعان إلى كتفيها. دوّنت إيتا المقاسات على منديل ورقي، ثم أعلنت أن الفستان سيكون جميلًا.

كانت في خزانة الممر آلة خياطة عتيقة من بقايا مالكي البيت السابقين، فأتت بها إيتا ووضعتها على طاولة المطبخ. ظلّت تعمل على الفستان كل مساء، خمسة أيام متتالية، وظل محرّك آلة الخياطة القديم يقلق نوم سيسيليا حتى ساعة متأخرة من الليل. وكل صباح، كانت ترى على طاولة المطبخ دبابيسَ وخيوطًا متناثرة. تنزل إيتا من الطابق العلوي محمرّة العينين، ثم تضع القماش على جسد سيسيليا وتنظر إليه. منح هذا المشروع إيتا هدفًا لم تعرفه سيسيليا لدى أمها قبل ذلك. ثم إنه جعل وقتها أضيق من أن يتّسع للغضب والحزن... هذا ما أدركته الصغيرة إدراكًا تامًّا.

وفي يوم الحفلة الراقصة، استيقظت إيتا أبكر من المعتاد، ومضت إلى غرفة سيسيليا حاملة الفستان الجديد، لقد صار جاهزًا، مكويًّا، متدليًا من ذراعيها. حملته ووضعته على كتفيّ سيسيليا ومرّت بكفيها على خصره الفضفاض، وعلى الثنيات في حاشيته السفلية. لقد زينت ياقة الفستان وكميه بعقَدٍ حريرية حلوة.

«ما رأيك؟».

«يعجبني كثيرًا». نعم، هذا ما أرادت إيتا سماعه؛ لكن إعجاب سيسيليا بالفستان كان حقيقيًا. كان أجمل ما لديها من ملابس؛ وكان الشيء الوحيد الذي صنعه أي إنسان من أجلها. تخيّلت نفسها تدخل غرفة الصف في ذلك النهار، وكيف ستلتفت رؤوس بقية البنات إليها، وكيف ستنظر عيونهنّ نظرة غيرة من غير أن تصدّق ما تراه أمامها.

استدارت سيسيليا وخلعت قميص نومها. كان سحّاب الفستان قاسيًا، لكنها أفلحت في فتحه وفي إدخال قدميها. رفعت الفستان

فشعرت بخشونة مواضع الخياطة على جلدها. كان خصر الفستان ضيّقًا جعل مؤخّرتها الصغيرة أكثر بروزًا، لكنها لم تستطع رفعه أكثر من ذلك. حاولت تحريك الفستان حول جسدها، وحاولت جذبه إلى الأعلى بقوة أكبر. لكن الفستان لم يتحرّك.

«أدخلي ذراعيك. هيا».

حاولت أن تجثو وأن تدخل ذراعيها في الكمين. سمعت الاثنتان صوت تمزّق القماش.

«اقتربي منّي». جذبتها إيتا إليها، وأمسكت بالفستان وراحت تدور من حولها وهي تشدّه إلى أعلى كأنها تلبس دمية ملابسها. أنزلت الفستان وطلبت من سيسيليا أن تُخرج قدميها. ثم حاولت إدخاله من رأسها. لم تنطق سيسيليا أية كلمة. تركتها سيسيليا تجذب الفستان وتديرها معه كيفما شاءت. تفصّد جبين إيتا عرقًا، واحمر وجهها أكثر من المعتاد. أغمضت سيسيليا عينيها بأشدّ ما استطاعت.

تركتها إيتا آخر الأمر، ونهضت واقفة.

«سوف ترتدين هذا الفستان، يا سيسيليا».

غاض قلبها. لا تستطيع ارتداء الفستان. بل هي غير قادرة حتى على إدخال نفسها فيه.

انقضت خمس عشرة دقيقة نزلت سيسيليا بعدها إلى المطبخ مرتدية بنطلونها البيج المعتاد ومعه كنزتها الزرقاء ذات الياقة المرتفعة. لم تنظر إلى إيتا. جلست إلى الطاولة وأمسكت ملعقتها.

«عودي إلى الأعلى، وارتدي الفستان».

«لقد رأيتِ بنفسك أنه ضيّق عليّ»... كان قلب سيسيليا يخفق عنيفًا.

«اجعليه على مقاسك. اصعدي إلى غرفتك... الآن».

تساءلت إن كان هنري قادرًا على سماع كلامهما. وضعت ملعقتها وحاولت تقرير ما ستفعله.

«الآن».

كانت سيسيليا قادرة على سماع أنفاس إيتا من خلفها. وكانت قادرة على الإحساس بغضب إيتا يخزّ عمودها الفقري. انتظرت سماع خطوات هنري آملة أن ينزل إلى المطبخ سريعًا.

«الآن».

للمرة الأولى في حياتها، أدركت سيسيليا عند ذلك أن لديها نوعًا من السلطة على إيتا. تستطيع إثارة غضبها. تستطيع جعلها تفقد السيطرة على نفسها. كانت قادرة على الصعود إلى غرفتها وعلى التظاهر بأنها تحاول ارتداء الفستان من جديد، لكنّها أرادت أن ترى المدى الذي يمكن أن تبلغه إيتا إن هي تجاهلتها. كانتا كأنهما تتبادلان إطلاق النار.

«الآن، يا سيسيليا».

كانت إيتا ترتجف. راحت تصرخ من جديد... الآن! الآن! وكلما صرخت، كان حنقها يبدو كأنه يتردّد في داخلها مثلما يتردّد تأثير دواء مخدّر. كانت سيسيليا قادرة على رؤية خجلها من نفسها ظاهرًا على وجهها كلما تراجع ذلك الحنق قليلًا.

سوف تعيش سيسيليا هذا الشعور نفسه بعد سنين كثيرة من ذلك. دخل هنري المطبخ لحظة انفتح فم إيتا من جديد. وعلى نحو ما، وجدت طريقة لتهدئة نفسها. صبّت له قهوة. جرت سيسيليا خارجة من الباب من غير ذلك الفستان.

في تلك الليلة، انتظرت هبوط الظلام قبل أن تذهب إلى بيتها، انتظرت إلى أن يكون هنري هناك. لم تنظر إيتا إليها أبدًا. صعدت إلى غرفتها فرأت أن إيتا قد أخذت الفستان منها. ثم مضت بضع دقائق، فظهرت إيتا بالباب حاملة القماش الأصفر بين يديها. جلست على سرير سيسيليا ومدت إليها الفستان. لقد فكّته ووسعته بأن أضافت إليه شريطًا قماشيًا من الجانبين. بدا الفستان منتفخًا، وبدا معوجًّا، لكنّها حاولت فعل ما تستطيع فعله.

«تستطيعين الاحتفاظ به من أجل الحفلة القادمة».

تناولته سيسيليا منها ومرت بأصابعها على حاشيته المزينة، ثم احتضنت إيتا. تصلّب جسد إيتا بين ذراعيها.

وبعد شهور من ذلك، ارتدت الفستان نفسه من أجل الحفلة الراقصة التي أقامتها المدرسة في آخر السنة. جلست مرتبكة على حافة منصّة الصالة الرياضية محاولة إخفاء قلة تلاؤم الفستان مع جسدها. لم تبدّل سيسيليا ملابسها بعد عودتها إلى البيت، بل ظلّت ترتدي ذلك الفستان وقت العشاء. لم تُشِر أمها إلى الأمر، ولم يشر إليه هنري... ثم لم ترتدي سيسيليا الفستان بعد ذلك أبدًا.

- 21 -

كان اهتمامنا بالحفلة أكبر من اهتمامها بها. أتممنا الآن سنة كاملة من الأبوة والأمومة. طلبتُ مجموعة بالونات ضخمة زاهية الألوان في وسطها لوحة كبيرة عليها الرقم «1». واشتريت أطباقًا ورقية فاخرة مشرشرة الحواف. كانت مصاصات الشراب مزينة بنقاط ملونة. أهدت أمك سيسيليا أوفرولًا جميلًا بلون الزبدة، مكشكشًا عند الفخذين، وله تموّجات عند المؤخّرة. بدت فيه كأنها بطّة صغيرة تتهادى في أرجاء غرفة المعيشة وفقاعات لعاب تنبعث من شفتيها وهي تخاطب ضيوفها بأصوات غير مفهومة. سار أبوك من خلفها، وجثا على ركبتيه المتورّمتين. كان يسجل بالكاميرا كل حركة من حركاتها.

اشتريتُ الحلوى من مخبز اعتدت أخذها إليه في نزهاتنا. حلوى عليها كريما الفانيليا مع شرائط بلون قوس قزح. زقزقت وصفّقت بيديها عندما وضعت الحلوى على صينية كرسيها المرتفع. تعلّقت عيناها بلهب الشمعة الصغيرة الوحيدة.

قالت «سعيدة»... قالتها بوضوح تام.

قال أبوك المفتون بها: «لقد سجّلتُ هذا»، ورفع الكاميرا الرقمية التي كانت في يده. غمرتها أمك بالقبلات؛ وراحت أختك تكوّر مناديل ورقية لكي تجعلها تضحك... أختك التي ما كنا نراها إلا قليلًا طارت خمس ساعات كاملة لكي تكون معنا. جلبت غريس معها زجاجة تيكيلا، وقطعَت الحلوى، وقدّمتها. كنا ننظر إليهم جميعًا ونحن جالسان على

كرسي مريح في غرفة المعيشة. كنت جالسة في حضنك، وكانت ذراعاك معقودتين على صدري.

همستَ لي: «لقد نجحنا»، واستنشقت رائحتي استنشاقًا بطيئًا بأنفك الذي كان يدغدغ رقبتي من الخلف. أومأت برأسي وشربت جرعة كبيرة من كأسك. بدت فيوليت ملاكًا في كرسيّها المرتفع، وسط جمهورها المبتهج. وقد لطّخت وجهها كله بكريما الحلوى. شعرت بأنفك يداعب رقبتي من جديد. شربت جرعة أخرى من كأسك، ثم نهضت وجذبتك لكي تنهض معي.

«فلنلتقط صورة عائلية».

وقفنا في ضياء الشمس المنسكب من نوافذ شقتنا، وحملت فيوليت على وركي، بيننا. أحسستها طيّعة إلى حد غير معتاد، فرفعتها وطبعت قبلة على وجنتها التي جعلها السكر دبقة.

ابتسمنا عندما كانوا يلتقطون لنا الصور. ثم بدأتَ تطلق صوتًا كصوت البطة فجعلتها تضحك. حملتها فوق رأسينا ونحن نصيح معًا بفمَين مفتوحَيْن على اتساعهما. ثلاثتنا معًا... تمامًا مثلما هو منتظر منا.

- 22 -

١

بعد وقت قصير جدًّا من عيد ميلادها الأول، لم تعد فيوليت تنام الليل كلّه. لم نكن نسمعها على الفور؛ وأحيانًا، لم نكن نسمعها أبدًا. لكني كنت أحسّ كأن عيني تنفتحان قبل ثوانٍ معدودة من إطلاقها صرختها الأولى من مهدها. كان هذا يثير أعصابي في كل مرّة ويذكّرني بأنها لا تزال -إلى حد كبير- جزءًا من جسدي. تبكي كلّ ساعتين مطالبة بزجاجة الرضاعة. وبعد بضعة أسابيع، صرت أصفّ ست زجاجات ممتلئة حليبًا، وأضعها على حافة سريرها، آملةً أن تقع يدها على واحدة منها عندما تريد الرضاعة. لكنها لا تفعل ذلك أبدًا.

لا أستطيع مواصلة هذا!... كنت أفكّر هكذا كلّما أيقظتني... *لن أستطيع احتمال هذا مرة أخرى.*

صرت أفتح باب غرفتها فأضع الزجاجة في يدها، ثم أذهب.

«أليس هذا سيئًا من ناحية البكتيريا... أن يظلّ ذلك الحليب هناك فترة طويلة؟ أليس هذا خطيرًا؟»... هكذا رحتَ تتساءل عندما عرفت ما كنت أفعله.

«لست أدري». لعلّه كان خطيرًا؛ لكنّي ما كنت مبالية بذلك. ما أردت منها شيئًا غير أن تعود إلى نومها.

استمرّ هذا شهورًا فهدّني هدًّا. كنت أستيقظ في الصباح فأحسّ صداعًا مستقرًّا خلف عينيّ يجعل أفكاري شديدة البطء. صرت أتفادى الحديث مع أشخاص آخرين لخشيتي من أن أقول كلامًا لا معنى له. ازداد نفوري منكما، معًا... راح يتعفّن في داخلي. كرهت سماع صوت

أنفاسك العميقة المنتظمة عندما أعود إلى الفراش؛ بل كنت أحيانًا أجذب الملاءات آملة أن أوقظك وأجعلك تخرج من ذلك المكان الهانئ الذي كنتُ في غاية الشوق إليه.

طرحتُ فكرة إرسال فيوليت إلى حضانة أطفال نهارية بضعة أيام في الأسبوع. قلت لي في وقت سابق، قبل أن تولد فيوليت، إنك لا تحبّ فكرة حضانة الأطفال. لقد ربّت أمك طفليها في البيت إلى أن أتما الخامسة وذهبا إلى المدرسة. أردت الأمر نفسه من أجل طفلتنا. وافقتك آنذاك... كنت عمياء، فوافقت من كل قلبي. أردت أن أفعل ما تعتقد أن أية أم ممتازة تفعله.

لكن هذا كان من قبل.

عثرت على مكان لا يبعد عن بيتنا أكثر من ثلاث مجمّعات سكنيّة. كان لديهم مكان شاغر من أجل فصل الخريف. سمعت أشخاصًا يتحدثون عن تلك الحضانة بحماسة وإعجاب كبيرين. كانت فيها كاميرا تسمح للأهل برؤية أطفالهم عن بُعد. الحقيقة أنني كثيرًا ما كنت أشعر بالحزن على الأطفال الذين في الحضانات النهارية عندما أراهم مصطفّين في عربات الأطفال الطويلة مثلما تكون البيضات مصطفة في علبتها، ومن خلفهم، عاملون متعَبون منخفضو الأجور يدفعون العربات في الشوارع من أجل أولئك الأطفال. لكني وجدت دراسات عن الأطفال الصغار في الحضانات النهارية: إنهم أفضل من الناحية الاجتماعية، وأقوى تحفيزًا، وأسرع تطوّرًا، إلخ، إلخ. كثيرًا ما كنت أرسل تلك المقالات إليك. وعلى العشاء، كنت أتابع الأمر -من غير إلحاح- بطريقة أظهر من خلالها النزاع الداخلي الذي أردت أن يكون عندي: لعل فيوليت الآن في حاجة إلى مزيد من التحفيز! لعلّ الوقت صار مناسبًا لذلك! لكن من الممكن أن يكون بقاؤها في البيت أفضل لها... من أجل القيلولات النهارية، وتلك الأشياء. ما رأيك أنت؟ كنت أطرح هذا السؤال متظاهرة بأنني قلقة، لكن كلاًّ منا كان عارفًا الإجابة التي أريدها منك.

كنتَ تحاججني وتقول: «انتظري حتى يصير نومها أفضل قبل أن نتّخذ قرارًا. أعرف أنكِ مرهقة الآن. أعرف أن هذا صعب. لكنه سينقضي».

كانت لديك الجرأة على قول هذا وأنت ترتدي ملابسك قبل خروجك إلى العمل، وجهك متألّق، وشعرك محلوق جيدًا. لقد سمعتك تغنّي في الحمّام ذلك الصباح.

كنت بائسة. بدا لي أننا بائستان، هي وأنا. تبدو عليها تعاسة واضحة عندما تكون وحدها معي. ما عادت تريد أن أحملها. ما عادت تريدني على مقربة منها. تكون أكثر الأيام منزعجة غاضبة عندما نكون وحدنا، ولا يفلح شيء في تهدئتها. تصرخ صراخًا شديدًا عندما أرفعها... صراخًا يجعلني أتخيّل الجيران يتجمّدون في أماكنهم عندما يسمعونه. وأما عندما نكون في الخارج، في متجر البقالة، أو في الحديقة، فإن بقية الأمهات تسألنني بنبرة متعاطفة إن كان في مقدورهن فعل شيء لمساعدتي. كان هذا مهينًا لي... تشفق الأمهات عليّ لأنني ولدت طفلة مثل فيوليت، أو لأنني أم تبدو أضعف كثيرًا من أن تعرف كيف تتعامل مع طفلتها.

ازدادت فترات بقائنا في البيت مع أنني صرت أكذب عليك عندما تعود من عملك وتطالبني بالتقرير اليومي... عندما تجلس فيوليت في حضنك مشتاقة إليك. عندما تكون محبوسة في البيت، تتجوّل في كل مكان مثلما يتجوّل عقرب، وتبحث عن أشياء تضعها في فمها... قبضات من تراب أصص النباتات، والمفاتيح التي في حقيبتي، بل حتى حشوات الوسائد التي أفلحت في انتزاعها من أحشائها. تكاد تختنق أحيانًا بما تضعه في فمها، ويزرقّ وجهها. وعندما أنظّف فمها، تنتفض مثل سمكة أُخرجت من الماء، ثم تهمد كلّها كأنها ماتت. يتوقّف قلبي. تصير عيناها مجنونتين، ثم ينطلق صراخها من مكان عميق فيها، صراخ ثائر يجعل الدموع تحرق عينيّ.

هذه هي ابنتي... إنها ابنتي... فيا لخيبة أملي!

كنت مدركة أن قسمًا من سلوكها يمكن تصنيفه ضمن فئة السلوك الطبيعي المعتاد. قللت من أهمية الأمر معتبرةً إياه مرحلة فحسب، نوعًا من أنواع غرابة سلوك الأطفال الصغار، أو عرضًا من أعراض قفزة في نموها. حاولت إقناع نفسي بأن هذا كلام معقول. لكنّها كانت مفتقرة إلى تلك الحلاوة التي تكون لدى الأطفال في سنّها. نادرًا ما تبدي أية عاطفة. وما كانت تبدو سعيدة... ما عادت سعيدة. كنت أرى فيها حدّة يبدو لي أحيانًا أنها مؤلمة لها. كنت قادرة على رؤية هذا في ملامح وجهها.

كنا نتبادل المزاح عن حياة الأطفال الصغار عندما نتحدّث مع أشخاص آخرين لديهم أطفال... نفعل مثلما يفعل بقية الآباء والأمهات إذ نقول لهم ما يطمئنهم. كنا نتبادل كلمات المواساة مع الجالسين إلى طاولة قريبة منا، عندما نذهب لتناول وجبات عشاء مبكرة في مطاعم، لديها مقاعد أطفال مرتفعة دبقة. كنت أحاول إظهار سوء حالها أقل مما هو عليه، عارفة أنك تريد مني أن أفعل ذلك. وكنت أوافق، كما هو منتظر مني، على أن اللحظات الفاصلة بين فترات الجنون والفوضى كافية لأن تكون استراحة. لكن فيوليت كانت إعصارًا. صرت في خوف متزايد منها.

كم كنت توّاقة أن أحظى بمزيد من الوقت لنفسي. كنت في حاجة إلى استراحة منها. بدت لي هذه الأمور مطالب محقة؛ لكنك كنت تجعلني أشعر بأنني لا أزال في حاجة إلى إثبات نفسي أمامك. كانت الشكوك الباقية لديك ثقيلة، مع أنها صامتة، حتى صار صدري يضيق كلما اقتربت منك، أحيانًا. ما كنت قادرة على الكتابة إلا عندما تنام؛ لكن إغفاءاتها كانت قصيرة دائمًا. وهكذا عدنا إلى عادتنا القديمة مع أنني وعدت نفسي بألا أفعل ذلك بها مجدّدًا. كنت أترك ذلك يحدث بضع مرات في الأسبوع؛ لكنّي أحرص دائمًا على محاولة تعويضها عنه بقطعة حلوى خلال نزهتنا بعد الظهر، أو بحمام لطيف يستمر زمنًا طويلًا.

كنت أدرك أنها أيام ستنقضي: سرعان ما تصير ابنتي قادرة على الكلام وعلى إخبارك بما جرى لها في يومها. سأفقد عندها هذه السلطة عليها، هذه السلطة التي أمارسها على نحو مخجل. لعل هذا كان جزءًا من مبرّراتي. كان سلوكي مرَضيًا. لكني ما كنت قادرة عن الكفّ عن معاقبتها لأنها موجودة. ما أسهل أن أضع السماعتين في أذني وأتظاهر بأنها غير موجودة!

يوم من الأيام كان ذات صعوبة خاصّة. يثور غضبها كلّما اقتربت منها. فترفس وتضرب بيديها. ضربت رأسها بالجدار، ثم نظرت إليَّ لترى ردّة فعلي. ثم كرّرت ذلك مرة أخرى. لم تأكل طيلة اليوم. كنت أدرك أنها تموت جوعًا، لكنها لا تريد أن تسمح للطعام بأن يدخل فمها لأنني من يقدّمه إليها. نامت، فبكيت طيلة فترة نومها ورحت أبحث في الإنترنت عن العلامات المبكرة الدالة على اضطرابات سلوكية، ثم أحذف تاريخ التصفّح من الجهاز. ما أردتك أن ترى هذا؛ وما أردت أن أكون أمًا عندها ابنة مثل ابنتي. لم تستسلم إلا قبل دقائق من وصولك إلى البيت كأنها سمعت صوت خطواتك قادمًا من جهة المصعد. حملتها على ردفيّ عندما نظّفت غرفة المعيشة. كانت صامتة؛ وكانت متيبّسة. كانت رائحتها غير لطيفة. ملابس نومها خشنة على ذراعي... اخشوشن قطنها لكثرة غسله.

ناولتك إياها قبل أن تخلع عنك سترة المكتب الأنيقة. شرحت لك سبب الكدمة الحمراء على رأسها. ما كنت مبالية برأيك، صدقتني أم لم تصدّقني.

حاولت أن تضحك حتى تزيح عنك شكوكك وأنت تدغدغها على السجّادة.

«حبيبي، هل هي سيئة إلى هذا الحدّ؟ ظننت أن الأمور في تحسّن».
ألقيت بنفسي على الأريكة وقلت،: «لست أدري. لكنّي متعبة جدًا».

لم أستطع أن أقول لك الحقيقة: أظن أن لدى ابنتنا مشكلة. كنت تظن بأن المشكلة عندي أنا.

«خذيها». حملتها ومددتها في اتجاهي. كانت تمضغ قطعة الجبن التي أعطيتها إياها... «إنها هادئة الآن. هي بخير. احتضنيها فقط. أظهري لها حبّك».

«يا فوكس، الأمر لا علاقة له بالحبّ، ولا علاقة له بالعاطفة. أحاول فعل هذا طيلة الوقت».

«احتضنيها فقط».

وضعتها في حضني وانتظرت أن تحاول دفعي بعيدًا عنها، لكنها جلست راضية تمصّ قطعة الجبن التي صارت رخوة. نظرنا إليك معًا وأنت تخرج أوراقك من حقيبتك. قالت لك: «دادا، بابا». ناولتها زجاجة الرضاعة التي كانت على الطاولة الصغيرة. أخذَتها واندسَّت في حضني من جديد.

قلت بصوت منخفض محاذرة إزعاجها: «لا أظنّك تفهم». كان ثقلها في حضني مريحًا، مطمئنًا، فبدأت أهدأ. أحسست مثلما يحسّ شخص كان ضائعًا في البحر ثم رأى بشرًا من جديد. مررت بإصبعي على جبهتها وأزحت خصلة من شعرها. تركتْني أقبلها. أبعدت الزجاجة عن فمها، وتنهّدت – كانت كل منا مرهقة بعد ذلك القتال بيننا طيلة النهار.

تكلّمت بهدوء مثلي وأنت تنظر إلينا نظرة متمعنة: «هل تنامين عندما تنام؟».

أجبته بحدة: «لا أستطيع النوم». فارقني هدوئي. تململت فيوليت مبتعدة عني... «هناك الكثير جدًا مما ينبغي أن أقوم به. الغسيل. أحاول الكتابة. عقلي كأنه في دوار».

ألقيتُ بالزجاجة على الطاولة الصغيرة فانبعثت منها رشقة حليب تناثرت على الصفحات التي طبعتها. كنت أفكر في أن أريك إياها تلك

الليلة. مرَّ زمن طويل منذ آخر مرة سألتني عما أعمل عليه. راقبت قطرات الحليب تتالى نازلة من حلمة الزجاجة على جُمَلي فتحيلها بقعًا من حبر.

بدلت ملابسك، ثم عدت وجلست على الأريكة إلى جانبي. ربتت بكفك على فخذي. مرّ زمن كنت أسألك فيه عن مجريات يومك. كان أسى التباعد الذي ازداد بيننا من جديد خلال الشهور الماضية شيئًا لم نتحدّث فيه أبدًا. كنت مستعدة لتركه يتخمّر في زاوية قصيّة في داخلي؛ والظاهر أنك كنت مستعدًا لهذا أيضًا.

أشرت إلى الصفحات المبللة وقلت لي: «ما هذا؟».

«لا شيء».

«احجزي ذلك المكان الشاغر في حضانة الأطفال، إن أردتِ ذلك. ولكن، ثلاثة أيام في الأسبوع، لا أكثر. هل اتفقنا؟ ليست لدينا موازنة من أجل هذا».

دعكت جبهتك بيدك.

بذلت قصارى جهدي طيلة ما بقي من ذلك الأسبوع. لكننا عدنا إلى مشاجراتنا اليومية. بدأت الذهاب إلى حضانة الأطفال في اليوم الذي أعقب ذلك، ولا أزال أتذكّر ذلك الإحساس العارم بالراحة الذي غمرني عندما وضعتها على سجّادة المدخل. ظلّت تنظر إلى حذائها الشتوي الأصفر إلى أن أتت المعلّمة وأمسكت بيدها. لم تنظر إليّ عندما ودّعتها، ولم ألتفت عندما سرت مبتعدة عبر المرج الرطب وخرجت من البوابة.

- 23 -

أهدت أمك فيوليت دميتها الأولى.

قالت وهي تُخرِج من الكيس سمكة طازجة اشترتها من السوق، وتشير إلى فيوليت وإلى الأرض: «تبدأ غريزة الأمومة في سن مبكرة».

وضعت فيوليت دميتها ذات الرأس البلاستيكية تحت ذراعها ولم تتركها بعد ذلك. بيبيي... هكذا كانت فيوليت تغنّي مرّة بعد مرّة، وتغرس إصبعها في عينيّ الدمية المرفرفتين، اللتين كانت لهما أهداب أكثر كثافة من أهداب عينيّ. كانت للدمية رائحة اصطناعية تشبه رائحة الأطفال؛ وكانت مرتدية بيجاما وردية اللون.

جلست أشرب نبيذي وأنظر إلى أمك التي تحضّر طعام العشاء. أصرّت على طهو سمكة السلمون بنفسها، مستخدمة كمية وافرة من الصلصة مع أنني عرضت عليها أن أطلب طعامًا جاهزًا. أتت فيوليت إليّ حاملة دميتها فوضعتها في حضني. «ماما. بيبي».

«نعم، يا حبيبتي. إنها جميلة». وضعت الدمية على ذراعي ورحت أهزّها هزًّا لطيفًا، وكانت فيوليت تنظر إليّ. «دورك الآن».

وقفتْ على أطرافِ أصابعها، ووضعت فمها المفتوح عريضًا على رأس الدمية الأصلع. لم أرها من قبل تتصرّف بهذه العاطفة، إلا معكَ أنت. لكنّي ما كنت راغبة في إرضاء أمّك بأن أقول هذا أمامها.

«طفلة ذكية. قبلات».

ملأت رائحة السمكة شقتنا. كان أبوك قد أخذك إلى مباراة هوكي. سوف يظلان في المدينة ثلاث ليال. في فندق. مشكلة المكان... هكذا

قلت في ما مضى مع أننا اشترينا أريكة تنفتح فتصير سريرًا، اشتريناها من أجلهما عندما انتقلنا إلى هذه الشقة. لا أزال متعبة جدًّا مع أن نوم فيوليت صار أفضل من ذي قبل. وأيضًا، ما كان لديّ أعصاب تتحمّل بقاء أمّك في بيتنا طيلة الوقت. كانت مشاعري نحوها معقّدة: توق شديد إلى تلقّي مساعدتها، إلى تلقّي مساعدة أي شخص، مع مقت لقدراتها... فكم جعلت كل شيء يبدو لك سهلًا طيلة حياتك!

«كيف حال ابنتنا الحلوة في روضة الأطفال؟».

«أظنها مسرورة فيها. الظاهر أنها تحب المعلّمات حبًّا حقيقيًّا. تعلّمت الكثير في أسابيع قليلة فقط».

أعادت أمّك ملء كأسي، ثم انحنت وقبلت فيوليت.

سألتني: «وماذا عنك؟».

«أنا؟».

«هل تستمتعين بوقت الفراغ الذي صار لديك؟».

لقد أمضت قرابة عشرين سنةً تعتني بك وبشقيقتك في البيت. تخبز الفطائر. تدير «جمعية الأمهات المعلّمات». لقد خاطت بنفسها كل وسادة وستارة ومنديل طعام وستارة حمام. نظرت إلى خصلات شعرها الشقراء تتأرجح وهي تطهو الطعام. الطول نفسه، والطيّات نفسها، التي رأيتها في كل صورة عائلية معلّقة ضمن إطار مذهّب في ممر بيت طفولتك.

«صرت أكتب أكثر وأتابع الأمور من حولنا».

«لا بد أنك تحصين الساعات منتظرة موعد إعادتها إلى البيت. هذا ما كنت أفعله دائمًا عندما صار طفلاي في المدرسة. تكونين راغبة في شيء من الهدوء والراحة، لكنّكِ تمضين نهارك كلّه بالتفكير بالأطفال».

ابتسمت لنفسها وهي تقطّع الشبت... «يبدو فوكس مستمتعًا معها. كنت موقنة دائمًا أنه سيكون أبًا رائعًا، حتى منذ أن كان صغيرًا».

ضربت فيوليت المدفأة بملعقة، وكانت قدم الدمية في يدها الأخرى.

«إنه رائع. إنه... أبٌ مثاليٌّ». هذا ما أرادت أمك سماعه مني. وعلى نحو ما، كان هذا صحيحًا.

ابتسمت لنفسها، ثم التقطت ليمونة ونظرت لحظة إلى فيوليت التي كانت تلعب قبل أن تبدأ ببرش قشرة الليمونة. انحنيت حتى أحمل فيوليت وآخذها إلى الحمام. أجفلت عندما أحست لمستي فعرفتُ أنني أزعجتها - تشنّجت تلك العقدة الموجودة دائمًا في داخلي. بدأت تبكي وألقت بنفسها على بلاط الأرض.

«هيا يا حبيبتي. جاء وقت الاستحمام». لم أرد أن أتعارك معها أمام أمك. حملتها وهي ترفس بقدميها وتطلق زعيقها، فأخذتها إلى الحمام. أغلقت الباب، وفتحت الماء. دقّت أمك الباب بعد بضع دقائق، وقالت بصوت مرتفع حتى أسمعها عبر بكاء فيوليت.

«هل تريدين المساعدة؟».

«إنها منزعجة، يا هيلين، هذا كل ما في الأمر، فهي مرهقة».

لكن هيلين دخلت الحمام. كنت في ذلك الوقت قد صرْت مبتلة بالماء، وكادت فيوليت تصير قرمزية اللون لشدة غضبها. أزلت الصابون عن شعرها ممسكة إياها بإحكام من تحت إبطها. وعندما رفعتها، كانت شبه عاجزة عن التنفس لشدة صراخها. وقفت أمك تنظر إلينا، ثم ناولتني المنشفة.

«هل أستطيع حملها؟».

«ستكون بخير». قلت لها هذا وقد أمسكت فيوليت بقوة حتى أثبتها. لكن أسنانها انغرست في خدي حتى قبل أن أستطيع إبعاد وجهي عنها. لقد عضتني. صرخت من بين أسناني المطبقة، وحاولت إبعاد رأسها عني، لكن ضغط فكيها كان شديدًا. شهقت أمك وفتحت فم حفيدتها بإصبعها. أخذت فيوليت مني ولم تقل إلا: «يا إلهي».

نظرت إلى أثر العضة في المرآة، وفتحت صنبور الماء البارد. ضغطت على جلدي بقطعة قماش رطبة.

شعرت بالإذلال. رأيت في المرآة وجه أمك من خلفي. كانت مذعورة.

كفّت فيوليت عن الصراخ. راحت تلتقط أنفاسها وتطلق أصوات بكاء خافتة بين ذراعي أمك، وتنظر إليها ملتمسة عونها كأنها كانت تدافع عن نفسها ضد شخص يعذّبها.

قلت من غير أن أخاطب أحدًا: «أنا آسفة».

«ما رأيك في أن تذهبي وتخرجي السمكة من الفرن، وسوف أُلبسها بيجامتها».

«لا، لا بأس». أخذتها من أمّك. كنت محرَجة، وكنت مصممة، لكن فيوليت زعقت من جديد، وطوّحت برأسها إلى الخلف. احمرّ وجه أمّك احمرارًا شديدًا. أعدت فيوليت إليها، واستدرت في اتجاه المغسلة. سارت في الممر صوب غرفة فيوليت هامسة في أذنها بشيء مثلما تفعل أنت، دائمًا. وأما أنا فبكيت. غطى الماء المندفع من الصنبور على صوت بكائي.

«أشكرك على هذا العشاء، يا هلين. كان لذيذًا».

«هذا أقل ما أفعله».

«هذا أقل ما أفعله».

«يؤسفني ما حدث. كان مشهدًا غير سارٍّ».

«حبيبتي، لا تقلقي». رفعت كأس النبيذ، لكنها لم تشرب... «أنا واثقة أنها متعبة، لا أكثر. أتظنّين أنها تنال كفايتها من النوم؟».

«لعلها لا تنال كفايتها». كان نومها قليلًا بالفعل. وكانت كل منا تتظاهر بأن الأمور ليست سيئة بقدر ما هي سيئة فعلًا. كنا نتظاهر بأن

سلوك فيوليت أمر يسهل تفسيره. كان هذا ما يفضل أفراد عائلتك فعله. رحت أعبث ببقية الطعام في طبقي وقلت: «إنها الآن في مرحلة بابا... على ما أظن».

«حسنًا، لا نستطيع لومها...». غمزت لي بعينها، ثم رفعت الأطباق... «كل منكما محظوظة بوجوده معكما».

وماذا عنه؟ أليس محظوظًا أيضًا بأن أكون معه؟ ذهبنا إلى المطبخ، فصبّت لي كأس نبيذ أخرى. بقيت صامتة.

همست لي: «سوف تصير الأمور أكثر سهولة».

أومأت برأسي. عادت دموعي من جديد. شعرت باحمرار وجهي. ظلّت صامتة، وعندما تكلّمت من جديد، كانت قد رقّت كأنها قبِلت فجأة أن الأمور أكثر سوءًا مما تحبّ تصديقه. وضعت يدها على يدي، ونظرت كلتانا إلى تلك الكف التي أمسكتني بقوة.

«انظري... لم يقل أحد أن الأمومة سهلة. خاصّة إذا لم تكن مثلما تتوقّعين، أو إذا لم تكن ما... «شدّت على شفتيها الرقيقتين الوردتين وغرقت في أفكارها. لكنها لم تجرؤ على التطرّق على ذكر أمي... «لكنك تعثرين على سبيل لتجاوز الأمر. هذا ما يحدث مع الجميع. هذا ما عليك فعله».

***

كانت فيوليت أول ما سألت عنه لحظة دخولك البيت. كيف كانت *فتاتي الليلة*؟ كانت ابتسامتك مشرقة. وكان يسرك كثيرًا أن تقضي أمك وقتًا مع ابنتنا.

«كانت جيدة جدًا، معظم الوقت». قبّلت أمك وجنتيك، ثم استدارت لكي تتناول حقيبتها. عانقتني عناقًا طويلًا فأحسستك ثملًا بين ذراعي. فاحت منك رائحة البيرة واللحم المجفّف والبرد. وعندما ابتعدت عنك، سألتني عما أصاب وجهي. مسست الأثر الأحمر في موضع عضة فيوليت فأجفلت.

«إنه لا شيء. علامة من فيوليت». رفعت عينيّ إلى أمّك، فقالت تخاطبك: «صحيح. لقد حردت قليلًا قبل أن تنام. يكون مزاجها صعبًا، بعض الأحيان، تلك الصغيرة». تجهّم وجهك، ثم ذهبت فعلّقت معطفك. نظرت أمّك إليك وابتسمت ابتسامة صغيرة وهي ترفع حاجبيها كأنها توقعت منك قول المزيد. أشحت بوجهي عنها، وكنت شاكرة تضامنها معي. وأيضًا، أخجلني احتياجي الشديد أن تتعاطف معي.

«انتظري، يا حبيبتي». قالت لي هذا بصوت منخفض، ثم خرجت من الغرفة لكي تستقبل أبيك.

- 24 -

تبدأ الذكريات الحيّة من طفولتي منذ سن الرابعة. ليتني ما كنت مضطرّة إلى الاعتماد على هذه الذكريات وحدها. لكن عليّ أن أعتمد عليها. يضع بعض الناس تصوراتهم عن الماضي من خلال صور عتيقة أو قصص تكرّرت ألف مرة على لسان شخص يحبّونه. ما كانت لدي هذه الأشياء. وما كانت لدى أمّي هذه الأشياء. لعلّ هذا كان جزءًا من المشكلة. ما كانت لدينا إلا نسخة واحدة من الحقيقة.

هناك أمر واحد أستطيع تذكّره: البطانة البيضاء في عربتي، والزهرات الصغيرة ذات اللون الأزرق الداكن، وثقب فيه شريطة تزيينية، ووسطَ مقبض العربة المعدني المغلّف بطبقة خشبية. أصابع أمّي فوقي داخل قفاز أصفر فاقع. لا أستطيع رؤية وجهها الناظر إليّ من الأعلى؛ ولا أرى إلا ظلّها الذي يسقط عليّ بين الفينة والفينة عندما تنعطف فتصير الشمس وراءها. أعرف أن الذكريات المبكرة إلى هذا الحد أمر مستحيل. لكنني لا أزال قادرة على شم رائحة الدواء ذي الطعم الحامض، وبودرة الأطفال، ودخان السيجارة؛ وأستطيع سماع أصوات باصات المدينة البطيئة التي تعيد الناس إلى بيوتهم لتناول طعام العشاء.

أحيانًا، ألعب هذه اللعبة في عقلي، وأتخيّل سام.

ما الذي يمكن أن يتذكّره سام؟ قساوة العشب على التلة في المنتزه، أم اللحاف البرتقالي الذي أرقدناه عليه، أو الوجوه الثلاثة التي ظهرت من فوقه فجأة مثلما تنفتح المظلّات؟ لعلّه يتذكّر رائحة فطائر اليقطين التي

تحب فيوليت أن تخبزها. الملعقة الكبيرة ذات المقبض الأحمر التي كانت تناوله إياها دائمًا فيسيل المرق منها؟ لعبة الحمّام ذات المصباح الدوّار، تلك اللعبة التي أردتَ أن ترميها بعيدًا. لعله يتذكّر اللوحة في حضانة الأطفال - صورة الطفل الجميل الذي يستقطب انتباهه كل صباح.

ولكن، هذا ما أظنّه يتذكّره: البلاطات الصغيرة على جدار غرفة تبديل الملابس في مسبح الحي. لست أدري سببًا لهذا، لكنّي أظن أن تلك البلاطات قد صارت جزءًا منه. أضعه كل أسبوع على المقعد الخشبي في زاوية المقصورة وأمسكه بإحدى يدي، في حين أمد يدي الثانية لكي أغلق الباب المتأرجح. يرفع رأسه دائمًا وينظر إلى الجدار بعينين مستطلعتين ويمسّ البلاطات المتوزّعة توزيعًا عشوائيًا كأنها أشياء حيّة: صفراء كالخردل، خضراء كالزمرد، زرقاء داكنة جميلة. زرقاء كزرقة البحر. كانت تلك البلاطات تهدّئه. يطلق أصواتًا خافتةً، وتتّسع عيناه عندما ألبسه حفاض السباحة وألفّ بمنشفة وسطيَ الذي لا يزال ممتلئًا.

كنت أترقّب لحظةَ يرى سام تلك البلاطات، كلّما ذهبنا. كانت هي الأشياء التي تغنّي له في عالمه الصغير.

كثيرًا ما أعود إلى غرفة تبديل الملابس في المسبح. أعود إليها باحثة عنه في هذه البلاطات.

- 25 -

صار شعرها كثيفًا وجميلًا، وصار الناس يتوقّفون لكي يقولوا لنا إن لدينا طفلة صغيرة رائعة. كانت تبتسم لهم ابتسامة خجلى وتشكرهم؛ فأرى، في أقل من ثانية، هذه الشخصيّة الصغيرة المتمدّنة والمميّزة، التي لا يعقل أن تكون قادرة على جرّي من أذنيّ وإيصالي إلى حافة الجنون. صارت تلك اللحظات القاتمة أقلّ تواترًا، وظهرت أجزاء أخرى من شخصيتها. كانت مهووسة بدميتها الصغيرة... تأخذها معها أينما ذهبت. صارت تعرف أسماء ألوانها عندما كان عمرها ستة عشر شهرًا. وكانت تصر على ارتداء جوربين طويلين عليهما صور أشجار عيد الميلاد تحت بنطلونها معظم شهور السنة. تأكل البيض المقليّ في كل وجبة تقريبًا، وتدعوه «الغيوم الصفراء». كانت السناجب الأرضية الكبيرة تثير ذعرها؛ وكانت سناجب الأشجار تسحرها. أحبت تلك المرأة العاملة في متجر الأزهار عند الزاوية، حيث نذهب لشراء وردة صباح كل يوم سبت. وكانت تحب أن تضع الوردة على مقربة من نونيتها حتى تمسكها بيدها عندما تبوّل. تصرّفات صغيرة من غير أي معنى، لكنها كانت معنى العالم كلّه.

ما كانت تمنحني إلا فسحة صغيرة أقنع بها نفسي بأنني قادرة على العودة إلى حالتي الطبيعية. على أية حال، يستمرّ هذا إلى أن يأتي ما يذكّرني من جديد بموضعي في عالمها المنظّم، على الرغم من صغره.

وعندما كانت في الثالثة من عمرها، بعد عودتها من عطلة نهاية أسبوع ذهبنا فيها لحضور زفاف واحد من أصدقائك، دخلتُ غرفتها من غير أن أخلع معطفي.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. أردت أن أشمّها. عندما كنا في الطائرة، انتابني ذعر غير مألوف، ذعر من أن لديها مشكلة، من أنها قد تختنق في نومها فلا تستطيع أمّك سماعها مثلما أستطيع... لعل حسّاسات أول أكسيد الكربون تعطّلت وما عادت تعمل جيّدًا! أو لعل الطائرة تلمس مدرج المطار بطريقة خاطئة فننفجر، أنا وأنت! كنتُ في حاجة إليها. نادرًا ما ينتابني هذا الحنين إليها، خاصة عندما ينبغي أن ينتابني. وأما عندما أشتاق إليها، فأنا أصير غير قادرة على تذكّر كيف يمكن ألّا أريدها. من هي تلك الأم الأخرى؟... تلك الأم التي ألحقت بي هذا العار كلّه؟

وجه طفلة نائمة. رفرفت عيناها فرأتني منحنية فوقها. أطبق جفناها من جديد... خاب رجاؤها. كان حزنها حقيقيًا. انقلبت على ظهرها وجذبت اللحاف الملون حتى ذقنها، ثم نظرت من النافذة المظلمة. انحنيت عليها لكي أقبّلها فأحسست بعضلاتها تتقلّص تحت يدي.

خرجت من الغرفة فرأيتك في الممر. قلت لك إنها نائمة. لكنك دخلت الغرفة فسمعت صوت قبلاتها الرطبة على خدك. قالت لك إن أمّك سمحت لها بمشاهدة فيلم فيه حورية بحر. طلبت منك أن تستلقي إلى جانبها. لقد كانت تنتظرك أنت.

أحسست بأنني لن يكون لي منها أبدًا ما كان لك منها.

كلما أثرت هذا الأمر تقول لي: «هذا كلّه من نسج خيالك. لقد اخترعت هذه القصة عنك وعنها، ثم صرت غير قادرة على انتزاعها من رأسك».

«ينبغي أن تحبني. أنا أمها. ينبغي أن تحتاجني».

«ما من شيء غير طبيعي فيها».

فيها!... ما من شيء غير طبيعي فيها... هكذا كنت تقول.

وفي الصباح، عندما جلسنا نتناول طعام الإفطار، بدأت أمّك تحكي

لنا عن عطلة نهاية الأسبوع الجميلة التي استمتعنا بها معًا. كنت مبتسمًا، فقد عدت وصرت مع ابنتك، وعدت تُجلسها على ركبتك.

بعد ذلك، سمعتك تسأل أمك بصوت منخفض عندما كنا نضع الأطباق في الآلة لغسلها: «هل كان كل شيء على ما يرام؟».

«كانت ملاكًا. حقًّا، لقد كانت ملاكًا».

وضعت يدها على ظهري لحظة كأنها تريد تخفيف الألم الذي أدركَتْ أنني أحسسته، «أظنها اشتاقت إليكما معًا».

- 26 -

عندما كنت في الصف الثالث، أنفق تلاميذ الصف جميعًا أسبوعًا كاملًا في صنع أزهار من أجل أمهاتنا: أزرار نلصقها داخل فناجين المافن الورقية الصفراء والوردية، وأسلاك مجدولة لصنع سوق الأزهار. نلصق ذلك كله على ورق ثخين، ونستخدم أفضل ما لدينا من مهارات في الكتابة حتى ننسخ القصيدة المكتوبة على اللوح: *الورود حمراء، والبنفسجات زرقاء، وأنت أفضل أم في العالم، وأنا أحبك!* كنت آخر من انتهى من إنجاز ذلك العمل. لا أذكر أنني صنعت لها شيئًا قبل ذلك، ولا بعد ذلك. أخذت المعلمة ما صنعته وهمست لي: «هذا شيء جميل، يا بلايذ. سوف يعجب أمّك كثيرًا».

أرسلتنا المعلّمة إلى بيوتنا، وأرسلت مع كل واحد منا دعوة إلى حفلة شاي في صفنا. ألقيت بتلك الدعوة في حاوية القمامة عندما خرجت من المدرسة ذلك اليوم... ما كنت أريد أن أدعو أمي. أو، على نحو أكثر تحديدًا، لم أرد دعوتها إذا كانت كانت لا تريد الذهاب. كنت في التاسعة، لكنّي صرت أعرف كيف أتدبر خيبات أملي. وفي صبيحة يوم الحفلة، جلست في المطبخ وحدي أتناول طعام الإفطار في حين كانت أمي نائمة كعادتها. أعدت استذكار ما سوف أقوله لكل شخص عندما أذهب إلى المدرسة: أمي مريضة. لديها تسمّم غذائي. لا تستطيع حضور حفلة الشاي.

بعد ظهر ذلك اليوم، استخدمنا أزهارًا ورقية لتزيين غرفة الصف قبل أن تصل الأمهات. كنت واقفة على الكرسي، أحمل أداة التثبيت في

يدي، أمد يدي إلى اللوحة المعلّقة، عندما سمعت صوتها: «هل وصلت أبكر مما ينبغي؟».

كدت أسقط عن الكرسي. هذه أمي. حيّتها المعلمة تحيّة لطيفة، وقالت لها ألّا تهتم بذلك... إنها أول الواصلين. أسعدتها رؤية أن كلامها كان مريحًا لأمي. لم يظهر على أمي ما يوافق كذبتي، لكنها بدت متوتّرة. لوَّحت بيدها سريعًا من عند الباب، كانت ترتدي شيئًا لم أرها عليها من قبل. بدلة أنيقة بلون الدرّاقن، وقرطان لؤلؤيان لا يمكن أن يكونا من اللؤلؤ الحقيقي. لم أعتد رؤيتها تبدو ناعمة إلى هذا الحدّ، أنثوية إلى هذا الحدِّ. راح قلبي يقفز في صدري. لقد أتت. اكتشفَت الأمر بطريقة من الطرق، وأتت.

طلبت مني أن أريها صفَّنا أثناء انتظارنا بدء الحفلة. أشرت إلى «محطة الأرصاد الجوية» وإلى طاولة الأشغال، وإلى جداول الضرب المعلّقة على الجدار. ضحكت عندما شرحت لها كيف ينجز المرء عمليات الضرب، محاولةً أن يكون شرحي في غاية البساطة، وكأنها لم تر أرقامًا في حياتها كلّها. ومع توافد بقية الأمهات، وجري أطفالهنّ إليهنّ، كانت أمّي تنظر إلى كل واحدة من الأمهات نظرة فاحصة... ملابسها، وشعرها، والحلي التي وضعتها. شعرتُ حينها، أن أمي مهتمة كثيرًا بنظرة الآخرين إليها، فكانت تلك صدمة لي... لم يبد لي من قبل أبدًا أنها تقيم أي اعتبار لما تظنّه بقية الأمهات. ما كان يبدو عليها أبدًا أنها تقيم اعتبارًا لما يظنّه أي شخص.

وبعد ذلك، ظهرت السيدة إنلغتون عند الباب فناداها توماس. كان يرتّب فناجين الشاي والأطباق التي أتت بها المعلّمة من البيت، لوّحت السيدة إنلغتون بيدها لابنها، لكنها اتّجهت أول الأمر إلى حيث كنت واقفة مع أمي في الناحية الأخرى من الغرفة. مدّت يدها للسلام على أمي.

«سيسيليا، ما ألطف أن أراكِ من جديد! وما ألطف هذا اللون عليك!».

صافحتها أمي، فمالت السيدة إلنغتون صوبها ومسّتها على خدّها مثلما كنت أراه يحدث كثيرًا بين النساء، لكن ليس مع أمي. تساءلت في سرّي عن رأي السيدة إلنغتون في رائحتها.

ابتسمت أمي وقالت لها: «وأنت أيضًا. شكرًا لك... على هذا»؛ أشارت بذقنها صوب الغرفة الممتلئة طاولات صغيرة عليها مفارش جميلة وأطباق فيها كعكات صغيرة. لوّحت السيدة إلنغتون بيدها كأنها تريد أن تقول إن هذا لا شيء... كأن كلًّا منهما تعجب الأخرى. لم يحدث من قبل أن سمعت حديثًا بينهما طال بهذا القدر.

همست لي إحدى البنات: «أمك جميلة جدًا، يا بلايذ». وقالت أخرى: «يبدو شكلها كأنها ممثّلة». نظرت إلى أمي من جديد ورحت أتخيّل ما ترينه فيها من غير أن يكون مثقَلًا بكل ما أعرفه عنها. أدركت من نقرات قدمها على الأرض أنها تودّ أن تدخن. وعجبت من أين أتت بهذه الملابس... هل كانت في خزانتها؟ أم إنها اشترتها من أجل هذا اليوم؟ نظرت إلى رفيقاتي المحدّقات بها وهنّ جالسات إلى جانب أمهاتهنّ اللواتي كان مظهرهنّ عاديًا. ولأول مرة في حياتي كلّها، كنت معتزة بأمّي. بدت متميّزة. لقد بذلت جهدها... من أجلي!

قدّمت المعلمة إلى الأمهات الزهرات التي صنعناها من أجلهنّ، فأثنت الأمهات على عملنا. قدمت وردتي إلى أمّي فقرأت القصيدة بصوت منخفض جدًّا. لم يحدث من قبل أن قلت لها كلمات مثل هذه. كنت مدركة، وكانت مدركة، أنها ليست أمًّا مثالية. كانت كل منا مدركة أنها بعيدة عن ذلك كل البعد.

«هل أعجبتك؟».

«أعجبتني. شكرًا لك».

أدارت وجهها ووضعت الزهرة على الطاولة. «أريد قليلًا من الماء. بلايذ، هل تسكبين لي ماء؟».

لكني أردتها أن تشعر أنها أم جيدة. أردتها أن تشعر أنها أم جيدة أكثر مما كانت في حقيقة الأمر. أمسكت بالقصيدة من جديد وقرأتها لها بصوت مرتفع، بصوت جعله ضجيج الغرفة مترجرجًا.

«الوردات حمراء، والبنفسجات زرقاء، وأنت أفضل أم في العالم...». توقفت لحظة وابتلعت ريقي... «وأنا أحبك».

لم ترفع عينيها عن القصيدة. أخذتها من يدي مجدّدًا.

«لا تزال لدينا خمس دقائق، يا أطفال».

«أراك في البيت، اتفقنا؟». مسّت أعلى رأسي بيدها، وحملت محفظتها، ثم انصرفت. رأيت عيني السيدة إلنغتون تتابعانها إلى أن خرجت من الباب.

عندما عدت إلى البيت، وجدت أن أمّي قد أعدّت فطيرة الراعي من أجل العشاء؛ وكانت لا تزال ترتدي البدلة نفسها. جر أبي الكرسي وجلس معلنًا أنه جائع جدًا.

«إذًا... أخبريني كل شيء عن حفلة شاي عيد الأم».

وضعت أمي البطاطا المهروسة في طبقه، لكنها لم تقل أية كلمة. التفت إلي ورفع حاجبيه، قال لي: «كيف كانت الحفلة يا بلايذ؟».

«كانت جيّدة». شربت جرعة من كأس الحليب. أخرجت أمي طبق الطعام الحار من الفرن ووضعته على الطاولة، ثم وضعت إلى جواره ملعقة.

«يا إلهي، الخشب». قفز أبي واقفًا لكي يتناول منشفة المطبخ، ثم أحرق أصابعه عندما أمسك بحافة طبق الفرن الحار لكي يضع المنشفة تحته. ألقى نظرة سريعة في اتجاه أمي، لكنّها لم تأت بما يشير إلى أنها لاحظت شيئًا.

«صنعت لأمي أزهارًا من الورق».

«ما ألطف هذا، يا سيسيليا، أين هي؟». وضع لقمة بطاطس في فمه ثم نظر إليها... «دعيني أراها».

كانت أمي واقفة عند المجلى. التفتت إليه وقالت، «ما هي؟».

«الأزهار التي صنعتها من أجل عيد الأم».

هزّت أمي رأسها حائرة... كأنني لم أقدّم إليها شيئًا، «لست أدري. لا أعرف أين وضعتها».

«لا بد أن تكون في مكان ما، انظري في حقيبة يدك».

«لا أدري أين هي». نظرت إليّ، ثم هزّت رأسها من جديد وقالت: «لا أعرف ما حدث لها».

أشعلت سيجارة واستدارت صوب الصنبور لكي تغسل الأطباق. لم تأكل معنا، لم أرها تأكل أبدًا.

غار قلبي. كان ذلك كثيرًا جدًّا... ما قالته كان كثيرًا جدًّا.

«لا تهتم بالأمر، يا بابا».

«لا. لا. إذا كنت قد صنعت لأمك شيئًا جميلًا، فسوف نعثر عليه. سوف نعلّقه على البراد».

«ماذا بك؟».

«اذهبي يا سيسيليا واعثري عليها».

قذفت وجهه بمنشفة الأطباق. جعلني صوت اصطدامها به أقفز من مكاني، فسقطت شوكتي على الأرض. ظلّ أبي جالسًا، وظلّت قطعة القماش الرطبة متدلية منه. كانت عيناه مغمضَتَيْن. وضع سكينه وشوكته على الطاولة، وشد على قبضتيه حتى صارت مفاصل أصابعه بلون البطاطس المهروسة في طبقه. وددت أن يصرخ بذلك القدر نفسه من الحنق الذي كان يغلي داخل أمي من غير انقطاع. كان هادئًا فتساءلت إن كان لا يزال يتنفّس.

«لقد ذهبتُ. ألم أذهب؟ ذهبت إلى حفلة الشاي الملعونة تلك! كنت

هناك. جلست إلى الطاولة الصغيرة، ولعبت معهم. ماذا تريد مني أكثر من هذا؟».

أمسكت بسيجارتها وخرجت إلى الشرفة. أبعد أبي المنشفة عن وجهه، ثم طواها ووضعها على الطاولة. التقط شوكته ونظر إلي.

قال: «كلي».

- 27 -

في الربيع، بعد أن صارت فيوليت في الرابعة من عمرها، استدعتنا معلّمتها في المدرسة إلى اجتماع هناك يوم الجمعة. «لا أهمية كبيرة للأمر، لكن علينا أن نتكلّم». قالت هذا في الهاتف مشدّدة على كلمة «كبيرة».

كنت في شك من الأمر، منذ البداية، مع أنني كنت مدركة أن لديك توترًا مما قد تقوله المعلّمة لنا. *ماذا؟ ألا تريد إعارة زملائها أنبوب الصمغ؟* جلسنا على مقاعد صغيرة. كانت ركبتاك تكادان تمسّان ذقنك. قدّمت إلينا المعلمة ماء في كؤوس وردية اللون. كان في الماء طعم صابون غسل الأطباق.

يعرف كل إنسان أن عليه أن يفتتح حديثه بأخبار حسنة.

«فيوليت طفلة ذكية إلى حد استثنائي. إنها أكبر من سنها من نواحٍ كثيرة. وهي شديدة... الفطنة».

ولكن، وقعت عدة حوادث جعلت زملاءها وزميلاتها في الصف غير مسرورين منها. كان المثال الذي قدّمته إلينا المعلّمة صبيًا يخاف أن يجلس إلى جانبها لأنها تقبض على أصابعه أحيانًا وتلويها إلى أن يبكي. قالت فتاة إن فيوليت طعنت فخذها بقلم الرصاص. وفي ذلك الصباح، أثناء الاستراحة، قال أحدهم إن فيوليت أنزلت بنطلونه ووضعت حفنات حصى في سرواله الداخلي. احمرّ وجهي، فوضعت كفي على رقبتي لأنني كنت واثقة من أن الاحمرار بدأ يظهر عليها أيضًا. أحرجني أننا أنشأنا مخلوقًا بشريًا يمكن أن يقدم على تصرّفات من هذا القبيل. نظرت

من النافذة إلى ساحة اللعب التي كانت أرضها مفروشة بحصى صغيرة مغبرّة. فكرت في المظاهر العدوانية التي بدت عليها عندما كانت أصغر سنًا، وفكّرت في قلة ما لديها الآن من طيبة. كان سهلًا عليَّ أن أتخيّلها تفعل هذه الأشياء كلّها.

أجابتك المعلمة بصوت متردّد عندما سألتها: «نعم، تعتذر عندما أطلب منها أن تعتذر. إنها ذكيّة. تعرف أن مسلكها مؤذٍ. لكن الظاهر أن هذا لا يردعها مثلما قد يتوقّع المرء. أظن بأن علينا في هذه المرحلة أن نجعلها تبدأ رؤية عواقب أفعالها».

وافقنا على خطّتها وشكرناها على ذلك اللقاء.

قلت لي: «انظري... ليس هذا أمرًا حسنًا، لكن كل طفل يمر بهذا النوع من الأشياء. إنهم يختبرون حدودهم. لعلّها تشعر بالضجر هناك. ألم تري تلك الفضلات البلاستيكية المتناثرة في المكان. تبدو غرفة الصف كأنها غرفة للأطفال الرضّع. ذكّريني، كم ندفع لهم لقاء هذا؟».

نظرت إلى الفقاعات المتراقصة عند حافة كأسك. لقد ذهبنا لكي نتناول شرابًا. أنا من اقترح هذا. ظننت أنه قد يلغي شيئًا من التوتّر الذي بيننا.

قلت كأنك تناقش نفسك: «سوف نتحدّث معها. من الواضح أن هناك ما يستفزّها ويجعلها تتصرف بهذه الطريقة».

أومأت برأسي. ما كان لردة فعلك أي معنى في نظري. أنت شخص منطقي في كل شيء. وأما عندما يتّصل الأمر بابنتنا، فإنك تفقد كل ما لديك من اعتدال. أنت تدافع عنها دفاعًا أعمى.

«ألن تقولي شيئًا؟»... كنت غاضبًا.

«أنا... أزعجني هذا. خيّب أملي. ثم، أجل، سوف نكلّمها...».

«ولكن؟».

«لكني لا أستطيع القول إن هذا كان مفاجأة لي».

هززت رأسك كأنك تقول، ها قد بدأت!

«تكون تصرفات الأطفال الذين في سنّها أشياء من قبيل العض أو الضرب أو القول للآخر، *لن أدعوك إلى عيد ميلادي بعد اليوم!* لكن ما تفعله ابنتنا يبدو... يبدو قاسيًا. يبدو كأنه شيء محسوب». دفنت وجهي بين كفيّ.

«يا بلايذ... إنها في الرابعة فقط. وهي غير قادرة حتى على أن تربط شريط حذائها».

«انظر. إنني أحبّها، لكنني لا أقول إلا...».

«هل تحبّينها حقًا؟».

أظنّك استمتعت كثيرًا بقول هذا. كانت تلك أول مرة تقوله بصوت مرتفع، لكنني أعرف أنك كنت تفكر فيه منذ سنين. حدّقتَ في طاولة البار التي انتشرت عليها بقع دائرية.

«أنا أحبها، يا فوكس. المشكلة ليست عندي». تذكّرت كم كانت المعلّمة حذرة في انتقاء كلماتها.

عدت إلى البيت وحدي، وأعطيت جليسة الأطفال مالًا من أجل سيارة التاكسي. كانت فيوليت غارقة في نوم عميقٍ. اندسست في فراشها العريض، وغطيت ساقيّ باللحاف، وحبست أنفاسي عندما تحرّكت. لا تحب أن أكون في سريرها، لكنّي كثيرًا ما أجد نفسي فيه. كنت أحاول العثور على شيء في سكونها. لا أدري ما هو. لعل تلك الرائحة البدائية الحلوة المنبعثة منها في نومها كانت تذكّرني بالمكان الذي أتت منه. ما كانت من غير عيوب؛ وما كانت سهلة؛ لكنها ابنتي، ولعلها تستحقّ مني المزيد.

ولكن... كنت راقدة في الظلام إلى جوارها فشعرت بشيءٍ من التبرئة لنفسي عندما فكّرت في اجتماعنا مع المعلّمة. كنت أعيش شكًا مخيفًا لا يهدأ في ابنتي، وكان لدي إحساس بأنه لا بد أن يكون هناك شخصٌ آخرُ أيضًا يرى ما أراه.

في وقت من الأوقات خلال الأسابيع التي أعقبت ذلك، ذهبت إلى معرض في وسط المدينة بعد أن أوصلت فيوليت إلى الحضانة. كان هناك معرضٌ يثور من حوله الجدل قرأت عنه شيئًا في الصحيفة في اليوم السابق، ورأيتك تقرأ الموضوع نفسه عندما كنت جالسًا تشرب قهوة الصباح. هززت رأسك هزة خفيفة قبل أن تقلب الصفحة.

خطوت داخل المعرض خطوة واحدة ونظرت إلى الجدران. على خلفية الطلاء الأبيض غير اللامع، عُلّقت صورٌ استخدمتها وسائل الإعلام في حديثها عن أطفال متّهمين بارتكاب أعمال عنف مسلحة. عنف بشع، قاتل أحيانًا. كانوا أطفالًا لم يبلغوا سن المراهقة، ولم يكبروا بعد بحيث يستطيعون الجلوس في أرجوحة دوّارة كبيرة. فكّرت في أن الأعضاء الجنسية عند أولئك الأولاد لا تزال صغيرة جدًّا، وفي أنهم لا يزالون أحداثًا، لا شعر لهم، ولا جنس لهم.

كانت بين أولئك الأطفال بنتان. وكانت كل واحدة منهما تبتسم ابتسامة عريضة، ابتسامة كبيرة جعلت شفتها تصير شبه مقلوبة إلى أسفل. كان في فم إحداهنّ جسر لتقويم الأسنان. لا بد أنها تذهب إلى طبيب الأسنان مع أمّها كل شهر من أجل تعديل الجسر وانتقاء لون جديد يعجبها من أجل الأسلاك التي تثبته. أظنّها طلبت بعد ذلك شراء آيس كريم بالفراولة لأن أي شيء غيره يمكن أن يؤلم فمها كثيرًا.

ظل الأطفال يراقبونني عدة ساعات. أكانوا قادرين على إدراك أنني من نوع الأشخاص الذين أنجبوهم؟... أنا امرأة تشبه أمهاتهم؟ كانت

في المكان موظّفة لها شعر قصير مزاح جانبًا. لم تكد ترفع رأسها عن الكاتالوجات الفنيّة الموضوعة على طاولة خشبية ثقيلة في الزاوية... لم تكد ترفع رأسها حتى تنظر إلي. مسست الزجاج فوق صورة مدرسية لفتاة صغيرة. ضفيرة جميلة على كل كتف. أين بدأ ذلك؟ ومتى نعرف بالأمر؟ ما الذين يجعلهم ينقلبون؟ ومن الملوم في ذلك؟

في طريق عودتي إلى البيت سائرة على قدميَّ، رحت أقول في نفسي إن من غير المنطقي أبدًا أن أفكر في إمكانية العثور على شيء مألوف في تلك الصور. كان ذهابي إلى ذلك المكان جنونًا خالصًا.

ثم ذهبت وأخذتها من المدرسة في وقت أبكر من المعتاد، وذهبنا لكي نأكل الشوكولاته والحلويات. قدّمت إليّ نصف قطعة الحلوى عندما جلسنا.

قلت لها: «أظنّك فتاة لطيفة جدًّا». لعقت فتات الشوكولاته عن نصف قطعة الحلوى الذي بقي أمامها، وفكّرت في ما قلته لها.

«يقول نوا إنني بخيلة. لكنه لا يعجبني أصلًا».

«هذا يعني أن نوا لا يعرفك معرفة جيّدة».

أومأت برأسها وحرّكت المارشميلو اللزج بإصبعها.

تخطّينا وجبة العشاء لأن الحلويات التي أكلناها قتلت شهيتها إلى الطعام. أغمضت عينيها في الحمّام وعامت على طبقة من فقاعات الصابون كأنها ملاك سابح في الثلج.

«سوف أوقع الأذى بِنوا غدًا».

جعلت كلماتها قلبي يتوقّف عن الخفقان. عصرت المنشفة الصغيرة وعلّقتها على الصنبور. كنت أحسب ردة فعلي حسابًا دقيقًا. أرادت أن ترى ردّة الفعل.

قلت لها بصوت هادئ: «لن يكون هذا لطيفًا، يا فيوليت. نحن لا نؤذي الناس. لماذا لا تخبريه عن أمر فيه يثير إعجابك؟ هل هو كريم؟ هل اللعب معه في الاستراحة ممتع؟».

قالت: «لا». ثم غمرت رأسها تحت الماء.

وفي اليوم التالي، قلت لك إن لدي موعدًا، وطلبت منك أخذها من المدرسة. ذهبت أتجوّل في متجر البقالة ولم أشتر منه شيئًا. كان قلبي يدّق عنيفًا عندما اقتربت من البيت. كنت أنظر إلى هاتفي طيلة النهار، واثقة من أن المعلّمة ستتّصل بي.

كادت أنفاسي تتقطّع: «كيف كان يومها؟».

«قالوا إن يومها كان جيّدًا جدًّا». داعبت شعر فيوليت التي كانت تعبث بالسباغتي في طبقها. رفعت رأسها ثم نظرت إليّ ثم امتصّت السباغيتي عبر الثغرة التي خلّفتها سنها الأمامية التي سقطت.

في وقت لاحق، قبل أن أنام، جمعت ملابسها لكي أضعها في آلة الغسيل فوجدت قبضة كبيرة من شعر مجعّد أشقر في جيب فستانها، الذي ذهبت به إلى المدرسة ذلك اليوم. نظرت إلى الشعر في يدي. كان الإحساس بأنني أحمل شعر إنسان آخر في يدي مخيفًا. ثم عرفت صاحب هذا الشعر. إنه نوا الصغير، القصير، الخجول والشاحب، صاحب الشعر المجعّد الطويل. سرت في الممر غير عارفة ما أفعله بهذا الشعر.

«فوكس».

ناداني صوتك في غرفة المعيشة: «لدي شيء من أجلك».

كان صوتك أكثر ارتفاعًا مما هو معتاد. أطبقت قبضتي على الشعر. رأيتك جالسًا على الأريكة. ناولتني علبة مربعة صغيرة، ثم تذكّرت أن هذا اليوم كان موعد تقييمك السنوي. لقد نلت ترقية في عملك. لقد ازداد دخلك زيادة كبيرة.

قلت لي: «أنت تضحّين كثيرًا من أجلنا»، كان أنفك عند جبهتي. فتحت العلبة. كانت فيها سلسلة دقيقة فيها حلية صغيرة منقوش عليها حرف «V» حملتها ووضعتها على صدري.

«ليست أمورنا سهلة في هذا الوقت، لكني أحبّك. تعرفين هذا، ألا تعرفينه؟».

خلعت عني قميصي. قلت إنك تريدينني.

ظلّت قبضة الشعر في جيب بنطلونيّ الملقى على الأرض. وعندما انتهينا رميتها في المرحاض وفتحت الماء فوقها.

في طريقنا إلى المدرسة صبيحة اليوم التالي، سألت فيوليت عما حدث لِنُوا يوم أمس.

«لقد قص شعره كلّه».

«هل قصّه بنفسه؟».

«نعم. قصّه في الحمام».

«وماذا قالت المعلمة؟»

«لست أدري».

«ألم تكن لك أية علاقة بالأمر؟».

«لا».

«هل تكذبين علي؟».

«لا. أبدًا».

ظلت صامتة إلى أن تجاوزنا مجمّعًا سكنيًا كاملًا، ثم قالت لي: «ساعدته في التنظيف. ولهذا كان شعره في جيبي».

عند دخولنا باحة المدرسة ذلك الصباح، نظر نُوا إلى فيوليت، وجرى عائدًا إلى أمه، ودسّ وجهه في ساقيها. كان حليقًا تمامًا. مرت فيوليت بجانبه، ثم دخلت باب المدرسة. انحنت أمّه وسألته عمّا به. سمعته يقول بصوتٍ يكاد يكون باكيًا: «لا شيء». أخرجت أمه منديلًا ورقيًا وضعته على أنفه وطلبت منه أن يتمخط. نظرتُ إليها نظرة تعاطف، وابتسمت لها. بدت لي متعبة. أرغمت نفسها على الابتسام لي، ولوّحت بيدها حاملة ذلك المنديل المتّسخ. كان عليّ أن أذهب إليها وأقول، أعرف هذا

الإحساس. تمر بنا أيام صعبة. لكنّ ركبتيَّ كانتا خائرتين، وكنت شديدة الرغبة في الخروج من ذلك المكان.

فكّرت في طريق عودتي إلى البيت في تلك الصور التي رأيتها معلّقة في المعرض الفني، في اليوم السابق. فكرت في النساء اللواتي من وراء أولئك الأطفال. *لكن أمّها كانت عادية تمامًا. كانت مثل أية واحدة منا.*

انتهيت من غسل الملابس بعد المدرسة في ذلك اليوم نفسه فوجدتها واقفة على حافة كرسي عن طاولة المطبخ. كانت أصابعها الصغيرة تسبح في وعاء المخلل.

سألتها: «ماذا تفعلين؟».

قالت لي: «أصطاد الحيتان». نظرت، فرأيتها تحاول التقاط المخلّلات الأخيرة الباقية في الوعاء، المخلّلات التي تطفو وتغوص في السائل اللزج... وماذا رأيت؟ كانت تشبه الحيتان حقًّا! كان لديها عقل لامع جميل أتمنّى أحيانًا أن أكون داخله، رغم خشيتي مما قد أجده هناك.

- 29 -

لعلك لا تتذكّر أن اسمه كان إليجا. كانت جنازته يوم السبت، أوائل شهر تشرين الثاني، وكان هطول المطر متواصلًا منذ يومين اثنين. ثقل نحسّه كلّنا أحيانًا عندما نشعر بأن شقتنا صارت رطبة، وعندها نحسّ بالبرد في عظامنا. تركنا فيوليت في البيت مع جليسة الأطفال. رسمت في غيابنا صورة فيها طفلان اثنان. واحد مبتسم، وواحد باكٍ. وعلى الصدر خربشة حمراء افترضتُ أنها دم. رفعت الصورة أمامك لكي تراها، لكنك لم تقل شيئًا. أخذت الصورة مني ووضعتها على الطاولة، ثم طلبت سيارة تاكسي من أجل جليسة الأطفال. كانت فيوليت قد قاربت الخامسة من عمرها.

عندما آوينا إلى الفراش تلك الليلة، انقلبتُ صوبك وسألتك إن كنا نستطيع أن نتحدّث قليلًا. دعكتَ بإصبعك ما بين عينيك - كان يومنا طويلًا، وكان ثقيلًا، لكني لم أستطع منع نفسي. كنتَ مدركًا ما أريد أن أحدّثك عنه.

«ماذا بك؟ ألم تتعلمي اليوم شيئًا عندما كنا جالسين هناك، في الكنيسة؟». قلت هذه الكلمات من بين أسنانك المطبقة كأنك تبصقها بصقًا. ثم أضفت: «ليست إلا صورة».

لكنها كانت أكثر من ذلك، بل أكثر كثيرًا. انقلبت على ظهري وحدّقت في سقف غرفتها ورحت ألعب بالسلسلة التي في رقبتي.

«ما عليكِ إلا أن تتقبّليها كما هي. أنت أمّها. هذا كل ما عليك فعله».

«أعرف. هذا ما أفعله». إنها العبارة المقنعة. العبارة الكاذبة. «هذا ما أفعله»!

لقد أردتَ أمًّا مثالية من أجل طفلتك المثالية، وما كان لديك متّسع لأي شيء آخر.

وفي الصباح، كانت الصورة التي رسمتها فيوليت قد اختفت عن الطاولة. لم أعثر عليها في سلة القمامة. تفقّدت سلة القمامة التي في المطبخ والتي في الحمام والتي عند مكتبي. لم أسألك أبدًا عما فعلته بها.

في جنازة إليجا، قال القس إن الرب لديه خطة لكل واحد منا. وقال إن روح إليجا ما كان مقدرًا لها أن تكبر. لكنّي عجزت عن التوفيق بين هذا وبين ما كنت أخشى أن يكون قد حدث حقًّا في الحديقة بعد المدرسة في الأسبوع الماضي.

أظنّني رأيت شيئًا يحدث قبل أن يسقط الصبي المسكين من الأرجوحة... قبل أن يسقط تمامًا.

كنت متعَبة كثيرًا – صارت فيوليت تجد صعوبة في النوم، من جديد، وتطلب ماء، وتطلب أن يظلّ المصباح مضاءً. مرّت أسابيع لم أنم فيها ليلة متواصلة واحدة. لعل تفكيري كان مشوَّشًا!

أظنّها كانت عشر ثوانٍ. تلك هي المدة التي أمضيتها في مراقبة إليجا يجري من ناحية إلى أخرى من منطقة الألعاب حيث كانت فيوليت واقفة في أعلى نقطة. كانت يداها خلف ظهرها، وعيناها على الصبي. اندفع صوبها عابرًا الجسر المهتز، فاغر الفم، صائحًا بصوته الحاد، شعره متطاير في هواء الخريف المنعش.

كان صوت اصطدامه بالأرض حادًّا، حادًّا كثيرًا.

نظرت إليّ من غير أسف في عينيها عندما رأت جسده المتكوّم على

الأرض تحتها ساكنًا من غير حركة، جسده الذي كان مرتديًا قميصًا مقلّمًا وبنطلونًا ذا حمّالتين. ظلّ وجهها من غير تعبير عندما سمعنا مربيته تصرخ طالبة العون. كان ذعر المرأة الشديد مدوّيًا في أذنيّ. ظلّت رابطة الجأش عندما أتت سيارة الإسعاف لكي تأخذه على حمالة صغيرة، عندما وقفت الأمهات والمربيات تنظرن مذعورات وقد دسّ أطفالهنّ الخائفون وجوههم في رقباتهنّ.

وقفت أحدّق في المكان الذي سقط منه وأعيد في ذهني ما حدث قبل قليل.

في اللحظة التي سبقت جريه في اتجاهها، كانت فيوليت قد ألقت نظرة في اتجاه الحافّة المائلة، نظرة تشبه نظرة غَطاس محترف، يقيس بعينيه مسافة السقوط حتى الماء. صحت بها، انتبهي، *كوني حذرة! المكان هناك مرتفع كثيرًا! إنه خطير!* إنه ذعر الأم. وإذا أردتُ الصّدق، فإن اتجاه ذهني كان: الخطر، الموت. فأين كان ذهنها؟ يكون ذهن الأم هناك دائمًا. تراجعتُ إلى الخلف واستندت إلى عمود خشبي هناك. لم أعرف لماذا وقفت منتظرة هناك.

رأيت ساقها ترتفع. ترتفع في اللحظة الصحيحة تمامًا.

أظن أن رأسه اصطدم بالأرض أولًا.

في غمرة ضجيج صفارة سيارة الإسعاف، سألتني فيوليت بصوت هادئ إن كنا نستطيع الذهاب لتناول الحلوى. ارتفع حاجباها ترقّبًا لردة فعلي. أكان هذا اختبارًا؟ ماذا رأيت قبل قليل؟ ماذا سأفعل لها؟ كانت حقيقة أنها أوقعته أمرًا في غاية السخف والغرابة، أمرًا لا يمكن التفكير فيه، بحيث كاد يختفي على الفور من ذهني. لا، ل... لم يحدث ذلك! رفعت رأسي أنظر إلى السماء الرمادية وقلت بصوت مرتفع: «ذلك لم يحدث». *بلايذ، أنت لم تري ذلك.*

«ماما! هل نذهب لتناول الحلوى؟».

هززت رأسي نفيًا، ووضعت يديَّ المرتعشتين في جيبَيّ معطفي وطلبت منها أن تمشي.

«اتبعيني، الآن! الآن!».

سرنا صامتتين مسافة الكتل السكنية السبع حتى وصلنا إلى بيتنا.

تركتها جالسة أمام التلفزيون، وذهبت فجلست على كرسي المرحاض ساعة كاملة. كنت غير قادرة على الحركة. وكنت أتصوّر في ذهني ما لعلّي رأيته. ما كان هذا قبضة من شعر أحدهم، ولا شغَبًا وإزعاجًا في باحة المدرسة. لا بد أن العلو الذي سقط منه لا يقل عن اثني عشر قدمًا. خلعت من رقبتي السلسلة الذهبية التي عليها حرف «V»، السلسلة التي أهديتني إياها. كانت كأنها تحرق رقبتي.

تدافعت في ذهني صور غريبة، أشياء تشبه أصفادًا وردية صغيرة، وعمالًا اجتماعيين ممن يرعون الأطفال، وصحافيين في معاطف مطرية يدقّون بابنا، وأوراقًا كثيرة من أجل تغيير المدرسة، وتكاليف الطلاق الفظيعة، والكرسي الإلكتروني المتحرّك الذي سيستخدمه ذلك الطفل المسكين. حدّقت في بقعة عفن في شق بين بلاطات الحمام، وأعدت صورة ردّة فعلها في ذهني مرّة بعد مرّة. ثم اتّخذت قراري: لا. هي لم توقعه. لم تكن قريبة منه إلى الحدّ الكافي. لا. أنا لست والدة طفلة يمكن أن تفعل شيئًا كهذا.

كنت في غاية التعب.

أعددت لها سندويتشًا بزبدة الفول السوداني. مسّت ذراعي عندما وضعت الطبق على الطاولة الصغيرة أمامها، فأجفلت لوقع أصابعها على جلدي. نظرت إلى يديها فرأيتهما صغيرتين جدًّا، بريئتين جدًّا، مفاصلهما لا تزال ممتلئة ذلك الامتلاء الطفولي.

لا. لا. لم تفعل ابنتي أي شيء سيئ.

أخبرتك تلك الليلة بالحادثة الفظيعة التي وقعت لإليجا.

حادثة... هكذا دعوتها.

كانت فيوليت تلعب في الناحية الأخرى من المطبخ. رفعَت رأسها ناظرة إليّ عندما رن هاتفي الموضوع على الطاولة. حدّقت فيها وأنا أرد على الهاتف. كانت المتحدثة امرأة ممن كنّ في ساحة لعب الأطفال. قالت لي إن إليجا مات في المستشفى.

«مات! يا إلهي. لقد مات». أصابني دوار. نظرتَ إليَّ مستغربًا طريقتي المباشرة في قول ذلك، مستغربًا سوء تقديري الأمومي عندما قلت تلك الكلمات بصوتٍ مرتفع، ثم ذهبتَ فجلست إلى جانب فيوليت حتى لا تخيفها تلك الكلمات. لكنها كانت في أحسن حال. هزت كتفيها وطلبت منك مساعدتها في العثور على قطعة من الأحجية تبحث عنها، القطعة التي ينبغي وضعها في الزاوية.

لا بد لها من وقتٍ حتى تستوعب الأمر!

بالطبع.

أما كان من الأفضل أن تفكّري قبل أن تتكلّمي، يا بلايذ؟ هل كان ضروريًا أن تسمع أنه مات؟ يكفيها أنها كانت موجودة عندما سقط.

وبعد ذلك، لكن ليس قبل ساعة متأخّرة من تلك الليلة عندما صرنا في فراشنا... *هل أنت بخير؟ اقتربي مني. لا بد أن رؤية ما جرى كانت شيئًا فظيعًا. إنني في غاية الأسف، يا بلايذ.* جذبتَني إليك، ثم غفوت واضعًا ساقك من حول ساقي. نظرت إلى السقف في الظلمة منتظرة أن تستيقظ فيوليت من جديد.

وفي اليوم التالي، وضعتُ في براد صغير قالب تارت مجمّدًا، وعبوة من عصير الفاكهة تركته عند باب شقّة تلك الأسرة. تركت معه بطاقة قلت فيها إننا تألّمنا لمصابهم. أرسلت زهورًا إلى حيث الجنازة... زنابق كبيرة بيضاء.

مع حبنا، آل كونورز.

كان تحقيق الشرطة في تلك الحادثة سريعًا. كان شيئًا روتينيًا. سألوني. فقلت لهم ما قلته لك. لم نرَ شيئًا. كانت فيوليت بعيدة عنه عندما سمعت صوت اصطدام جسده بالأرض. قلت إن الألواح الخشبية مهترئة، وإنها زلقة. قلت إنني كنت أرى ذلك المكان دائمًا مكانًا خطيرًا غير مناسب للأطفال. قلت أيضًا إنني حزينة على أمه المسكينة.

- 30 -

كانت وحدة العناية المركزة الخاصة بالأطفال في الطابق الحادي عشر. تركت معطفي وحقيبتي في السيارة. لا أزال أرتدي بنطلون البيجاما. كانت ملابسي والوجبة التي اشتريتها من ماكدونالدز قبل دخولي المصعد كافيتين لجعل الممرّضة الجالسة هناك تعتبرني من المنتمين إلى ذلك المكان. نادرًا ما يطلب أحد من الآباء والأمهات الذين لديهم أطفال على شفير الموت أن يبرزوا هوياتهم.

جلست على مقعد معدني في آخر الممر تحت نافذة مشرفة على ساحة وقوف السيارات الخاصة بالعاملين في المستشفى. كان الصوت الصادر من فتحة التهوية التي فوقي شبيهًا بأصوات تطلقها معدة جائعة. وضعت وجبة ماكدونالدز إلى جانبي. كنت متقزّزة من نفسي لأنني جالسة في هذا المكان... المكان الذي مات فيه إليجا.

أمضيت أسبوعين اثنين لم ينقطع خلالهما تفكيري في تلك الحادثة... لم ينقطع دقيقة واحدة، كل يوم.

كلما أغمضت عينيّ، أجد نفسي هناك، في ملعب الأطفال، أصرخ بها وهي واقفة في الأعلى، وأقول لها أن تنتبه وأن تكون حذرة. أقول ذلك قبل وقوع الحادثة بلحظة. رأيت سيقانهما الصغيرة. رأيته يجري. رأيتها واقفة عند العمود من غير أية حركة. ثم رأيت ساقها ترتفع لحظة مروره أمامها.

لكني... لست أدري... لست واثقة...

جلست مصغية إلى بكاء طفل صغير يأخذون منه عيّنة دم، وإلى صوت

أمه الهادئ اللطيف يقول له إن عليه أن يكون شجاعًا. وفي الممر، أمام غرفة ذلك الطفل، رجل يظهر عليه الإرهاق خارجًا من غرفة وبين ذراعيه فتاة صغيرة. كان في يدها دب. لوّحَت باليد الأخرى مودّعة شخصًا في الغرفة، وكان حذاؤها الشتوي القديم متدليًا عند خصر الرجل. خرجت خلفهما ممرّضة، ثم أغلقت الباب بهدوء. سمعت من الغرفة صوت امرأة تبكي. كان نشيجها عميقًا أدركت منه أنها غاضبة كثيرًا.

وبعد غرفتين من تلك المرأة، كانت أسرة تغنّي أغنية تعلّمتها فيوليت في روضة الأطفال. كان صوت الغناء مكتومًا تقطعه زقزقات طفلية جميلة، ورنّات جرس صادرة عن لعبة إلكترونية. شيء أشبه بأصوات مهرجان بهيج. تمنّيت لحظة أن أكون قادرة على مشاركتهم ذلك الغناء.

ممرّضات يأتين ويذهبن، وتضغط كل واحدة منهنّ بكفّها على عبوة المادة المطهّرة الموضوعة عند كل باب. أشخاص يخرجون لتناول القهوة، وأمّهات يطلبن مناشف. مهرّج في ملابس ملوّنة معه عربة فيها ألعاب راح يدق الأبواب بلطفٍ، بابًا بعد باب، سائلًا إن كان الوقت مناسبًا. همسات. ضحكات. تصفيق. *فتاة ذكية! يا لك من طفلٍ قويٍّ!* فترات صمت طويلة. نظام مكبرات الصوت يعلن أن مصاعد الجناح الغربي ستتوقّف عن العمل مدة عشرين دقيقة. جلست أحدّق في طبقة كثيفة من الغبار المتراكم في زاوية الأرضية ذات اللون الرمادي المحمرّ. باب مزدوج ثقيل في آخر الممر يغلق ثم يُفتح مرة بعد مرة.

«هل أنت في حاجة إلى شيء؟». لم أنتبه إلى اقتراب تلك المرأة بملابس المستشفى الخضراء. حاولت ابتلاع ريقي قبل أن أتكلّم، ثم تقلّص وجهي. أحسست كأن حلقي محشوٌّ شاشًا طبّيًا. كان الهواء ثقيلًا. هززت رأسي نفيًا، وشكرتها. جلست هناك أربع ساعات.

نهضت لكي أنصرف. كيس الوجبة الباردة لا يزال في يدي. توقّفت عند الباب المغلق الذي سمعت بكاء المرأة من خلفه في وقت سابق.

نظرت عبر المربعات الزجاجية فرأيتها مستلقية في السرير وإلى جانبها كتلة صغيرة متكوّرة على نفسها. رأيت أنابيب كثيرة خارجة من تحت البطانيات إلى أكياس فيها سوائل، أكياس معلّقة كأنها سُحب عاصفة متجمّعة في الأعلى. قطرات المطر نازلة عبر الأنابيب، قطرة فقطرة. وعلى الجدار إلى جانب السرير رأيت لوحة بيضاء مكتوبًا عليها: اسمي... وأكثر ما أحب فعله. كان أحدهم قد ملأ الفراغين: *أوليفر. لعب كرة القدم مع أصدقائي.*

لا ينبغي أن يكون لدى الأمّهات أطفال يعانون. ولا ينبغي أن يكون لنا أطفال يموتون.

وأيضًا، لا ينبغي أن ننتج أطفالًا سيئين.

أمام ذلك الباب، مرّت بي لحظة وددت فيها أن تكون فيوليت هي من دُفع بها من ذلك العلو.

جلست في سياراتي في ساحة المستشفى وأعدت المشهد في ذهني؛ لكنني أعدته مختلفًا هذه المرة. عليّ أن أكفّ عن ترك عقلي يذهب إلى ذلك المكان. لا بد لي من الاقتناع بأن ابنتي لم توقع ذلك الصبي.

في ذلك المساء، وضعتَ يدك على كتفي وداعبت رقبتي عندما كنت أقلي الجمبري. وعندما ابتعدت عنك، سألتني عمّا بي. وددت إخبارك بالمكان الذي ذهبت إليه ذلك اليوم. وددت أن أقول لك، *أنا وحش لأنني أفكّر هكذا*. لكنني غمغمت بشيء عن أنني مصابة بصداع، وحدّقت في الزيت الذي أمامي. هززتَ رأسك وخرجت من المطبخ.

- 31 -

«أخشى أن هذا ليس يومًا حسنًا». كان السيد إنغتون واقفًا بباب البيت حاملًا بيده منشفة رطبة. ظللت أدقّ الباب خمس دقائق إلى أن جاء. قال لي إن توماس ودانييل ذهبا إلى بيت خالتهما. وقال أيضًا إن السيدة إنغتون متوعّكة. أظنّه رأى الخيبة ظاهرة على وجهي لأنني استدرت لكي أذهب فوضع يده على كتفي.

قال: «انتظري لحظة، يا بلايذ. دعيني أرى إن كانت تحبّ أن يزورها أحد الآن».

انتظرت عند الباب إلى أن عاد وقال لي: «اصعدي إليها. إنها راقدة في السرير».

لم أدخل غرفة النوم قبل ذلك اليوم. لكنّي أعرف أنها الغرفة التي في آخر الممر. كنت متوترة، فهذا مكان له خصوصيته. لكني أحسست بنفسي متميّزة. وجدت الباب مواربًا فدخلت الغرفة بهدوء ورأيت السيدة إنغتون جالسة في السرير.

«ادخلي، يا حبيبتي. رؤيتك اليوم مفاجأة لطيفة جدًّا».

كان وجهها من غير مساحيق تجميل، وشعرها مربوطًا بمنديل حريري. بدت لي عيناها أكثر صغرًا وحاجباها أقل عرضًا. لكنّها بدت جميلة كشأنها دائمًا. ربتت بيدها على الفراش إلى جانبها؛ فتساءلت في نفسي إن كان جلوسي على مقربة منها يمكن أن يزعجها. لكنها ربتت على الفراش من جديد فجلست ووضعت يدي في حضني، بكل تهذيب.

«لا يبدو شكلي جيّدًا تمامًا هذا اليوم، أليس كذلك؟».

لم أدر بما أجيبها. بدلًا من ذلك، رحت أنظر في أرجاء الغرفة. كانت الستائر الذهبية مزاحة جانبًا، وبدا لي ورق الجدران برسوم أوراق الأشجار عليه مثل ورق الجدران الذي في غرفة أمي، لكن لونه كان أصفر داكنًا بدلًا من «أخضر المستشفيات» في بيتنا، ذلك اللون الذي ما كنت أحبه أبدًا. مررت بيدي على الفراش الذي كان مثل لون الستائر. بدا لي كلّ شيءٍ هنا دافئًا، فخمًا. تذكرت فراش أمي الذي لا ترتّبه أبدًا، وملاءاتها التي لا تغسلها إلا نادرًا.

«هل ستكونين بخير؟».

«أوه، نعم. سوف أكون بخير. لست مريضة... ليس تمامًا».

«فما المشكلة إذًا؟».

كنت أدرك أن في سؤالي جرأةً زائدةً. لكنّي أردت أن أعرف. شممت رائحة شيء غريب، حادٍّ وحلوٍ، كذلك اللبن الرائب الذي يكون في وجبات غداء بعض الأطفال في مدرستي. رأيت علبة دواء على الطاولة إلى جوار السرير فتساءلت إن كان هو الدواء نفسه الذي رأيته في غرفة أمّي.

«لست واثقة من أنه يصح أن أحدثك عن العصافير والنحل، لكنك الآن كبيرة. صار عمرك عشر سنين». لا بد أن وجهي قد احمرّ خجلًا. لم تحدّثني أمّي أبدًا عن الجنس، ومن أين يأتي الأطفال. لكنّي كوّنت فكرة عن ذلك الأمر كلّه من خلال ما سمعته من الأطفال في المدرسة. أزاحت السيدة إنغتون الغطاء عن وسطها، وأنزلت قميص نومها الأبيض حتى بان بطنها المنتفخ. لم أنتبه قبل ذلك إلى أنها بدينة في تلك المنطقة لأني أراها على الدوام أنيقة في ملابسها التي ما كانت شديدة الضيق ولا غير ملائمة لها... كملابسِ أمّي.

«هل ستنجبين طفلًا؟».

«كان لديّ طفل. كنت حبلى. لكن الطفل لم يستطع الاستمرار».

ما كانت لديّ أيّة فكرة عن معنى أن الطفل لم يستطع الاستمرار، أو عمّا جرى للطفل الذي كان في بطنها. أين ذهب؟ ماذا أصابه؟ لا بد أن حيرتي كانت واضحة لها. أعادت الغطاء إلى مكانه بحركة بطيئة كأن تغطية بطنها تؤلمها. لكنها ابتسمت بالرغم مما كان بها من ألم. رأيت في معصمها سوارًا كالذي يضعونه في المستشفيات. كان سوارًا مثل الذي رأيته في معصم أمّي منذ بضع سنوات عندما أصابتها أنفلونزا شديدة. لم أجد شيئًا أقوله. أشرت إلى عبوة الدواء عند الطاولة.

«ألا تريدين مزيدًا من هذا؟».

ضحكت وقالت: «حسنًا، أريد، لكنّي لا أستطيع تناول أكثر من قرصٍ واحدٍ كل ست ساعات».

«هل سيحزن توماس ودانييل؟».

«لم أقل لهما بعد إنهما كانا سيصيران شقيقين كبيرين. سأخبرهما عمّا قريب جدًّا».

«وهل أنت حزينة؟».

«نعم. حزينة جدًّا. ولكن، هل تعرفين؟ إن للرب طريقته في الاهتمام بكل شيء».

أومأت برأسي كأنني فهمت ما قالته... كأنني أعرف ما يفعله الرب.

«كانت فتاة صغيرة. كنت سأنجب ابنة». مسّت أنفي بإصبعها وسالت دموع من عينيها... «ابنة مثلك تمامًا».

- 32 -

عندما نزلنا من السيارة كان في ذلك الشارع ذي البيوت الصغيرة شيء خاص... رائحة الهواء الشبيهة بأزهار العسلية التي تتفتّح في الشتاء. سوف أعرف بعد ذلك أن الفناء الخلفي ممتلئ بتلك الأزهار. أطواق كرة السلّة الدائرية مصطفة في ذلك الشارع المغلق. والمدرسة الابتدائية التي في آخره واحدة من أحسن المدارس في المنطقة. كنا قادرين على إنجاز القسم الأكبر من العمل بأنفسنا. سوف يبدأون قبول عروض شراء البيت في الأسبوع التالي، لكننا وافقنا على السعر الذي كان مطروحًا من البداية. أنجزَت وكيلتنا العقارية الصفقة وقت الظهر. اتّصلت لكي تخبرنا بذلك بينما كنا جالسين قلقين نأكل البيتزا في مطعم هناك لم يلبث أن صار مكانًا نذهب إليه دائمًا.

ثلاث غرف نوم. أنجز الاتفاق سريعًا. وبدأت أصدّق أن الحياة ستتخذ مجراها بعد طول انتظار. كنت في توقٍ شديدٍ إلى ذلك.

كنا في حاجة إلى تغيير مع أننا لم نتحدّث عن البيت الجديد بهذه الطريقة. لم نتحدث أبدًا عن أننا في حاجة إلى تغيير. انقضت ثلاثة شهور بعد تلك الحادثة؛ وما عدت أحلم بالمكان الذي سقط فيه الطفل. ما عدت أسمع صوت ارتطام جسده بالأرض عندما أسكب الطعام، أو عندما أغلق باب السيارة. منحني الزمن هذه الراحة. الزمن، ورغبتي في النسيان. ما عدت أذهب إلى تلك الحديقة أبدًا. وما عدت أذهب إلى مقربة منها. ما عدنا نذكر اسمه أبدًا. عادت فيوليت تنام الليل من غير انقطاع؛ وبدا لي أن الضباب الذي كان يلفّ دماغي قد انقشع.

أتيت إلى البيت في يوم من الأيام وفتحت اللابتوب، فرأيت البيت المعروض في موقع على الانترنت لواحدة من الشركات العقارية. ما كنت أعرف أنك تبحث عن بيت جديد.

أمضينا عطلات نهاية الأسبوع على امتداد ثلاثة شهور بعد ذلك نذهب إلى البيت الجديد، ونحطم ما أردنا إزالته منه بأدوات استعرناها، ونستقبل حرفيين ينجزون ما لم نستطع إنجازه. كنا متفقين على أننا غير قادرين على تحمّل نفقات تجديد كامل للبيت، لكن هناك أشياء لا يمكن تأجيلها: أرضيات جديدة وحمامات جديدة. لم تلبث تلك القائمة أن ازدادت طولًا نتيجة نظرتك المعمارية الثاقبة. أتى والداك إلى المدينة وظلا معنا خلال الأسبوع الذي انتقلنا فيه إلى البيت الجديد وذلك لكي يرعيا فيوليت ريثما نحزم أمتعتنا وننقلها ونضعها في أماكنها الجديدة. أتينا بها لكي تودّع البيت القديم قبل أن نسلّم مفاتيحه. كان هذا الطقس من اقتراح أمك... ليس اقتراحي أنا! ففي وقت من الأوقات، فقدت ارتباطي العاطفي بالبيت الذي بدأت فيه أسرتنا مشوارها. كنتَ قد فقدت هذا الارتباط أيضًا؛ عرفت هذا من الارتياح الذي بدا على وجهك عندما غادرنا المبنى للمرة الأخيرة. عرفته من طريقتك في وضع المفاتيح في مغلّف من الورق المقوّى وإلقاء ذلك المغلف على طاولة المكتب التي في غرفة النوم.

ظلّت فيوليت مع والديك في فندقهما وسط المدينة لأننا واصلنا العمل حتى الساعة الثانية صباحًا. نقلت أشياءها الباقية من أيام طفولتها الأولى بعد أن وضعتها في صناديق بلاستيكية، فأخذتها إلى غرفة النوم الثانية الصغيرة في الطابق العلوي.

سألتني: «أليس من الأفضل أن نضع هذه الأشياء في القبو؟».

«سوف نكون في حاجة إليها، عاجلًا أو آجلًا».

استنشقتَ نفسًا طويلًا قبل أن تقول: «فلنؤجّل هذا الأمر ليلة».

نمنا على فراشنا الموضوع في وسط غرفة نومنا الجديدة. نسينا تشغيل التدفئة، فارتدى كل منا بيجاما رياضية ثقيلة، ثم اندسسنا تحت البطانية.

«سنكون سعداء هنا»، قلت لك هذا ودعكت قدميّ المجوربتين بقدميك.

«أظننا كنا سعداء دائمًا».

- 33 -

أعتقد بأنها رأت خيالي العاري في ضوء القمر. قميص نومي الرقيق حجب الاتصال بين جسدينا. ظهري المتقوّس كظهر قطة. ثدياي مثل كيسي رمل صغيرين يتأرجحان فوق وجهك. أنّيت أنينًا طويلًا، عميقًا. يداي على رأس السرير. حجبتُ بقية الغرفة من حولنا. ما كان للخزانة أبواب تخفي فوضى الملابس المتّسخة التي لم أغسلها بعد، ولا كومة أكياس الملابس الآتية من محل التنظيف، تلك الأكياس التي لم أفرغ محتوياتها بعد... وكذلك صندوق الملابس التي سنتبرّع بها، ذلك الصندوق الذي لم أوصله حتى الآن. كنت غارقة في قول عبارة «في ما بعد». كان انتقالنا إلى هذا البيت غير منظّم. ثم إن الأعمال التي نقوم بها لتجديد البيت تأخّرت كثيرًا.

أتذكّر ذلك كلّه فأقول إنه من نوع من الفوضى الاعتيادية التي صرت أحنّ إليها أحيانًا.

لم أسمع صرير الباب، ولا وقع قدميها المسطّحتَين على خشب الأرضية الجديد الذي وضعناه قبل أسبوع فقط. لم أدرِ أنها كانت هناك إلى أن أزحتني جانبًا وأطلقت شتيمة، وجذبت الملاءة فسترت بها نفسك. رقدت على حافة السرير متكوّرة كأنني جنين، تمامًا حيث دفعتني يدك المذعورة.

قلتَ لها بصوت هادئ، عودي إلى سريرك. لا شيء غير طبيعي هنا.

سألتنا عما كنا نفعله، فقلت لها، لا شيء. لكنك قلت، *يا إلهي! بلايذ!* كأنني المذنبة في كل ما احتوته تلك اللحظة.

لكني كنت مذنبة... كنت في طور الإباضة. وكنتَ متعَبًا. بكيت دافنة وجهي في الوسادة. داعبتَ ظهري بكفك، وبدأت تقبيل عنقي بتلك القبلات التي تقول بها إنك تحبني، لكنك غير راغب في مضاجعتي. قلت لي إنه سيكون لدينا دائمًا وقت كافٍ لأن نحاول من جديد.

سألتك متّهمة إياك، *ألا تريد طفلًا آخر؟ لماذا؟* رقدنا معًا صامتين؛ ثم لم تلبث أن مررت بأصابعك في شعري وهمست لي: *أريد طفلًا آخر.*

كنت تكذب، لكنّي ما كنت مبالية بهذا.

انقلبت صوبك ورحت أداعبك إلى أن أحسست أنك قد استسلمت لي. جعلتك تنزلق داخلي وتظاهرت بأن كل شيء كان مختلفًا... أنت، والغرفة، والأمومة التي عرفتها من قبل. رجوتك ألّا تتوقّف.

كنت قد عدت إلى طرح الفكرة من جديد منذ ثلاثة أسابيع، عندما كنا واقفَين معًا ننظف أسناننا. بصقتَ في المغسلة وأخرجت من العلبة خيط تنظيف أسنان لكل منا. سنرى. لاحقًا. سوف نرى.

كان في صوتك جفاف غير معهود جعلني أبدأ الشك بعد ذلك بأيام. لكنّي لم أشك في شيء وقتها. الأمر غير متعلّق بك. إنه متعلّق بي. كان سبيل التقدّم الوحيد الذي رأيته من أجل أسرتنا هو إنجاب طفلٍ ثانٍ. لعل ذلك كان محاولة تكفير عن كل ما اتخذ مجرى خاطئًا من قبل. عدت بذاكرتي إلى ما جعلنا ننجب فيوليت أصلًا... أنت أردت أسرة، وأنا أردتك أن تكون سعيدًا. وأيضًا، أردت أن أثبت لنفسي عدم صحة شكوكي كلّها. أردت أيضًا إثبات أن أمي كانت مخطئة.

بلايث... *النساء في هذه العائلة مختلفات، وسوف ترين.*

أردت أن أحظى بفرصة أمومة أخرى.

أردت ألا أعترف بأن المشكلة عندي.

كثيرًا ما كنت أشير إلى الأطفال الصغار عندما آخذ فيوليت إلى

المدرسة وأقول لها: ألن يكون هذا شيئًا لطيفًا؟... أن يكون لك أخ صغير أو أخت صغيرة.

ما كانت تجيبني إلا نادرًا. كانت تدخل في عالمها الخاص أكثر فأكثر؛ لكن التباعد الذي ازداد بيننا جعل الحياة أكثر سهولة، على نحو ما. كنا نرى الأم نفسها عند مدخل المدرسة كل صباح تحمل طفلها المولود حديثًا إلى صدرها... نراها تنحني بحذر حتى تودّع ابنها الأكبر سنًا بقبلة.

ذات مرة، قلت لها مبتسمة: «تبدو رعاية طفلين معًا عملًا شاقًا».

«شيء مرهق، لكنه يستحق التعب». يستحقّ التعب. ها هو الأمر نفسه من جديد. ربتت على رأس الرضيع وقالت: «إنه ولد مختلف تمامًا. الطفل الثاني تجربة مختلفة جدًّا».

تجربة مختلفة!

فيوليت في عتبة باب غرفة نومنا. يداها على خصرها. رفضت الذهاب قبل أن أجيبها وأقول لها ما كنا نفعله. وهكذا، شرحت لها الأمر. عندما يكون شخصان متحابان، فهما يتعانقان بطريقة خاصّة. ثم صمتنا، جميعًا هناك، في الظلمة. وبعدها، عادت إلى غرفتها. قلت لك إن علينا أن نهدّئها. علينا أن نتأكّد من أنها بخير.

قلت لي: «اذهبي إليها إذًا». لكنّي لم أذهب. رقدنا على السرير متباعدين، فكان ذلك أشبه بمواجهة لم أرَ لها أيَّ معنى.

لم نتبادل كلامًا في الصباح. ذهبت لكي أستحم من غير أن أضع قهوتك على النار. وفي طريقي إلى المطبخ، توقّفت في منتصف السلم لكي أصغي إلى حديثك مع فيوليت على الإفطار. قالت لك إنها تكرهني. قالت إنها تتمنّى موتي حتى تعيش معك وحدها. قالت إنها لا تحبني. كانت تلك كلمات كفيلة بأن تحطّم قلب أية أم أخرى.

وأنت قلت لها: «فيوليت، إنها أمك».

كنت قادرًا على قول أشياء كثيرة أخرى. لكنك اخترت قول هذه الكلمات.

في تلك الليلة، رجوتك من غير حياء أن نحاول مرة أخرى. مرة واحدة فقط.

وافقتني.

- 34 -

كانت تلك الأم ترتدي ملابس اليوغا التي ترتديها دائمًا عندما توصل ابنها إلى المدرسة. وكان قميصها مجعّدًا قليلًا بسبب حمّالة الرضيع. وفي شعرها بقية من الجهد الذي بذلته في اليوم السابق من أجل تصفيفه. وقف ابنها إلى جانبها ونزع قبعته عن رأسه. كانت باحة المدرسة تفور نشاطًا صباحيًا: بطون لا تزال ممتلئة بطعام الإفطار، ووجوه لا تزال فيها آثار النوم. جثَت الأم. أراد أن يقبّلها على رقبتها. رأيت من حيث كنت واقفة أن في وجه الصبي ألمًا. أحاطت رأسه بكفيها مثلما تحيط بالزهرة بتلاتها. انتقل فمها إلى أذنه بحركة بطيئة. اندس الصغير فيها. كان في حاجة إليها. ومن خلفه، ازدادت الأصوات ارتفاعًا، والصيحات، وأصوات ارتطام كرة السلة المطاطية بالإسمنت.

انزلقت يداها على كتفيه الدقيقتين، فابتعد عنها قليلًا، وشد صدره متأهّبًا، لكنها جذبته إليها من جديد. هذه المرة، كانت هي التي تحتاج إليه. هذه المرة، وجهها في رقبته، ثلاث ثوانٍ. بل لعلها أربع ثوانٍ. كلمته من جديد. أغمض عينيه بقوّة. أومأ برأسه، وضع قبعته من جديد وشدّها إلى أسفل، ثم سار مبتعدًا. ما كان سيره بطيئًا، ولا متردّدًا، بل كان فيه ترقّب وتعجّل... ساقاه متقوّستان إلى الداخل قليلًا عند الركبتين. ما كانت قادرة على مواصلة النظر إليه ذلك الصباح. استدارت وانصرفت. نظرت في هاتفها وغرقت في شيء جعلها لا تتألّم مثلما كان ابنها متألّمًا.

ذلك الصباح، رفرف في بطني شيء مثلما ترفرف الفراشات، فكانت تلك أوّل مرّة. كان الطفل يستيقظ في داخلي. لقد نسيت فيوليت معي

كيس شرائح البرتقال عندما دخلت المدرسة، فرحت أمتصّ عصيرها الدافئ وألقي بالقشور في سلة القمامة، ثم سرت في الشارع خلف تلك الأم حتى تجاوزنا تقاطع طريقين اثنين. توقّفت واشترت ملحًا من متجر عند الزاوية. كنت أراقبها من خلف هرم من الطماطم. أردت أن أرى وجهها. أردت رؤية إن كانت لا تزال تحمله معها. تساءلت كيف يبدو شكل المرء -وكيف يكون إحساسه- إذا كان لديه ذلك النوع من الصّلة مع شخص آخر. لكنّي لم أستطع العثور على إجابة قبل أن أفقدها بعد كتلة سكنية واحدة عندما اجتزنا منطقة من الرصيف كانت مزدحمة بسبب أعمال الإصلاح الجارية فيها.

كانت تلك الأنواع من الأمور تحدث من حولنا، أنا وفيوليت؛ لكنها تحدث بلغة لا تتكلّمها. هذا ما جعلني توّاقة إلى تعلم تلك اللغة حتى أكون أمًا أفضل مع الطفل الذي سيأتي.

مررت في طريق عودتي إلى البيت بامرأة تقيم منصّة بيع صغيرة على ناصية الشارع. وضعت رزمة لوحات قديمة عند عمود النور، وراحت تضع على ظهورها نقاطًا ملونة لكي تكتب عليها أسعارها. تناولت لوحة ذات إطار ذهبي رشيق، ونظرت إليها مفكّرة قبل أن تقرّر الثمن الذي ستضعه لها. كنت أقف خلفها، فوجدت نفسي أضع يدي على قلبي عندما رأيت تلك الصورة. كانت صورة أم جالسة وقد وضعت طفلها الصغير في حضنها. طفل وردي اللون في ملابس بيضاء وقد وضع يده على ذقن أمه، التي خفّضت رأسها لكي تنظر إليه. كانت إحدى ذراعيها تلفّوسط الطفل، والأخرى تمسك بفخذه الصغير. يدها تمسّ يده. كان في منظرهما سكينة ودفء وراحة. فستان المرأة طويل منسدل لونه دراقي جميل، وعليه زهرات صغيرة بنية. كنت شبه عاجزة عن النطق حتى أسألها عن الثمن. لكن هذا ما كان مهمّا - أريد هذه اللوحة.

قلت لها عندما أعادتها إلى الرزمة: «سآخذ هذه اللوحة».

«اللوحة الزيتية؟». أزاحت نظارتها عن وجهها ورفعت رأسها ناظرة إليّ.

«نعم، تلك اللوحة. لوحة الأم مع طفلها».

«إنها تقليد للوحة ميري كاسات. ليست أصلية، بالطبع». ضحكت المرأة وكأنني ينبغي أن أعرف مدى غرابة امتلاك لوحة أصلية لميري كاسات.

هل هي صورتها في اللوحات؟ أعني الرسّامة؟

هزّت رأسها: «لم تكن أمًّا. لعل هذا ما جعلها تحب رسم الأمّهات كثيرًا».

حملت اللوحة تحت ذراعي في طريق عودتي، ثم علّقتها في غرفة الأطفال. عدت إلى البيت في تلك الليلة فوجدتني أعدّل وضع الصورة على الجدار. عدت وتوقفت بالباب وأصدرت صوتًا كأنه صوت يوحي بشيء من عدم الرضا.

«ماذا؟ ألا تعجبك؟».

«ليس هذا ما تعلقينه عادة. أنت تضعين صور حيوانات صغيرة في غرفة فيوليت».

«لا بأس. تعجبني هذه اللوحة».

لقد أردت ذلك الطفل الصغير. أردت وجهه المدور. أردت يده الممتلئة. أردت ذلك الحب الواضح.

- 35 -

كانت فيوليت تراقب شكلي وترى كيف يتغيّر ويتحوّل. كان الجنين يتحرّك طيلة النهار وينقل كعبَيّ قدميه الصغيرين إلى حد لا يصدق في أنحاء بطني جيئة وذهابًا. أحببت الاستلقاء على الأريكة رافعة قميصي حتى نتذكّر جميعًا أنه هناك. سوف نكون أسرة من أربعة أشخاص.

كنتَ تناديني من المطبخ وأنت تغسل الأطباق، هل يفعلها من جديد؟

تجيبك فيوليت صائحة: «إنه يفعلها»، فنضحك جميعًا.

سبّب الجنين تحولًا في العلاقة بيننا مع أنني ما كنت قادرة على تحديد طبيعة ذلك التحوّل تحديدًا دقيقًا. صارت كل منا أكثر لطفًا مع الأخرى على الرغم من نشوء نوع جديد من التباعد بيننا... تباعد بدا أنك تحاول مَلأه بمزيد من العمل. وأما أنا فقد استفدت من تلك المساحة لكي ألتفت إلى الداخل، إليه. كان كل منا سعيدًا بأن يكون الآخرُ عالَمه، حتى منذ ذلك الوقت المبكر: أم وابنها.

عندما فرغت اختصاصية المختبر من عملها قالت لي: إن لديك صبيًا. أغمضت عينيَّ وشكرت الرب أول مرة في حياتي كلّها. احتفظت بالنبأ لنفسي يومين كاملين - اقتضى الأمر يومين حتى تسألني عما جرى في موعدي من أجل الفحص بالموجات فوق الصوتية. ما كانت هذه عادتك! كنت أثناء حملي الأول شديد الاهتمام إلى حدٍّ جعلك تذهب معي إلى كل موعدٍ طبّي. وأما الآن، فقد كنا مثل شخصين يمر أحدهما بالآخر في الظلام. لديك مشاريع كبيرة في عملك، وزبائن جدد لديهم مال كثير. لكن حاجتي إليك صارت محدودة جدًّا: لدي ابني.

أرادت فيوليت مساعدتي عندما رحت أستعرض ملابسها القديمة عندما كانت طفلة رضيعة. جلسنا معًا في غرفة الغسيل وطوينا البيجامات الصغيرة عند خروجها من آلة التجفيف. كانت تحمل كل قطعة إلى أنفها كأنها تتذكّر وقت ارتدتها، وكأنها تتذكّر مكان ارتدائها. تركتها تُلبِس دميتها كنزة محبوكة. تظاهرتُ بأن الدمية طفل تعتني به، فعجبت من انتباهها الشديد عندما تلمس أي شيء، ومن الرقّة التي في صوتها.

قالت لي وهي تهزّ الدمية في حضنها مرتين إلى اليمين ومرتين إلى الشمال: «هكذا كنتِ تفعلين»، ثم عادت تهزّها إلى اليمين وإلى الشمال. لم أدرك ما تعنيه أول الأمر... لم أتذكّر أنني كنت أفعل هذا لها. لكنّي أخذت الدمية منها، ثم وقفت وقلّدت الحركات التي تقوم بها. وعلى الفور، عاد إليّ إحساسي بألفة هذه الحركة. كانت محقّة. ضحكت وواصلت هز الطفلة، فقهقهت وأومأت برأسها.

«قلت لك هذا!».

«أنت محقّة تمامًا».

بدا لي مستحيلًا أن تستطيع تذكّر هذا، وأن يظل عالقًا في ذهنها طيلة تلك السنين. وضعت كفّيْها على جانب بطني الضخم، وتظاهرت بأنها تكرّر الحركة نفسها مع الطفل الذي في داخلي، مع الطفل الذي يتأرجح في بطني بين يديها. سرعان ما بدأنا الرقص، ثلاثتنا، على إيقاع دورات غسّالة الملابس.

- 36 -

تحسّست نفسي بيدي عندما صار رأسه في عنق الرحم. كان خروجه بهجة. وكنت تراقب كيف أرشدته إلى طريق الخروج، ثم رفعته بهدوء ووضعته فوق بطني، فوق المكان الذي كان يشغله طيلة مئتين وثلاثة وثمانين يومًا. *أنت هنا*. بدأ يبحث عني، ثم تقوّس ظهره وراح يزحف على بطني كأنه دودة مغلّفة بلزوجة ودماء. كان فمه مفتوحًا، وعيناه الزجاجيتان لا تزالان سوداوين. بدا لي أن على يديه المرتعشتين المجعّدتين جلدًا كثيرًا جدًا. وجدت يداه ثديَّ، فاهتزت ذقنه الصغيرة. إنه أعجوبة. رفعته إلى صدري وألقمته حلمتي بيدين لا تزالان مرتجفتين من الأوكسيتوسين. *ها أنت هنا، يا ولدي الحلو*. كان أجمل مخلوق رأيته في حياتي.

قلت لي وأنت تنظر من فوق كتفي: «يبدو مثل فيوليت تمامًا».

لكنه لم يبد لي مثلها على الإطلاق. كان سبعة باوندات من شيء فائق النقاء، فائق الروعة، إلى حد جعلني أظن أنه قد يسبح طائرًا من فوقي مثل حلم، مثل شيء لا يمكن أن أستحقّه طيلة عمري. ظللت متمسّكة به عدّة ساعات، جلده ملتصقٌ بجلدي، إلى أن أرغموني على النهوض والذهاب إلى الحمام. انسكب الدم مني في المرحاض. وعندما نظرت إليه فكّرت بابنتنا من جديد – لست أدري لهذا سببًا. وبعدها، عدت بخطوات بطيئة إلى ابني في مهده الزجاجي الصغير عند باب الحمام.

غير هذا، لا أتذكّر إلا أقل القليل عن كيفية مجيء ابني إلى العالم.

لكنّي أتذكّر كل شيء عن مغادرته له.

1969

بدأ حيض سيسيليا عندما كانت في الثانية عشرة. في ذلك الوقت، كان لها ثديان أكبر من ثديَي أية بنت أخرى في المدرسة. كانت تسير دافعةً بكتفيها إلى الأمام، محاولة إخفاء هاتين العلامتين الجديدتين الدالّتين على أنها بدأت تصير امرأة. كان كلام إيتا معها قليلًا في ذلك الوقت، ناهيك عن الخوض معها في موضوع النضج الجنسي. صحيح أن سيسيليا سمعت البنات يتحدّثن عن دم الحيض، لكن قلبها توقّف عندما رأت سروالها التحتي مبلّلًا بالدم. بحثت في خزانة أمها عن فوَط صحية، لكنها لم تجد شيئًا. انطوت على نفسها ألمًا في الحمام، ورأت الدم يقطر منها فقرّرت أن تخبر أمها.

لم تجبها إيتا عندما دقت باب غرفتها، لكن ذلك ما كان أمرًا غير عادي -كانت الساعة الثالثة بعد الظهر؛ وكانت إيتا تنام بعد الظهر، أكثر الأيام. دخلت واقتربت من سريرها وظلّت تهمس باسمها إلى أن استيقظت مجفلة. تنهّدت إيتا عندما أخبرتها سيسيليا بما جرى. لم تدر سيسيليا إن كانت أمها قد تنهدت إشفاقًا عليها أم تقزّزًا منها.

«وماذا تريدين مني؟».

لم تجبها عن سؤالها لأنها ما كانت تعرف كيف تجيبها. تيبّس حلقها. فتحت إيتا دُرجًا إلى جانب سريرها وأخرجت من حقيبة تجميل صغيرة حمراء تخفيها عن هنري قرصي دواء مدّت بهما يدها إلى سيسيليا، وأدخلت يدها الثانية تحت الوسادة وأغمضت عينيها.

حدّقت سيسيليا في القرصين الصغيرين الأبيضين، ثم وضعتهما

على الطاولة الصغيرة وخرجت من الغرفة. وجدت حقيبة يد أمها في الممر فأخذت ما فيها من قطع نقود معدنية وخرجت إلى الصيدلية. احمرّ وجهها وهي تدفع ثمن الفوَط الصحيّة وأشاحت بوجهها عن الشاب الذي كان جالسًا عند صندوق المحاسبة هناك. عادت إلى البيت وأخذت حمّامًا حارًا. أتت إيتا لكي تستخدم المرحاض لحظة دخولها حوض الحمام الحارّ. بالت من غير أن تفتح عينيها.

وقفت سيسيليا أمام باب غرفة إيتا في وقت لاحق من ظهر ذلك اليوم. ثار في صدرها غضب لم تألفه. اندفعت داخل الغرفة وأضاءت النور. وقفت إلى جوار سرير أمها وشدّت على قبضتيها. أدركت أنها تريد أن تضربها إيتا. إذا صفعتها، فهذا يعني أن لها وجودًا في عالم إيتا الصغير الحزين. هذا أقل شيء ممكن لأن سيسيليا تشعر منذ شهور أنها ميتة في نظر أمها. تحرّكت إيتا واستيقظت. نظرت إليها.

قالت مرتجفة: «اضربيني، يا إيتا. هيا، يا إيتا».

لم يحدث من قبل أن خاطبت أمها باسمها الأول.

لكن وجه إيتا ظل خاليًا من أي تعبير. انتقلت عيناها من وجه سيسيليا المتوتّر إلى مفتاح النور على الجدار، ثم تنهّدت من جديد. أعادت رأسها إلى الوسادة، وأغمضت عينيها. سمعت وقع خطوات هنري في الطابق السفلي متّجهة من الردهة الأمامية إلى المطبخ. كان يبحث عن طعام العشاء، لكنه لم يجد شيئًا. لم يجد أحدًا. قرصا الدواء اللذان أعطتهما لها إيتا لا يزالان على الطاولة الصغيرة عند السرير الصغير. ما كان واضحًا في ذهن سيسيليا السبب الذي جعلها مهتمة بألا يراهما هنري. أخذتهما، ورمتهما في المرحاض، ثم تركت الماء يجري فوقهما.

كان هنري يملأ غلاية الماء عندما دخلت سيسيليا المطبخ. قال لها: «هل هي متوعّكة من جديد؟».

أجابته: «لديها صداع».

كان كلٌّ منهما ماهرًا في الكذب على الآخر، وفي التظاهر بأن الأحوال ليست سيئة بقدر ما هي في حقيقة الأمر. أومأ برأسه وعاد يبحث من جديد عن بقايا طعام في البراد. شغّلت سيسيليا الراديو لكي تملأ صمت المكان، ولكي لا يكونا مضطرين إلى قول المزيد.

- 37 -

لست أدري إن كنت قد انتبهت يومًا إلى ما فيه من أشياء أحيا من أجلها! طريقته في رفع ذراعيه في نومه مثلما يفعل مراهق. رائحة قدميه في آخر اليوم، قبل حمّامه. رفع جسده على ذراعيه عندما يسمع صرير الباب في الصباح، وبحثه المتلهّف عني عبر قضبان حاجز سريره. لم أطلب منك أبدًا تزييت مفصلات الباب لأنني أريد ذلك الصرير.

اليوم، كان صغيري ثقيلًا في بطني. يحدث هذا بعض الأحيان. أيام مختلفة، كثيفة، موجعة تجعل لكل ما هو حولي طعمًا مرًّا. ما أردت شيئًا غيره؛ لكن العالم الحقيقي كان يهدّد بإسكات أصواته، بإخفاء روائحه.

وددت أن أستنشق رائحته عميقًا ثم لا أفلت أنفاسي بعد ذلك أبدًا.

هل يأتيك هذا الشعور أيضًا؟

تلك الأيام الأولى. رائحة الحليب الحامضة، وروائح الجسد. كريم تطرية الحلمتين يخلّف بقعًا على قمصاني. دائرة ظاهرة دائمًا على الطاولة إلى جانب سريري باقية من أثر فنجان الشاي. كنت أبكي من غير أن أفكّر، من غير أن أعرف لبكائي سببًا؛ لكن دموعي كانت تعبيرًا عن الحب. جاء حليبي، وصار ثدياي أكبر وأكثر ثقلًا، وما كنت أبتعد عن تلك البقعة إلا نادرًا. أهدهده حتى ينام على صدري العاري. كان يجفل مرات كثيرة ويقذف بذراعيه النحيلتين عاليًا، ثم يعود إلى التكوّر على نفسه مندسًّا في صدري. ثم نبدأ من جديد. ما عاد هناك نهار، ولا ليل. أحسّ وخزًا في حلمتَي ثدييَّ عندما أفكر في وجبته القادمة.

مع هذا... ما كنت أريد أن تكون لوقتي معه نهاية. كان هو كل شيء

أردته في حياتي. وكانت العلاقة التي جمعت بيننا الأمر الوحيد الذي أستطيع الإحساس به. كنت في شوقٍ شديدٍ إلى ثقله فوقي. أقول لنفسي، *إذًا، هذا هو الأمر. هذا ما ينبغي أن يكون*. كنت أشربه كأنه ماء.

يرفع رأسه من بين ثديّ ويديره يمينًا وشمالًا كأنه يبحث، كأنه يحاول العثور على أمه، كأنه يفتش عن الشخص الذي يحبّه. أخفض رأسي وأضع خدي على خدّه فيطمئن ويهدأ... آمنًا، سعيدًا، شبعًا، شبعًا من حليبي، ومني.

تركت فراشي آخر الأمر، وعاد انتباهي إلى الحياة. صرت أنظّف بقايا إفطار فيوليت، وألعب معها ألعابًا، وأغسل كومة بعد كومة من ملابس متّسخة. لكن عقلي يظل معه عندما لا يكون معي... يظلّ في الأعلى، في غرفته.

لم تُظهِر فيوليت اهتمامًا كبيرًا بسام أول الأمر، مع أنها كانت تنظر منتبهة كلّما وضعته على صدري لكي أرضعه. كثيرًا ما كانت تتحسّس صدرها المسطح عندما تراه يرضع حليبي كأنها حائرة في وظيفة ثديّ المرأة. ثم تخرج من الغرفة عندما ينتهي، وتكون راغبة في البقاء وحدها معظم الوقت.

وفي الأشهر التي أعقبت ذلك، صار سام مجنونًا بحبّها. يُشرق كله لسماع صوتها عندما تخرج من المدرسة ونكون في انتظارها.

أقول له: «ها هي أختك»، فيطوّح بساقيه مشتاقًا إلى أن تكون على مقربة منه، إلى أن يصير وجهها قبالة وجهه. تداعب قدمه، ثم ننطلق عائدين إلى بيتنا، إلى ذلك الجزء من النهار الذي كان أكثر ما أخشاه. ثلاثتنا وحدنا في البيت... حقل ألغام فترة بعد الظهر... ننتظر لحظة دخولك الباب. فقد كان السلام والسكينة يعودان عند عودتك.

أنت وأنا، كنا أبوين، رفيقين، وكنا صانعي هذين المخلوقين البشريين.

لكننا كنا نعيش حياتين مختلفتين اختلافًا متزايدًا، مثلما يجري لدى أكثر الآباء والأمهات. كنت من يفكر ويبتكر ويخترع بيوتًا ومنظورات وفسحات تسرّ العين. كانت مشاغل يومك معنية بالإنارة والارتفاعات وأعمال التشطيب. كنت تأكل ثلاث وجبات في اليوم. كنت تقرأ جملًا مكتوبة للكبار، وترتدي ربطة عنق جميلة جدًا. كان لديك سبب يجعلك تستحمّ.

وأنا كنت مثل جندي يؤدّي سلسلة أعمال جسدية متكرّرة، لا تتغير. تغيير الحفاضات. إعداد الوجبات. تدفئة زجاجة الحليب. سكب حبوب الإفطار في الطبق. رفع بقايا الطعام. التفاوض. التوسّل. تغيير ملابسه. جعلها تخلع ملابسها. أين علبة طعامكِ؟ إلباسهما ثيابهما. السير أسرع. لقد تأخّرنا. أحتضنها مودّعة إياها. أدفع الأرجوحة. أعثر على القفاز الضائع. أدلك الأصابع الباردة. أقدم إليه وجبة خفيفة. أحضّر زجاجة حليب أخرى. أقبّله. أقبّله. أقبّله. أضعه في مهده. أنظف. أرتّب. أبحث. أصنع. أزيل تجميد قطع الدجاج. أحمله إلى الطابق العلوي لكي ينام. أقبّله. أقبّله. أقبّله. أغير حفاضه. أضعه في كرسيه المرتفع. أنظّف وجهه. أغسل الأطباق. ألاعبه. أغير حفاضه. ألاعبه. أضع الوجبات الخفيفة في أكياس النايلون. أشغّل آلة الغسيل. ألبسه ملابسه. أشتري له حفاضات. أشتري سائل غسل الأطباق. أذهب مسرعةً لأخذها من المدرسة. مرحبًا! مرحبًا. أسرعي، أسرعي! أفك حفاضاته. الملابس المغسولة في آلة التجفيف. أجعلها تأخذ دوشًا. انتهى الوقت. من فضلك، أصغي إلى كلماتي. مزيل البقع. الحفاض. عشاء. أطباق. أجيب عن السؤال مرة بعد مرة. أحضّر الحمام. أخلع عنهما ملابسهما. أمسح الأرض. هل تستمعين إلى ما أقول؟ تنظيف الأسنان. العثور على الدمية الضائعة. لبس البيجامات. العناية بها. قصّة. قصة أخرى. وأتابع، وأتابع، وأتابع.

أتذكّر كيف انتبهت ذات يوم إلى مدى أهمية جسدي بالنسبة إلى أسرتنا كلها... لا ذكائي، ولا طموحي إلى أن أصير كاتبة. ما من أهمية أبدًا للشخصية التي تكوّنت خلال خمسة وثلاثين عامًا. الجسد فقط. وقفتُ عارية أمام المرآة بعد أن خلعتَ كنزتي المتسخة بالبازلاء المهروسة التي تقيأها سام. ثدياي ذابلان كتلك النبتة في مطبخنا، النبتة التي كثيرًا ما أنسى أن أرويها. انتفاخ بطني فوق حافة سروالي الداخلي مثل الزبد على حافة فنجان فاتر من الحليب مع القهوة. ليالِيّ كانت كأنها قطع مارشميلو مغروسٌ فيها عود شيٍّ خشبي. كنت في حالة بائسة. لكن الأمر المهم الوحيد هو أن يبقى جسدي قادرًا على أن تظلّ حياتنا كلّنا جارية. كان جسدي محرّكي. نسيت كل شيء عن المرأة التي في المرآة، المرأة التي ما عدت أعرفها. لم يخطر في ذهني يومها أن جسدي لن يكون مفيدًا هكذا في أي وقت لاحق: ضروريًا، معتَمدًا عليه، محبوبًا.

وفي ذلك الوقت تقريبًا، بدا كأنّ الجنس قد تغيّر أكثر من ذي قبل، تغيّر عندي وعندك. صرنا مثل آلتين. صار ذلك شيئًا روتينيًا. تكون في مكان آخر عندما أعلوك. وأنا أيضًا، كنت أترك ذهني يسرح. يسرح إلى المناديل المعطّرة التي سأشتريها؛ إلا أنني نسيت تحديد موعد مع الطبيبة... وأين رأيت تلك الوصفة من أجل إعداد الجزر بالكاري؟ فساتين صيفية. كتب في المكتبة. عليّ أن أغسل هذه الملاءة.

- 38 -

«لا نستطيع فعل ذلك هذا الصباح، يا فوكس. عليه أن يذهب إلى درس السباحة؛ ثم يأتي موعد لعبه بعد ذلك. اعتذرت حتى الآن مرتين عن موعدي مع تلك المرأة. قلت لك هذا في الأسبوع الماضي عندما حجزت موعدًا لفيوليت عند طبيب الأسنان».

قلت لي: «لا أتذكّر أن لدى فيوليت تلك الحياة الاجتماعية الحافلة».

كنت أغلق كيس الحفاضات. كانت منحنية إلى الأرض تربط شريط حذائها بكل عناية، فرفعت رأسها ونظرت إليّ. قذفتَني بنظرة تقول، ليس الآن. لكن ملاحظاتك تلك كانت حاضرة دائمًا. وكانت لديك غيرة كبيرة بالنيابة عن ابنتنا التي ما كانت مهتمة أبدًا بذلك القرب الشديد بين أمها وشقيقها المولود حديثًا. لقد تأقلمت مع هذا وتقبلته ففاجأتنا كلنا... تأقلمت من غير أية مشكلة تقريبًا. التوتر الذي كان بيني وبين فيوليت صار أخف كثيرًا، لست أدري كيف، وكأن كل واحدة منا صار لها الآن متّسع لأن تتنفّس قليلًا. ومن خلال هذا المتّسع الجديد، صارت تبدي لي لمحات من عاطفة، لمحات صغيرة، محسوبة – تقترب مني أكثر عندما أجلس إلى جانبها وقت قصص المساء؛ وترفع يدها قليلًا من أجل تلويحة وداع عند باب المدرسة. بدأنا نحرز تقدّمًا.

المشقة التي أواجهها كانت معكَ أنت. كان منتظرًا منك أن تكون سعيدًا بظهور الأم التي وجدتُها أخيرًا في نفسي عندما جاء سام إلى حياتنا.

زارتنا أمك بضعة أيام في الأسبوع السابق. كنتما في المطبخ معًا تتناولان فنجان شاي بعد العشاء في آخر ليلة لها؛ وكنت أجمع الألعاب المتناثرة في غرفة المعيشة. لا بد أنكما ظننتماني في الطابق العلوي. سمعتك تشكر أمك لأنها أتت. قالت لك إنها تسعَد دائمًا بزيارتنا. وقفتُ ساكنة عندما سمعتها تذكر اسمي - سمعتها تقول إنني أبدو «في روح معنوية أفضل» كثيرًا مما كنت قبل مولد سام.

«إنها تحبّ ذلك الصبي. أتمنّى لو كان لديها ذلك الشعور نفسه نحو فيوليت».

زجرتك أمك، وإن يكن زجرًا لطيفًا. قالت لك: «فوكس!». ثم قالت بعد بضع لحظات: «المرة الثانية أكثر سهولة لدى بعض النساء. يكون تأقلم المرأة أفضل».

«أعرف، يا ماما. لكني قلق على فيوليت. إن عليها...».

دخلت المطبخ أحمل سلة ممتلئة ألعابًا بلاستيكية وألقيت بها على الأرض عند قدميك. فوجئت بهذا، ونظرتَ إلى الألعاب.

«مساء الخير، يا هيلين». لم أستطع النظر إليها.

صبيحة اليوم التالي، قبل أن تذهب إلى المطار، اعتذرتُ هيلين لما سمعتها تقوله في المساء. اعتذرت كأنها لا تزال مسؤولة عنك.

«أموركما، أنتما الاثنان، هل هي بخير؟».

أردتها ألا تقلق علينا فقلت: «لا أستطيع الحصول على كفايتي من النوم، هذا كل شيء».

«عليك أن تأخذها إلى المدرسة هذا الصباح. إنني آسفة. هل لديك مانع؟». انحنيت لكي أشدّ رباط حذاء فيوليت.

«لدي موعد مع أحد الزبائن في الساعة العاشرة. لا أستطيع الذهاب إلى آخر المدينة والعودة مجدّدًا قبل ذلك الوقت».

«حسنًا، تستطيع الوصول إلى مكتبك في الوقت المحدّد إذا لم تأخذها إلى المدرسة. أعطها أقلامًا وأوراقًا لكي تنشغل بها أثناء اجتماعك مع ذلك الشخص. ثم خذها إلى المدرسة بعد ذلك. سيعجبكِ هذا يا فيوليت، ما رأيك؟».

دعكتَ عينيك المغمضتين وتنهّدت. كان سام قد أبقانا مستيقظين طيلة الليل تقريبًا. بدأ ظهور أسنانه. لقد كنتَ دائمًا قادرًا على مواصلة النوم عندما تستيقظ فيوليت في الليل، لكن الظاهر أنك صرت تجد صعوبة في النوم منذ مجيء سام. «لا بأس. هيا بنا يا طفلتي. فلننطلق».

جلسنا إلى العشاء تلك الليلة، فأخبرتني فيوليت بمجريات نهارها كلّه. صندوق الكنوز في عيادة طبيب الأسنان. وثقّابة الورق التي لعبت بها في مكتبك.

«ثم ذهبت لتناول طعام الغداء مع بابا وصديقته».

«أوه، ما ألطف هذا. من هي صديقته؟».

«اسمها جيمي».

لكنك صحّحت لها: «اسمها جيما».

كرّرت من خلفك، جيما.

«هل هي ممن يعملون في المكتب؟». لم أسمع اسمها قبل ذلك.

«هي سكرتيرتي الجديدة. كانت منسجمة مع فيوليت أثناء اجتماعي مع الزبون فدعوتها لكي تتغدّى معنا».

«شيء لطيف. لم تقل لي إن لديك سكرتيرة جديدة. وأين ذهبتم؟».

«ذهبنا إلى مكان فيه أصابع الدجاج. اشترت لي آيس كريم بعد ذلك. اشترت لي أيضًا قلم رصاص عليه وحيد قرن. وممحاة».

«أنت فتاة محظوظة».

«أعجبها شعري».

«وأنا أيضًا يعجبني شعرك. لديك شعر جميل».

«كان شعرها طويلًا، متموّجًا. وعلى أظافرها طلاء وردي». بدأ سام يتململ في كرسيّه المرتفع. وضع يده في فمه. دقّت فيوليت الطاولة بيديها حتى تلفت انتباهه. «سام، انظر. هذا طبل! تم، تم، تم، إنه طبل».

سألتك: «ألا تنظّف الطاولة؟». أخذت سام من أجل حمامه من غير انتظار إجابة منك.

قرأت لها قصة في سريرنا. وكان سام بيننا يلعب بدميته الصغيرة.

أنهيت القصة، لكنّها قالت لي: «واحدة أخرى». تريد المزيد دائمًا. تنهّدت، واستسلمت. نقر سام بأصابعه على زجاجته التي صارت شبه فارغة. *المزيد، المزيد*. كنتَ ترتدي بنطلون الجينز عند حافة السرير.

«ماما، سامي يريد مزيدًا من الحليب».

«هل أنت خارج؟».

أجبتني: «أنا عائد إلى المكتب. لديَّ تقرير لا بد لي من إنجازه اليوم».

«بابا، ألن تضعني في سريري؟».

انحنيت فوق السرير وقبلتنا، ثلاثتنا. قَّبلتنا واحدًا تلو الآخر. رفع سام زجاجته الفارغة.

«ماما ستضعكِ في فراشك، يا حبيبتي. علي أن أذهب الآن. كوني فتاة طيبة من أجل ماما، هل اتفقنا؟».

قالت فيوليت من جديد: «لا يزال سامي يريد الحليب».

قلت مخاطبًا إيانا جميعًا: «أحبكم».

جلست على حافة سريرها لكي أتمنّى لها ليلة طيبة. تحسَّن سلوكها كثيرًا في الآونة الأخيرة. لكنّي لم أقل لها شيئًا عن هذا. لقد بدأت أعتبر هذا الجو المسالم الجديد الذي ساد بيننا أمرًا مفروغًا منه. وأما الزمن الذي سبق مجيء سام، فقد نسيته تقريبًا. لا أكاد أتذكّر الأم التي كنتها

قبل ذلك. الأمومة هكذا دائمًا... لا وجود إلا لما هو قائم الآن. قلق الآن، أو راحة الآن.

بدأ وجهها ينضج، وكانت صورة لما ستصير عليه في مراهقتها. شفتاها مدوّرتان، ممتلئتان. تخيّلتها تقبّل أحدًا. تخيّلتها تحبّ أحدًا. لقد تغيّرت خلال الشهور التي أعقبت ولادة سام. أو، قد أكون أنا من تغيّر. فلعلي صرت قادرة أخيرًا على رؤيتها على حقيقتها.

«فيوليت. أريد أن أقول لك إنك كنت في الآونة الأخيرة فتاة ممتازة جدًّا. أنت رقيقة ولطيفة مع سام. وأنت تقدّمين العون. زملاؤك في المدرسة يحبّونك. أنا فخورة بك».

صمتت. كانت تفكّر. أطفأت المصباح الليلي وانحنيت لكي أقبلها... فتركتني أقبّلها.

«تصبحين على خير. أتمنى لك نومًا هانئًا».

«هل تحبين سام الصغير أكثر مني؟».

شلّتني كلماتها. فكّرت فيك. فكّرت في ما قد تكون سمعته منكَ.

«حبيبتي. بالطبع لا. أحبك مثلما أحبه».

أغمضت عينيها متظاهرة بالنوم. ووقفت أنظر إلى أجفانها المرفرفة.

- 39 -

لم أدرِ أنها كانت في غرفته إلى أن تكلّمت.

كانت الليالي لنا منذ شهور كثيرة، منذ شهور أكثر مما تقول كتب الأطفال إنها فترة عادية. كنت أستيقظ على أبسط صوت آتٍ من مهد سام وكأن صاروخًا قد انطلق في أذني. وقفت في الظلام ورحت أحرّك ردفي من جانب إلى آخر... الإيقاع المعتاد، ورائحة جلدي، وطعم حليبي... كل ما يجعله يعرف أنني إلى جواره. *نم يا ولدي الحلو*. كنت ألمس الزغب الذي على رأسه بشفتي محاذرة إيقاظه. في تلك الليلة التي أتذكّرها الآن، لم يرضع سام إلا قليلًا جدًّا، ولم يرد إلا أن يشعر بحلمة ثديي في فمه. الإحساس بالراحة. هسيس «آلة الصوت الأبيض»... مزيج من الأصوات يشبه صوت موج البحر.

قالت لي: «ضعيه في فراشه». شهقت فأجفل الصغير بين ذراعيّ.

«فيوليت، لماذا أنت هنا؟».

«ضعيه في فراشه».

كانت تكلّمني بصوت هادئ، مباشر. شيء كأنه تهديد. أحسستها واقفة على مقربة من الخزانة، لكن الضوء الخافت المتسرّب من أسفل الباب ما كان كافيًا لأن أراها. استدرت بحركة بطيئة محاولة النظر في الغرفة مرة ثانية. ثم انتظرت حتى أمنح عينيّ زمنًا للتعرف على محتويات الغرفة في الظلام. هذه المرة، جاءني صوتها من الناحية الأخرى من الغرفة.

«ضعيه في الفراش».

«عودي إلى سريرك، يا حبيبتي. إنها الثالثة صباحًا. سوف آتي إليك هناك».

قالت بصوت منخفض بطيء: «لن أعود إلى أن تضعيه في فراشه».

أحسست شيئًا يطبق على صدري... الإحساس نفسه من جديد، القلق الزاحف إليّ. عدت إلى وعيي في لحظة واحدة كأنها أشارت إلي بإصبعها أن أستيقظ من سحرها. تلك النبرة التي كانت تسكنني كأنها شبح. لا *أستطيع الذهاب من جديد معكِ إلى ذلك المكان*. جالت هذه الكلمات في ذهني. جفّ فمي. ما سبب وجودها هنا؟ ماذا كانت تفعل؟

كنت غاضبة وأردت أن أجعلها تدرك سخافة تصرّفها، لكني فعلت ما طلبته مني. وضعت سام في فراشه، وتحسّست ما حول الوسادة بيدي باحثة عن بيني، دميته. يمسك بها دائمًا إلى جانب وجهه. لم أعثر عليها.

«فيوليت، هل تعرفين أين بيني؟». ألقت بالدمية إليّ، ثم خرجت من الغرفة. لقد أخذت الدب الصغير من مهده. كانت واقفة تنظر إليه وهو نائم. كانت قريبة جدًّا منه.

أغلقت الباب من خلفي، ولحقت بها إلى غرفتها. جلست على حافة سريرها. تركت يدي تنزلق تحت سترة بيجامتها المزينة بالفراولة، على جلدها الناعم الحريري. كانت تحب هذه الحركة على ظهرها. تحبّها منك.

«لا تمسّيني. ابتعدي عني».

أخرجت يدي من تحت سترتها. «هل ذهبت من قبل إلى غرفة سام لكي تنظري إليه وهو نائم؟ هل تفعلين هذا أحيانًا؟».

لم تجبني.

كان قلبي ينبض بسرعةٍ عندما عدت إلى فراشي، وتوقفت لحظة عند باب غرفة سام لكي أتأكد من أنه نائم. خجلت من نفسي لما جال في عقلي من أفكار. وبعدها: *أستطيع أن أجلبه إلى سريري. أستطيع ضمان أن يكون آمنًا معي. الليلة فقط. هذه المرة فقط.*

لكنا تجاوزنا هذه المرحلة. من المفترض أن نكون قد تجاوزنا هذه المرحلة.

أخرجت هاتفي من درج الطاولة الصغيرة عند السرير، ورحت أنظر إلى صورها في الهاتف إلى أن بدأت تتقلّب إلى جواري. لقد أزعجك ضوء الهاتف الأزرق.

كنت أنظر باحثة عن شيء في وجهها؛ لكنّي ما كنت عارفة ما أبحث عنه.

ذهبت إلى غرفة سام وأتيت به إلى سريري.

- 40 -

«أنت تعرف أنها كانت ممتازة في الآونة الأخيرة. جاء هذا مفاجأة». كنا في الفراش صبيحة اليوم التالي. الوقت مبكر. سام على الأرض مع كتبه الملونة. كذبت فقلت إن سام لم يهدأ بعد أن كانت فيوليت في غرفته، وإن هذا ما جعلني أجلبه إلى سريرنا. انقلبت صوبك مشتاقة إلى دفئك. مددت يدكَ إلى هاتفك، فرحت أنظر إليك نظرة فاحصة. صدرك، والشعرات الرمادية التي ظهرت، وكيف تفتلها بين أصابعك وأنت تقرأ الرسائل في بريدك الإلكتروني.

«أظنك تصنعين شيئًا من لا شيء... من جديد».

لكن، هذا ما لم تستطع فهمه: ليست كثيرة تلك الأماكن التي لا يذهب إليها عقلي. من الممكن أن تسير مخيلتي سيرًا بطيئًا صوب أشياء لا يمكن التفكير فيها قبل أن أدرك الوجهة التي تتّخذها. أدفع الأرجوحة، أو أقشّر البطاطا، فتأتيني أفكار مخيفة، لكنّي أجد شيئًا مرضيًا في ترك نفسي تذهب إلى هناك... إلى المدى الذي قد تصل إليه فيوليت. ما يمكن أن يحدث. وكيف سيكون إحساسي إذا تحقّق أسوأ مخاوفي. ما سأفعله عندها. ما الذي سأفعله؟ أقول في نفسي، *كفى!* وأعود إلى اللحظة الحاضرة محاولةً تنظيف ذهني: الطفلان. البكاء. الحياة في أعينهما. كل شيء على أحسن حال.

تركت الطفلين مع جليسة الأطفال بعد المدرسة، وذهبت إلى صالون التجميل مع غريس. في ذلك الوقت، كانت جليسة الأطفال تأتينا مرة في الأسبوع لكي أحظى باستراحة صغيرة أشتهيها كثيرًا. انتقيت لونًا

اسمه «تشاركول دريمز» بدا لي متلائمًا مع البرودة الجديدة التي حلت على الطقس، وحاولت ألا أتنفس تنفسًا عميقًا عندما بدأت المرأة تعمل على الجلد المتقرّن عند أطراف أظافر قدميّ. وضعتُ قدمي على فخذها وبدت مستعدّة لعملٍ شاقٍّ - جلد أسفل قدمي سميك يمكن قشره بمقشرة البطاطس. نصحتني باستخدام الجيلي المطري الليلي تحت زوج من الجوارب الثقيلة. لست معنية بجلد أسفل قدمي إلى حد يجعلني أفعل شيئًا من هذا القبيل. كدت أقول لها هذا؛ لكنّي اكتفيت بشكرها على النصيحة لأن هذا هو مدار حياتها كلها... الأقدام.

كانت غريس تتكلّم عن عطلة عادت منها قبل فترة وجيزة. ذهبت مع أمها إلى منتجع كابو المكسيكي احتفالًا بعيد ميلادها السبعين. أعد لهما عامل البار عند بركة السباحة كأسين من مارغريتا الإجاص. ثم قالت شيئًا عن مستحضرين من أجل تسمير البشرة من غير شمس. ما عدت أسمعها. فكّرت في طفليَّ اللذين في البيت، وفي أن جليسة الأطفال قالت إنها سترتب غرفتيهما. فكّرت أيضًا في أن فيوليت ستكون راغبة بدلًا من ذلك في النزول إلى القبو لكي تلعب هناك؛ وسوف يواصل سام بكاءه الاحتجاجي إلى أن يؤخذ إلى القبو، هو أيضًا. في الآونة الأخيرة، صار لا يريد شيئًا غير البقاء على مقربة منها. يمد يديه صوبها كلّما مرّت على مقربة منه، ويناديها من مهده -»باي إيتي! باي إيتي!»- عندما يستيقظ في الصباح. يجعلني تفكيري في لغته المكسّرة أبتسم. انتقلت غريس إلى إخباري عن إخوة لها التقتهم؛ وقالت شيئًا عن أن أحدهم يعمل مُزارعًا في ولاية أيوا. أهناك مَزارِع في أيوا؟ كنت أفكر في ذلك المكان، في قبو بيتنا، حيث سيكون طفلاي الآن. كان القبو غير منجز؛ وكان فيه شيء من الرطوبة. لكنه نظيف بالقدر الكافي لأن يحبو سام في أرجائه... لقد بدأ يتحرّك. اتجه تفكيري إلى أننا في حاجة إلى سجادة جديدة. سجادة قصيرة الوبر، سهلة التنظيف. يلزمنا أيضًا أن نشتري شيئًا نضع فيه

الألعاب. فكّرت في أنك وضعت معدّاتك الرياضية هناك، في الأسفل؛ وتذكّرت كيف كانت حقيبة الغولف كبيرة لا يكاد السلم النازل يتسع لها. تذكّرت أنك وضعت مضاربك في الأسفل، في اليوم السابق... وكيف أن فيوليت تحبّ حمل المضرب والتظاهر بأنها في الملعب. فكّرت في جليسة الأطفال التي تحبّ دائمًا أن تقوم بأعمال التنظيف، مع أني قلت لها إنها ليست مضطرّة إلى ذلك. فكّرت في سام الذي تفتنه كل حركة من حركات فيوليت، وفي ثقل المضرب في يدها. تذكّرت كيف كانت تلوِّح به كأنه سلاح. فكّرت في رأسه الصغير المكتسي شعرًا كالزغب. ما أسهل أن تفعل ذلك! لن يستغرق منها إلا ثانية واحدة. فكّرت في العظم المكسور. هل سيكون هناك دم؟ إصابة في الدماغ، أم نزيف فقط؟ بدأت غريس تخبرني عن دعوة مفتوحة إلى تلك المزرعة أيوا. كانت تفكّر في شهر آذار. بدأت رائحة الأسيتون تزعج رئتيّ، فسحبت قدمِي من بين يدي المرأة. انتهت من طلاء أظافر قدم واحدة فقط. ملت جانبًا حتى أستنشق هواءً نظيفًا، لكن هواء الغرفة كلّه بدا لي مسمومًا. ضاق صدري. كان عليّ أن أذهب. أمسكت بحقيبة يدي وتركت المرأة مذهولة... الفرشاة في يدها. سمعت غريس تناديني، تسألني عن حذائي، وأين أنا ذاهبة. فبدأت أجري. المضارب. من الممكن أن تفعل هذا. سوف تفعل هذا. لن تراقبهما جليسة الأطفال طيلة الوقت. تابعت الجري ولم أتوقف عند إشارتين ضوئيتين حمراوين، بل رفعت يدي حتى تخفّف السيارات سرعتها، بينما كانت قدماي الخدرتان تحملاني إلى بيتي.

صاح بي رجل في سيارة: «سوف تقتلين نفسك».

أردت أن أجيبه، لا، *هي سوف تقتله. إلى هذا الحد تكرهني. أنت لا تفهم شيئًا.*

فتحت الباب بعنف وصحت، «فيوليت». جريت إلى سلم القبو وناديت اسمها من جديد. لم يجبني أحد. «سام! أين هو سام؟».

أتت جليسة الأطفال مسرعة في الممر، واضعة إصبعها على شفتيها.
«سام نائم. وفيوليت في غرفتها تقرأ كتابًا».
استندت إلى الجدار. لم يحدث شيء.
لم يحدث شيء.

- 41 -

«إن نوبات القلق أمر شائع جدًّا. هي أمر شائع عند الأمهات الجدد خاصّة. وهذا أمر طبيعي».

لم أدرِ إن كان ينبغي لي أن أقول لها أكثر. نفخت الطبيبة على نهاية قلمها كأنه حار. حررت لي وصفة طبية، وشرحت لي مواعيد تناول الدواء. عندما غادرت المبنى، كنت أفكر في علب الدواء البرتقالية الشفافة عند أمي، تلك العلب التي كانت ممتلئة أقراصًا صغيرة بيضاء، العلب التي كانت محتوياتها تتناقص على امتداد الشهر.

كنت مدركة أن هناك شيئًا غير طبيعي. في البداية، لاحظت ذلك الخواء في نظرة عينيها كلما وجدتها في غرفة سام، وكيف كنت أحس بعينيها تخترقاني عندما أكون معه. انتقلت طريقة تعبيرها عن كرهها من نوبات الغضب العنيفة المرهقة، التي كانت في ما مضى تجعلني أبكي، إلى برودة مدروسة قادرة على أن تتلاعب بي. كانت طريقتها الهادئة الثابتة في تجاهلي تتجاوز كثيرًا سنها التي قاربت سبعة أعوام. النظرات الجليدية. الازدراء التام. المقاومة السلبية لكل ما أطلب منها فعله: من فضلك، ألا تستطيعين إنهاء عشائك؟ ألا ترفعين ألعابك؟ كانت تكتفي بالابتعاد عني من غير أية ردة فعل، فتتركني غير قادرة على شيء. كانت العقوبات والتهديدات من غير جدوى. وما كان للعواقب أي معنى عندها. اختفى كل أثر لما استطعت كسبه من اهتمامها بعد ولادة سام. ما

عادت تسمح لي بأن أمسها. عدنا إلى حالة التباعد القديمة. وأما أنت، فقد استعدت مكانتك القديمة: الشخص الوحيد الذي تريده في عالمها.

وفي آخر المطاف، تعلّمت كل منا أن تحتمل الأخرى بالقدر الكافي من أجل التعايش. كان ما يلزمها مني قليلٌ جدًّا، بل قليلٌ إلى حدّ جعلها تبدأ التصرّف كأنها فتاة استأجرت غرفة في بيتي، وكان عليَّ أن أقدّم إليها الطعام في أطباق بلاستيكية على صينية لها شكل قلب. انتقل تركيزي إلى سام. إلى نشاطاتنا اليومية، وإلى الأفعال المطلوبة مني عندما لا تكون فيوليت في المدرسة. يعود إليها النشاط كلما عدتَ من عملك في المساء.

كان سام نور حياتي؛ وكنت أفعل كل ما أستطيعه لكي أمنع فيوليت من إطفاء ذلك النور. نعود إلى البيت بعض الصباحات بعد إيصال فيوليت إلى مدرستها، فنتّجه إلى سريرنا الذي لم أرتّبه، ومعنا مجموعة أشياء لا غنى عنها - حليب، شاي، كتب، والدمية بيني. يستطيع غسل الملابس أن ينتظر. تستطيع الفوضى التي في المطبخ أن تنتظر. بدلًا من ذلك، كنا نمضي الوقت في التحديق... يحدّق كلٌّ منا في الآخر. نلعب بالبطّات والديناصورات وبالسرّتَين في بطنَيْنا. وبعد ذلك ننام قليلًا في شمس آخر الشتاء. كان ينام على صدري، حتى بعد فطامه، وبعد أن تغيّرت رائحتي. كان ذلك كأنه يدرك كم أنا في حاجة إليه.

يظلّ القلق بعيدًا عني فترة صغيرة بعد ذلك. احتفظت بالوصفة الطبيّة الخالية في حقيبة يدي. كلما فتحت الحقيبة باحثة عن شيء، أرى تلك الورقة فأفكّر في أمي. ما كنت قادرة على حمل نفسي على الذهاب إلى الصيدلية. ما كنت واثقة من نفسي.

- 42 -

«سيسيليا ليست هنا». أراد أبي أن تبدو كلماته صارمة، لكني سمعت في صوته تلجلجًا... «لست أدري أين هي!». أعاد السماعة إلى حاملها بيد مرتعشة. كنت أقف في الممر أنظر إليه. لقد كذب على من كان يتحدّث في الهاتف. كانت أمي في البيت. لم تترك فراشها منذ حين. لم أدر لذلك سببًا، ولم أدر ما جعل أبي يكذب ردًّا على ذلك الشخص الذي يواصل الاتصال بها. سبقته إلى الهاتف ذات مرة، فانتزع السمّاعة من يدي كأن صوت المتكلّم فيها سيحرق أذني.

كان يأخذ إليها حساء وماء وبسكويتًا. سألته إن كانت مصابة بأنفلونزا المعدة.

«نعم. شيء من هذا القبيل».

كنت في طريقه. تجاوزَني على السلم وسار منحنيًا فوق الصينية التي حملها إليها بانتباهٍ. لم أر أمّي منذ أيام؛ لم أرها منذ أن تأنّقت قبل ذهابها من أجل ليلة من لياليها في المدينة. في ذلك الوقت، كانت تذهب إلى المدينة أكثر من ذي قبل فتمضي الليل كلّه، وتمضي ليلتين أحيانًا. كانت كأنها تختفي. حاولت أن أسمع ما يقولانه من غرفتي، لكني لم أفهم كلماتهما تلك الليلة. بدت ضعيفة، باكية، وكان صبورًا هادئًا. سرت على أطراف أصابعي مقتربة من بابهما.

«أنت في حاجة إلى مساعدة».

ثم صوت ارتطام وتحطم. إنه طبق. لقد رمت صحن الحساء. قفزت مبتعدة عن طريق أبي عندما اندفع وفتح الباب باحثًا عن خرقة. نظرت

في الغرفة فرأيتها في السرير، جالسة، مغمضة العينين. ذراعاها مطويتان على صدرها. رأيت السوار البلاستيكي نفسه الذي رأيته من قبل في معصم السيدة إنغتون عندما لم يستطع الجنين في بطنها أن يُكمل مساره. لكن أمّي كانت منحنية، وكان وسطها مثل وسطي في الحادية عشرة من عمري. ما من احتمال أبدًا في أن تكون راغبة في طفل آخر. مضيت إلى غرفتي وبدأت أستعد للنوم آملة أن تستمر المجادلة بينهما، حتى أستطيع فهم ما يجري. غفوت على صوت بكاء أمي. وفي الصباح، ذهبت إلى الحمام لكي أبول. البيت لا يزال هادئًا. لم يتحرّك أبي بعد عن أريكته. فتحت باب المرحاض. وجدت المرحاض ممتلئًا دمًا. كان فيه أيضًا ما يشبه أحشاء الفأر الذي تتركه قطة جيراننا على شرفتنا أحيانًا. كان سروال أمي التحتي إلى جانب المرحاض. التقطته فرأيت أن البقع البنية الثقيلة عليه كانت دمًا جافًا.

«بابا! ما مشكلة ماما؟».

كان أبي واقفًا يغلي القهوة. لا يزال مرتديًا ملابسه التي كانت عليه الليلة الماضية. لم يجبني. ذهب وجلب الصحيفة من عند باب البيت، ثم ألقاها على الطاولة.

«بابا!».

«لقد أجرت عملية جراحية».

سكبت لنفسي حبوب الإفطار، ورحت آكلها صامتة. رُنّ الهاتف بينما كان يقلب صفحات الجريدة ويشرب قهوته. نهضت لكي أردّ على الهاتف.

«اتركيه، يا بلايذ».

«ماذا؟».

تنهّد وأزاح كرسيه إلى الخلف. صب فنجان قهوة من أجلها وخرج من المطبخ. رُن الهاتف من جديد. رفعت السماعة من غير تفكير.

«أريد أن أكلّمها».

«عفوًا». سمعت ما قيل لي بكل وضوح، لكنّي لم أجد شيئًا آخر أقوله.

«آسف. أخطأت في طلب الرقم». أغلق الرجل الهاتف. سمعت خطوات أبي نازلة السلم فعدت سريعًا إلى حيث كنت جالسة.

«هل أجبت على الهاتف؟».

«لا».

نظر إليّ زمنًا طويلًا. أدرك أنني كاذبة.

ذهبت إلى باب أمي قبل خروجي إلى المدرسة ودققت فيه بهدوء. أردت التحقّق بنفسي إن كانت بخير.

«ادخل». كانت تشرب القهوة وتنظر من النافذة... «سوف تتأخّرين عن موعد المدرسة».

وقفت بعتبة الباب وتذكّرت يوم جلست إلى جانب السيدة إنغتون عندما جعلتني أرى بطنها المنتفخة. كانت لأمي تلك الرائحة الغريبة نفسها. وعلى الطاولة القريبة منها، وجدت علبتيّ دواء جديدتين. بدت لي متعبة، وبدت لي متورّمة. لقد نزعت من معصمها سوار المستشفى الذي رأيته مساء أمس. رأيت كدمات شديدة في أعلى ذراعها.

«هل أنت بخير؟».

لم تبعد عينيها عن النافذة.

«أنا بخير، يا بلايذ».

«رأيت دمًا في الحمام».

بدت عليها الدهشة كأنها نسيت أنني من سكان هذا البيت.

«لا تهتمي لذلك».

«هل كان دمًا من طفل؟».

ابتعدت عيناها عن النافذة، وعثرتا على بقعة في السقف. رأيتها تبتلع ريقها.

«لماذا تقولين هذا؟».

«السيدة إلنغتون. كان لديها طفل، لكنه لم يستطع الاستمرار».

وأخيرًا، نظرت أمّي إليّ. ثم نظرت من خلالي. أطلقت نفثة هواء من بين أسنانها كأنها تصفّر ثم عادت تنظر إلى النافذة وتهزّ رأسها.

«هل تعرفين ما تتحدّثين عنه؟».

ندمت من فوري على إخبار أمي عن السيدة إلنغتون. تمنيت لو تمكنت من استعادة كلماتي وابتلاعها. ما كنت أريد أبدًا أن تكون لأمي صلة بعلاقتي معها. كان ذلك الأمر المقدّس الوحيد في حياتي. خرجت من الغرفة، وذهبت إلى المدرسة. وعندما عدت إلى البيت، بدا لي أن كل شيء قد عاد إلى طبيعته المألوفة. كانت أمي واقفة في المطبخ تحضر طعام العشاء على الموقد. وكان أبي يسكب لنفسه شرابًا. رُن الهاتف المعلّق على الجدار، فرفع أبي السماعة، ثم فصل الخط وترك السماعة متدلية. أصغينا إلى طنين الهاتف الخافت ونحن نتناول طعامنا.

- 43 -

ذهبنا إلى حديقة الحيوانات في اليوم الذي سبق موت سام.

كان في الطقس دِفْءًا غير متناسب مع ذلك الفصل. توقعتْ نشرة الأرصاد الجوية أن يكون يومًا مشمسًا.

استمعنا في السيارة إلى أغنية رافي: زو، زو، زو، *ماذا عنك أنت؟ ماذا عنك أنت؟*

أخذنا معنا طعامًا للغداء، وأخذنا معنا كاميرا جيدة. لكننا نسينا أن نلتقط صورًا هناك.

فيوليت تجذبك من ذراعك طيلة الوقت. تريد منك أن تجري معها إلى الأمام. تريد دائمًا أن تكون متقدّمة. تريد أن تكونا متقدّمَيْن. أنتما الاثنان في مواجهة العالم كلّه. ما كنت قادرة على رفع عينيّ عنكما، من الخلف... وكيف تبدوان متشابهين كثيرًا. شكلكما معًا. وكيف تميل قليلًا إلى أحد جانبيك، إلى حيث تقف فيوليت. كانت دائمًا تمدّ يدها لكي تتحسّس ثنية مرفقك.

أطعمتُ سام عند قفص الدب القطبي. وأما أنت فقد اشتريت لفيوليت عصير التفاح من آلة البيع هناك، لأنها قالت إن علب العصير التي أتينا بها من البيت لها طعم غريب. سرق سنجاب ما بقي من البسكويت في الطبقة السفلية لعربة سام. بكت فيوليت. لم تكن راغبة في وضع القبعة التي اشتريتُها لها. تقيأ سام شيئًا من الحليب، فمسحت له وجهه بمناديل الورق البنية من الحمام لأنني نسيت إحضار مناديلنا المعطّرة. رسمت بإصبعي دوائر على كف يده، ثم جريت بها على ذراعه ودغدغته تحت ذقنه. كانت

ضحكاته كأنها صرخات، ضحكات نشطة، عريضة... ضحكات أعيش من أجلها. امرأة متقدّمة في السن على مقربة منا وفي يدها يد طفل صغير في قفاز. قالت لي: «ما أجمل طفلك هذا! وما أسعده!». أشكرك؛ إنه ابني؛ أنا صنعته؛ صنعته منذ سنة كاملة. كان جزءًا مني... كان كذلك إلى حدٍّ كبير يجعلني أحسّ انقباضًا داخل جسدي في الثواني التي تسبق بكاءه وكأن أحدًا ينفخ بالونًا داخل صدري فتضيق أنفاسي.

سمعتك تقول لفيوليت: «انتظري إلى أن تري هذا»؛ سرنا في الممر إلى ذلك المكان المظلم تحت الأرض، حيث ردّدت الجدران صدى أصواتنا. وقفتما معًا عند الجدار الزجاجي. كنتما مثل ظلّيْن على خلفية الألق الكهربائي الأخضر المنبعث من حوض الماء؛ وكانت شذرات من تراب وحراشف أسماك تعوم من حولكما مثل غبار الطلع المتطاير في الهواء. وقفت خلفكما. سام بين ذراعيّ. أحسست كأنني أنظر إلى أسرة أخرى. أحسست أنكما تخصّانني، أنتما الاثنان. أحسستكما شيئًا مستحيلًا في تلك اللحظة. كنتما في غاية الجمال. وضع الدبّ القطبي مخالب كفّه على الزجاج أمام وجه فيوليت تمامًا. حبست أنفاسها وطوّقت وسطك بذراعيها خائفة، مذعورة، حائرة... ذلك النوع من ردّات الفعل التي لا تراها عند ابنتك إلا مرات قليلة جدًّا. شيء يذكّرك بأنها جديدة على هذا العالم، وبأنها قد تكون غير قادرة على إدراك متى تكون آمنة ومتى لا تكون.

اشترينا لهما أسدين صغيرين من متجر التذكارات، ذكر وأنثى. لكن فيوليت رمت ما حصلت عليه من نافذة السيارة في طريق عودتنا إلى البيت. انتابني الغضب، ونظرت إلى الطريق من خلفنا خائفة أن تكون تلك الدمية البلاستيكية قد اصطدمت بسيارة أخرى. وأنت... صرخت عليها وقلت لها إن هذا تصرفٌ خطيرٌ.

«لا أريد أنثى الأسد. إنها أم. وأنا أكره أمي».

نظرتُ إليك واستنشقت نفسًا عميقًا، ثم أشحت بوجهي. *لا تتوقّفي عند هذا الأمر!* ثم بدأ سام يبكي فتناولت فيوليت دميته بيني التي كان قد رماها وأعادتها إليه. راحت تكلّمه بصوت لطيف حتى هدأ. فقلتَ لها: «أحسنتِ، يا فيوليت».

أحرقت الشمس أنفها. لم أفكّر في جلب الواقي الشمسي لأننا كنا في شهر شباط. عصرت على إصبعي قليلًا من كريم الصبار من عبوة قديمة ووضعتها على أنفها. رحت أحصي النمش على وجهها وأردت أن أضمّها في تلك اللحظة النادرة التي سمحت لي بأن أمسها. نظرت إليّ كأنها لم تسمع أحدًا يَعدّ من قبل. تساءلت إن كان محتملًا أن تعانقني، فانقبضت عضلاتي متأهّبة لما سيكونه إحساسي بها... لم تعانقني منذ زمن طويل جدًا. لكنها ابتعدت عني.

وقفت تنظر عندما كنت أحمّم سام قبل النوم. ثم جلست معي على الأرض وداعبت بطنه وقالت: «إنه طفل جيّد، أليس كذلك؟». ناولته بيني فبدأ يمضغ أذنه في حين جلسَت تنظر إليه صامتة. تركتها تُلبسه بيجامته فكان ذلك امتحانًا في الصبر، امتحانًا لي ولها لأنها نادرًا ما تطلب هذا. قالت بينما كانت تُدخِل ساقه الثانية في البيجاما: «ما عدت أريد سامي». نظرت إليها مستغربة، ثم دغدغت بطنه. ابتسم لفيوليت وطوح بساقيه الممتلئتين. قبّلته على الرغم مما قالته قبل قليل. ثم جلست على غطاء كرسي المرحاض وراحت تنظر إليّ عندما بدأت أدعك لثّته بحافة المنشفة.

قلت لها: «أسنان جديدة تظهر في فمه. قبل أن ننتبه سيكون لديه أسنان أكثر منك... إذا تواصل سقوط أسنانك».

هزّت كتفيها، وذهبتْ باحثة عنك. كنتَ لطيفًا معي تلك الليلة. كنت عاطفيًا معي تلك الليلة. دخلنا غرفتيهما معًا قبل أن نؤوي إلى فراشنا، ونظرنا إلى رأسيهما الناعمين الرائعين.

- 44 -

لست أدري ما جعلنا نخرج قبل الوقت الذي كنت قد قررته لخروجنا. كان يومًا من تلك الأيام الجميلة النادرة: لم يوسّخ أي منهما ثيابه على الإفطار؛ وتركتني فيوليت أمشّط لها شعرها من غير أي اعتراض. لذا، ما كنت مضطرّة إلى الصراخ وقول أشياء لا يجدر بالمرء أن يقولها... *أسرعي! لقد نفد صبري!* كان صباحًا ذا هدوء استثنائي.

نادرًا ما نكون معًا، نحن الثلاثة، في أيام الأسبوع. لكن مدرسة فيوليت كانت مغلقة في ذلك اليوم. أردت التوقّف لتناول الشاي في طريقنا إلى الحديقة. راح صاحب المقهى، جوي، يتحدّث مع فيوليت مثلما يتحدّث معها دائمًا؛ ورحت أضع العسل في فنجان الشاي. ساعدني جوي في إنزال العربة على الدرجتين المرتفعتين عند المدخل قبل أن يلوِّح لنا مودعًا. سرنا إلى ناصية الشارع، وكانت ريح الشتاء المنعشة تهب في وجوهنا.

وقفنا عند التقاطع الذي نجتازه كل يوم تقريبًا. كنت أعرف كل شق في ذلك الرصيف. كنت قادرة على إغماض عينيَّ ورؤية الرسوم على البناء القرميدي الواقع في الناحية الشمالية الغربية.

وقفنا منتظرين تغير لون إشارة المرور. سام في عربته ينظر إلى الباصات العابرة، وأنا وفيوليت واقفتان بهدوء. مددت يدي إلى رأسها متأهبة لردة فعلها القتالية، لكن الظاهر أنها لم تجد في ذلك اليوم أي سبب لأن تعاركني.

قلت لها بدلًا من ذلك: «علينا أن ننتبه عند اقترابنا من الشارع».

إحدى يدي على مقبض العربة. ذراعا سام ممتدتان في اتجاه فيوليت. كان يريد الخروج من عربته. رفعت كأس الشاي من حامل الأكواب على العربة وقرّبته من شفتيّ. لا يزال حارًّا جدًّا، لكن البخار أدفأ وجهي. نظرت فيوليت إليّ أثناء انتظارنا، فظننتها قد تطرح عليّ سؤالًا. متى نصير قادرين على عبور الشارع؟ هل أستطيع العودة لشراء دونات؟ نفخت على الشاي من جديد وهي واقفة تنظر إليّ. أعدته إلى الحامل ثم مسست رأس سام في عربته... تذكرة بسيطة بأنني موجودة معه، خلف العربة، وبأنني أعرف أنه يريد الخروج منها. نظرت إلى فيوليت. ثم رفعت كأس الشاي إلى شفتيّ من جديد.

رأيت قفازيها الورديين يخرجان من جيبها، ورأيتهما يمتدان إليّ. جذبت مرفقي بيديها الاثنتين. كانت حركة شديدة السرعة، شديدة القوة، فأحرق السائل الحارّ وجهي. أسقطت الكأس من يدي وشهقت وأنا أنظر إليها. ثم صرخت: «فيوليت! انظري إلى ما فعلتِه».

لحظة خروج هذه الكلمات من فمي، لحظة وضعت يديّ الاثنتين على جلدي المحترق... تدحرجت عربة سام ونزلت إلى الشارع.

لن أنسى أبدًا عينيها في تلك اللحظة - لم أستطع النظر إلى شيء غيرهما. لكنّي أدركت ما حدث لحظة سماعي الصوت.

تشوّهت العربة بفعل الاصطدام.

كان سام لا يزال مثبتًا بالأحزمة لحظة مات.

ما كان لديه وقت للتفكير فيّ، ولا للتساؤل عن مكان وجودي. اتّجه تفكيري على الفور إلى الأوفرول المخطّط بالأزرق الذي ألبسته إياه ذلك الصباح. فكّرت أيضًا بأن بيني معه في العربة. فكّرت في أنني سأكون مضطرّة إلى أخذ بيني معي إلى البيت من غير سام. ثم تساءلت

كيف أستطيع إخراج بيني من العربة... ألن يكون سام في حاجة إليه حتى يغفو تلك الليلة؟

وسط الفوضى التي أحاطت بي، حدّقت غير مصدّقة في حافة الرصيف، في ذلك الانحدار البسيط للإسمنت، وبعده الأخدود عند تلاقي الأسمنت والأسفلت... كيف لم يوقف هذا الأخدود العربة؟ كان دفء اليوم الماضي قد أذاب الجليد. وكان الرصيف جافًا، فلماذا لم تتوقّف العجلات عندما اصطدمت بالأخدود؟ عادة ما أجد نفسي مضطرّة إلى دفعها بقوة عندما نجتازه، أليس هذا صحيحًا؟ ألا أضطرّ دائمًا إلى دفعها بقوة؟

صرت عاجزة عن التنفّس. حدّقت في فيوليت. لقد رأيت قفازيها الورديين يرتفعان إلى مقبض العربة عندما أفلتّه من يدي. رأيت قفازيها على المقبض قبل أن تصير العربة في الشارع. أغمضت عينيّ. الصوف الوردي، ومقبض العربة المطاطي الأسود. جعلتني تلك الفكرة أهزّ رأسي هزًّا عنيفًا.

لا أذكر شيئًا عما حدث بعد ذلك، ولا عن كيفية ذهابنا إلى المستشفى. لا أذكر أنني رأيته، ولا أنني لمسته. ليتني فككت الأحزمة عنه، واحتضنته هناك، على الأسفلت البارد. ليتني قبّلته مرّة بعد مرّة!

لكنّي أظنني بقيت واقفة هناك فحسب... بقيت واقفة عند حافة الرصيف، محدّقة في ذلك الأخدود.

كانت أمٌّ مثلي تقود سيارة الدفع الرباعي ومعها طفلاها في المقعد الخلفي. طفلان في مثل سن طفلي. كانت إشارة المرور خضراء أمامها فظلت منطلقة. من الطبيعي أن تظل منطلقة فلعلّها فعلت ذلك ثلاثة آلاف مرّة من قبل. توقّفت السيارتان القادمتان من الاتجاه الآخر عندما شاهد

سائقاهما العربة في الشارع، لكن تلك المرأة لم يسنح لها وقت لكي تتوقّف. بل إنها لم تضغط على المكابح أصلًا. أتساءل دائمًا عما كان في رأسها من أفكار عندما حدث ذلك. هل كانت تغني مع طفليها، أم تجيب عن أسئلتهما المضنية التي لا تنقطع؟ لعلّها نظرت في المرآة وابتسمت لطفلها الصغير! لعلها كانت تحلم أحلام يقظة وتفكر في أنها تفضل أن تكون في أي مكان آخر غير تلك السيارة حتى لا تسمع زعيق طفليها.

***

ليت الألم كان أشد وقعًا. ليتني لا أزال قادرة على الإحساس به كأن الأمر قد حدث اليوم. تمرّ بي لحظات ينجلي فيها الألم عني فأقول في نفسي، يا إلهي، إنني ميتة في داخلي! لقد متّ معه! متّ يوم مات! كنت أمضي كل ساعة من كل يوم محدّقة في أشيائه، مستدعية ذلك الألم حتى يعود ويغمرني. أتألم وأبكي لأنني لا أتألم كثيرًا. ثم تأتي بعد ذلك أيام فيها طوفان من الألم، أيام تزداد فيها حيوية العالم قليلًا، تزداد على نحو أمقته. أشم رائحة خبز الموز من الشقة المجاورة فتشلني تلك الرائحة... يشلّني أنني قادرة على الشم، وأن ريقي يتحلّب عندما تأتيني الرائحة، وأن هناك امرأة إلى الجانب الآخر من الجدار تعيش ذلك النوع من الصباحات، الذي يسمح لها بإعداد خبز الموز لأطفالها. لقد كان الخدر مسيطرًا عليّ. وما كان الغياب البشع للألم إلا خدرًا. ثم يأتي بعد ذلك وقت أتمنّى فيه أن يعود إلي خدري. صحيح أنني كنت أجد في الألم ما يرضيني، لكني كنت مدركة أنني غير قادرة على احتمال استمراره.

عندما لحقتَ بنا إلى المستشفى، جذبت فيوليت إليك وضغطت رأسها إلى صدرك. ثم رفعت رأسك ونظرت إليّ وفتحت فمك لكي تتكلّم، لكنك لم تقل شيئًا. حدّق كل منا في الآخر ثم بكينا. خلصت

فيوليت نفسها من بين ذراعيك ثم جاءت إليّ. جثوت على الأرض وهويت على ساقيك.

كانت فيوليت تنظر إلينا صامتة. أتت إليّ ووضعت يدها على رأسي.

«أفلتت عربة سامي من يد ماما فصدمتها سيارة».

أجبتَها قائلًا: «أعرف، يا حبيبتي. أعرف هذا».

كنت عاجزة عن النظر إليك، أو إليها.

عاد عناصر الشرطة وطلبوا أن يتكلموا معك حتى يشرحوا لك ما شرحوه لي. لن يوجّه اتّهامًا إلى المرأة التي كانت تقود تلك السيارة. وعلينا أن نتخذ قرارات في شأن جثمان طفلنا. في شأن أعضائه. قالوا إن ثلاثة أعضاء ستكون صالحة لأن تُزرع في أجساد أطفال آخرين، من أجل أمهات أجدن أداء مهمة المحافظة على أطفالهنّ أحياء أكثر مما أجدتها. أعطتني ممرضة قرص دواء لكي يهدّئني.

أخذتَ فيوليت إلى آخر الممر حيث كان براد الماء. وبينما كنتَ تملأ لها كأسًا بلاستيكية مخروطية الشكل، تقيأتُ في سلّة المهملات الممتلئة قفازات طبية مستعملة وعلب أدوية فارغة. أصغيت إلى نحيبك في الممر قادمًا عبر الباب الزجاجي الثقيل الفاصل بيننا وبين بقية منطقة الانتظار. وقفت فيوليت تنظر إليّ وتنقل ثقل جسدها من قدم إلى أخرى. لم تجرؤ على الكلام معي. كنت أدرك أنها في حاجة شديدة إلى التبوّل، لكني أردتها أن تبول في ثيابها. نظرت إلى بنطلونها يتحول لونه ويصير داكنًا من انتشار بقعة البلل عليه. لم أقل لها شيئًا؛ ولم تقل لي شيئًا.

كنت قد تحدّثت مع الشرطة بتلك النبرة التي يتحدّث بها المرء مع بائع سندويتشات عبر نافذة السيارة. *جذبت ابنتي ذراعي، فأحرقني الشاي. أفلتت يدي العربة. ودفعتها ابنتي إلى الشارع.*

ألديك شيء آخر، يا سيدتي؟

لا، هذا كل شيء.

ما كنت قادرة على الكذب من أجل حمايتها. طلبوا مني تكرار ما قلته عدة مرات. لعلهم كانوا يبحثون عن شيء من علامات الصدمة. أو من عدم اتساق في أقوالي. لعلهم وجدوا شيئًا من هذا. لست أدري. لست أدري ما قالوه لك بعد ذهابي. لكني عدت، فجئنا واحد منهم ووضع يده على كتف فيوليت الصغيرة، وقال لها: «تقع الحوادث، يا فيوليت، أليس كذلك؟ تقع الحوادث، ولا يكون أحد مذنبًا فيها. ماما لم تفعل شيئًا خاطئًا».

«أصغي إليه، يا بلايذ. لستِ مخطئة في شيء». كررتَ ما قاله واحتضنتني.

قلت لك بصوت خافت عندما رحت تضع مرهمًا على جلدي الذي أحرقه الشاي الحار، «أظنها دفعته». ما كنت قادرة على أن أحسّ شيئًا... «أظنّها دفعته إلى الشارع. قلت هذا للشرطة».

أجبتني كأنك تكلّم طفلة صغيرة، «ششش. لا تقولي هذا. من فضلك. لا تقولي هذا».

«رأيت قفازيها الورديين على مقبض العربة».

«يا بلايذ، لا تفعلي هذا. لقد كان الأمر حادثةً. لقد كانت حادثة. كانت حادثة فظيعة».

«لا بد أن العربة تلقّت دفعة. لولا ذلك، لما استطاعت تجاوز الأخدود».

نظرتَ إلى الشرطي، وهززتَ رأسك وأنت تمسح الدموع عن وجهك. تنحنحت كأنك تريد أن تقول شيئًا. تقلّصت شفتا الشرطي الشاحبتان المتشقّقتان. أومأ إليك إيماءة فيها نوع من التفهّم. الأم غير المنطقية. الأم غير القادرة على رعاية ابنها. *انظر... عليّ أن أضع هذا المرهم على جلدها. عليّ أن أسكتها وأهدّئها.*

تظاهرت فيوليت بأنها لم تسمع شيئًا مما قلته. راحت ترسم زهورًا

على لوح معلّق إلى جانب مخطّط لأعضاء بشرية رسمها أحدهم عندما لم أكن موجودة. لعل زوجي رسمها حتى يفهم ما يريدونه من أعضاء ابني. بدا لي المخطّط شبيهًا بخريطة البحيرات الكبرى. قال الشرطي إنه سيتركنا في الغرفة وحدنا بعض الوقت.

بعد ذهابه، عدت تقول لي ببطء، بصوت متكسّر: «يا بلايذ. كانت هذه حادثة. كانت حادثة فظيعة».

وأنا كنت وحدي.

في طريقنا إلى الحديقة في الأسبوع الماضي، كانت فيوليت قد طرحت عليّ سؤالًا عند تلك الزاوية نفسها، سؤالًا كانت عارفة الإجابة عنه.

«هل تتوقّف السيارات فقط عندما تكون الإشارة حمراء؟».

«أنت تعرفين هذا لأنك بلغت السابعة. تعرفين أن السيارات تتوقّف عند الإشارات الحمراء كلّها. ويعني الضوء الأصفر أن على السائق أن يكون منتبهًا لأن الإشارة ستصير حمراء. هذا هو السبب في أن اجتياز الشارع قبل أن تتوقّف السيارات توقّفًا تامًّا عند الإشارة الحمراء شيء خطير جدًّا».

استمعت إلى ما قلته وأومأت برأسها.

قلت في نفسي وقتها إنها صارت شديدة الفضول إزاء العالم المحيط بها. وتساءلت إن كان علينا تعليمها شيئًا عن الخرائط. نستطيع السير في الحيّ والنظر إلى أسماء الشوارع والاتجاهات. كم سيكون ممتعًا أن نفعل ذلك معًا.

لكني جلست في الغرفة العائلية في قسم الطوارئ في المستشفى، ورحت أعيد التفكير في سؤالها. أخذتَ فيوليت إلى البيت؛ لكنّي لم أستطع الذهاب معكما. جسد ابني لا يزال في ذلك المبنى.

هل هو تحت ملاءة؟ هل هو في القبو؟ هل هو على واحدة من تلك الصواني التي تنزلق في الجدار مثلما تنزل الصواني في الفرن؟ هل وضعوا ابني على رفّ فرن؟ وهل كان يشعر بالبرد؟ ما كنت أدري أين وضعوه، لكنهم لم يسمحوا لنا برؤيته. كان بيني في كيس بلاستيكي في حضني. وكان ذيله الأبيض ملطّخًا بالدم.

- 45 -

أمضيت أحد عشر يومًا أتقيأ أي شيء آكله. أبكي في أحلامي، ثم أستيقظ وأبكي في الظلام. يرتعش جسدي كلّه، ويظلّ ساعات مرتعشًا.

أتى إلينا صبيحة يوم أحد طبيب في ملابس عادية. كان شخصًا ممن صممتَ لهم بيوتهم، وأراد أن يقدّم لك معروفًا. قال إن معدتي قد التقطت عدوى، وإن الأمر ليس حزنًا فحسب لأن جهاز المناعة يضعف أحيانًا عندما يمر الإنسان بظروف صعبة كهذه. قبلتَ كلامه وشكرته بزجاجة نبيذ عند خروجه. وأما أنا، فما كنت مبالية بما سمعته إلى الحدّ الذي يجعلني أقول لكما أن تبتعدا عني.

أتت أمّك لكي تقيم معنا. كانت تحمل إليّ الشاي والمناديل والحبوب المنوّمة، وكذلك قطع قماش باردة تضعها على وجهي. وكنت أقول لها ما لا بد من قوله حتى تخرج من الغرفة وتتركني. *سأكون بخير. أعد بهذا. لست في حاجة إلا إلى البقاء وحدي بعض الوقت*. بذلَتْ كل ما استطاعَتْه، لكن حضورها كان يشغل مكانًا في ذهني ويلهيني عن الأمر الوحيد الذي أردت التفكير فيه. يلهيني عنه. كان الغضب يجعل التنفّس صعبًا. وكان الحزن يجعلني أجد مشقّة في فتح عيني وفي ترك الضوء ينفذ منهما. كانت الظلمة مكاني؛ وكنت مدينة للظلمة.

أخذتْ أمك فيوليت إلى أحد الفنادق لكي تقيما هناك بضعة أيام لاعتقادها بأن ذلك التغيير سيكون مفيدًا لها. لم أرها منذ أن كنا في المستشفى. صبيحة يوم ذهابك لكي تأتي بها، جلست تحت النافذة في غرفة نومنا أحمل واحدة من سكاكين تشكيل الخشب التي تركتَها

على طاولة مكتبك. رفعت قميصي وحززت جلدي من أضلاعي حتى وسطي. ناديت سام إلى أن بُحَّ صوتي. رسم الدم خطًا متقطّعًا؛ وكان طعمه نتِنًا كأنني بدأت أتعفّن في داخلي لحظة مات. لكنّي لم أستطع الكف عن وضعه على لساني. لطخت بالدم بطني كله، وثدييَّ، وأردت المزيد. أردت الإحساس بأنني قد قُتلت، وبأن أحدًا قد انتزع مني حياتي وتركني أموت.

سمعت صوت فيوليت في الطابق السفلي، فكان عليَّ أن أشبك يديّ بقوة معًا حتى أوقف ارتجافهما. أقفلت باب الحمام، واغتسلت، وارتديت قميصًا كنت قد اشتريته قبل أسبوع من موت سام. أخذته معي يومها، تحت المطر الصقيعي، لكي أشتري ذلك القميص لأنني شعرت كأنه لم يعد لدي شيء أرتديه... اشتريته عندما كان هذا النوع من الأمور يبدو كأنه مشكلة. نسيت أن أجلب له شيئًا يأكله. ثم نفد صبري وأنا أحاول إلهاءه عن جوعه في صف الانتظار الطويل. جعلته أيضًا يتأخّر عن موعد قيلولته.

سمعتك تقول لها في الأسفل: «ماما في الأعلى». نادرًا ما تدعوني ماما، ونادرًا ما تدعوني ابنتي بهذا اللقب أيضًا.

كنتَ مرتديًا بنطلونًا أسود وقميصًا خفيفًا أحمر. بقيتَ أسابيع بعد موته لم تغير ملابسك. وكان هذا الأمر الوحيد الذي جعلك تبدو مختلفًا عن ذي قبل، مع علمي أنك كنت تحترق في داخلك. سمعت خطواتك بين غرفة سام وغرفة نومنا وغرفة فيوليت والمطبخ. لم تدخل غرفته أبدًا. جولة في أرجاء البيت، وصرير الأرضيات نفسه، والأصوات نفسها: انهمار الماء في المرحاض، وفتح نافذة الممر، وإغلاق باب البراد. لعلك كنت منتظرًا أن يقول لك أحد إن الحياة يمكن أن تستمرّ، وإنك قادر على العودة إلى ضبط الساعة المنبّهة على موعد الاستيقاظ من أجل عملك الذي تحب... إنك قادر على استئناف لعب البيسبول

أيام الثلاثاء والضحك بصوتٍ مرتفع مع فيوليت مثلما كنت تفعل في ما مضى. أو... لعلك ما كنت تتوقّع أنّ تستطيع العثور من جديد على هذه المسرّات في حياتك.

أتعرف أنك لم تكلمني إلا أربع مرات؟ أربع مرات خلال أسبوعين تقريبًا. كانت رؤية كل منا الآخر منطوية على ألم يصعب احتماله كثيرًا.

-1 قلت إنك لا تريد جنازة؛ فلم نُقِم جنازة.

-2 أردتَ أن تعرف أين وضعتُ زجاجة فيوليت الحافظة للحرارة.

-3 قلت لي إنك اشتقت إليّ، ثم استلقيت على السرير إلى جانبي، عاريًا مبتلًا بعد استحمامك. بكيتَ قرابة ساعة كاملة. رفعت حافة البطّانية من أجلك... الدعوة الوحيدة التي وجّهتها إليك منذ مات، فانقلبت مقتربًا منّي. ضممت رأسك إلى صدري مدركة أن لا مكان لك في داخلي ذلك اليوم، بل ربما إلى الأبد (كانت تلك آخر مرة تقول لي فيها هاتين الكلمتين -اشتقت إليك- من تلقاء نفسك. لكنك بقيت بعد ذلك شهورًا تكرّر: «بالطبع، اشتقت إليه»... تقولها كلّما استجمعت شجاعتي لكي أسألك).

-4 سألتني إن كنت قادرة على تحضير طعام العشاء من أجل فيوليت ليلة عودتها من الفندق لأنك ستخرج. قلت إنك ستخرج من البيت عند الساعة الخامسة. قلت لك إنني لا أستطيع فعل ذلك، فخرجتَ من الغرفة.

كرهتك لمحاولتك أن تكون طبيعيًا. كرهتك لأنك تركتني هناك معها، وحدنا، بين جدران بيت سام.

أبدًا لم تصعد فيوليت إلى الطابق العلوي. أبدًا لم أنزل.

عندما استيقظت صباح اليوم التالي، ورأيت أنك أخذت اللوحة من غرفته وأسندتها إلى الجدار القريب من رأس سريرنا، شعرت لحظة بأنني

صرت من غير وزن. كفَّ الألم عن النبض في عظامي. لقد أمضيت قرابة سنة كاملة محدّقة في لوحة الأم وابنها وأنا أهدهده وأطعمه وأهمس بالأغنيات في أذنه الصغيرة. أدركت عندما رأيت اللوحة أنني سأعيش، وأنني لا أعرف لذلك سببًا. أدركت أنني سأزحف خارجة من هذا المكان الذي سحق كل ذرّة منّي، وكرهتك بسبب هذا. ما أردت أن أشعر من جديد بأنني طبيعية.

سرت إلى غرفة فيوليت بملابسي الداخلية، وكانت ساقايَ ثقيلتين كثيرًا. فتحت بابها فرأيتها تتقلب تحت ملاءاتها. رفرفت عيناها، ثم انفتحتا متقلّصتين في النور الآتي من الممر.

«انهضي».

وضعت لها حبوب الإفطار، ونظرت في أرجاء المطبخ. كان أحدٌ قد أبعد كرسيه المرتفع، وزجاجاته، وملعقته الصغيرة الزرقاء المصنوعة من السيليكون، وقطع البسكويت المالح التي كان يحبها. سمعت قدميّ فيوليت سائرتين في الطابق العلوي صوب الحمام حيث كنت تحلق ذقنك.

لم أدرِ ما جعلك تضع تلك اللوحة في غرفتنا؟ ولم نتكلّم في الأمر أبدًا. إنها الآن في غرفة نومنا، هنا، معي، في هذا البيت الخاوي. صرت لا أكاد أميّز تفاصيلها، مثلما لا أميز لمعان صنابير الماء أو باب غرفة الغسيل الذي يفتح إلى الخارج. لكن تلك المرأة، تلك الأم، كانت تنظر إليّ من حين لآخر. تصيبها الشمس في الصباح فتظلّ ألوان ملابسها متألّقة عدة ساعات.

- 46 -

بعض الأيام، عندما لا أطيق البقاء في البيت زمنًا أطول، كنت أذهب بالمترو من أول الخط إلى آخره. أحببت الظلمة خارج نوافذ العربة. وأحببت أن ما من أحد هناك يكلّم أحدًا آخر. كانت حركة القطار تهدّئني. رأيت ملصقًا معلّقًا على لوحة إعلانية على رصيف المحطّة فالتقطت له صورة بهاتفي.

وبعد يومين من ذلك، قادني العنوان إلى قبو كنيسة. كانت الغرفة باردة، فلم أخلع سترتي، مع أن معاطف الجميع كانت مصفوفة على علاقات معدنية متدلية من مشجب في الزاوية. أردت طبقة إضافية بيني وبين البرودة الرطبة المنبعثة من الجدران الإسمنتية البيضاء. أردت طبقة إضافية بيني وبينهم. الأمهات. كانت هناك إحدى عشرة أمًّا. وكان هناك إبريق قهوة وبسكويت بالزنجبيل وعبوات مبيّض القهوة في سلة فيها مناديل عيد الميلاد مع أننا في شهر نيسان. رأيت كراسي برتقالية من البلاستيك من ذلك النوع الذي كانوا يضعونه صفوفًا في الصالة الرياضية في مدرستي الثانوية. شيء دَنِس كان محفورًا في المقعد الذي جلست عليه. هناك كنا، مجتمعات، أنا والأمّهات.

طلبَت منّا قائدة المجموعة التي كانت امرأة نحيلة إلى حد يصعب تصديقه ولها خصلات شعر متدلّية حتى كتفيها. طلبت منا أن نقدم أنفسنا. كانت جينا في الخمسين. هي أم وحيدة لثلاثة أطفال. وقد قتل ابنها الأكبر شخصًا في ملهى ليلي منذ شهرين. قتله بمسدس. كان في انتظار المحاكمة؛ لكنه سيقرّ بأنه مذنب. بكت وهي تتكلّم. كان جلد

وجهها جافًا فجعلته دموعها يبدو داكن اللون. حفرت الدموع أنهارًا في وجهها. ليزا الجالسة إلى جانبها راحت تربّت على يدها مع أن ما من معرفة سابقة بينهما. ليزا كانت الأقدم في المجموعة. وكانت ابنتها محكومة بخمس عشرة سنة لأنها حاولت قتل صديقتها. لم يمض عليها في السجن إلا قرابة سنتين. لقد كانت ليزا أمًّا متفرّغة لبيتها منذ ولادة ابنتها. كان صوتها رقيقًا؛ وتتوقّف لحظة قبل آخر كلمة من كل جملة تقولها. رأيت تحت عينيها نصفَيّ دائرتين مسودّتَين كلون الخوخ.

كان دَوْري بعدهما. تذبذب ضوء مصباح النيون قبل أن أبدأ الكلام فتساءلت في سرّي إن كان انقطاع للكهرباء سينقذني. قلت لهم إن اسمي مورين، وإن لديَّ ابنة في السجن بتهمة السرقة. كانت السرقة أهون ما استطعت التفكير فيه. لم تبدُ لي السرقة أكثر من غلطة مشؤومة، وكأن الناس جميعًا يفعلونها، لكنهم لا يُضبَطون متلبّسين بها. كان ذلك كأنني لا أزال قادرة على أن أكون أمًّا لشخص طيب، يمكن أن يحبه الناس.

لا أستطيع الآن تذكّر التفاصيل التي قالتها كل واحدة من الحاضرين، لكنّي أتذكّر أنني سمعت شيئًا عن الاغتصاب، وعن بضعة اتهامات بحيازة مخدرات. سمعت أيضًا إحداهن تقول إن ابنها قتل زوجته بمجرفة الثلج. قالت إن تلك كانت جريمة ستيرلينغ هوك، وكأننا ينبغي أن نكون قد قرأنا كلنا خبرًا عنها في الصحف. لكنني لم أسمع عنها قبل ذلك أبدًا. ذكّرتنا قائدة المجموعة بأن علينا ألا نذكر أسماء عائلاتنا، وألا نقدّم معلومات عن أنفسنا. ينبغي أن نظلّ مجهولات.

فتّشت في وجوههنّ جميعًا باحثة عن شيء مألوف لي.

قالت واحدة من الأمهات: «أشعر كأنني الشخص الذي ارتكب الجريمة. هكذا يعاملني الحرّاس في السجن. هكذا يعاملني المحامون. ينظر إليّ الجميع كأنني الشخص الذي أقدم على فعل شيء خاطئ.

لكنني لم أفعل شيئًا خاطئًا». توقّفت لحظة قبل أن تضيف... «لم نفعل شيئًا خاطئًا».

«ألم نفعل شيئًا خاطئًا؟»، قالت هذا واحدة من الأمّهات بعد أن فكّرت. هزّت بعض النساء أكتافهنّ، وأومأت بعضهنّ برؤوسهنّ، وظلّت بعضهنّ ساكنات. بدت قائدة المجموعة كأنها تعدّ في سرّها حتى العشرة... لعلّه أسلوب تعلّمته في برنامج التدريب على العمل الاجتماعي. ثم ذكّرتنا بأن هناك بسكويتًا من أجل فترة الاستراحة.

ناولتني ليزا ذات الظلَّيْن الأسودَيْن تحت عينيها منديلًا ورقيًا لكي أمسح بها قطرات القهوة التي سقطت على يدي عندما ملأت كأس الستيروبور الصغير وقالت لي: «هل ستأتين في الأسبوع القادم؟».

«لست أدري بعد». كان جبيني يتفصّد عرقًا. ما عدت قادرة على البقاء مع تلك النسوة في الغرفة. كنت أريد أن أرى أمّهات أخريات مثلي، أمهات فعل أطفالهنّ شيئًا شريرًا كذلك الذي فعله طفلي. لكن جدران ذلك القبو صارت كأنها تضيق من حولي. بحثت في حقيبة يدي عن الوصفة الطبية التي لم أملأها بعد. لكن أصابعي أحسّت نعومة حفاضه. أحمل دائمًا في حقيبة يدي واحدًا من حفاضاته.

«أنا في مجموعتين اثنين. تأتي المجموعة الأولى أيام الاثنين؛ ولديّ دائمًا عمل مساء يوم الاثنين. لذا، لا أستطيع القدوم إلا إذا وافق أحدهم على تبديل نوبة عمله معي».

أومأت برأسي وشربت القهوة الفاترة.

«وابنتك... هل هي محبوسة في مكان قريب تستطيعين الذهاب إليه بالسيارة؟».

«نعم». ومن جديد، نظرت من حولي باحثة عن باب الخروج.

«وأنا مثلك. هذا يجعل الأمر أكثر سهولة، أليس كذلك؟ هل تذهبين إليها كثيرًا؟».

«عفوًا... أين الحمام؟».

أشارت بيدها صوب السلّم، فشكرتها. كنت توّاقة إلى الخروج من ذلك القبو.

قالت لي: «نحن لسنا سيئات جدًّا. توقفت عند الباب... «سوف ترين هذا بنفسك إن قررت العودة بعد ذهابك إلى الحمام».

«هل تعرفين هذا دائمًا؟». خرجت الكلمات من فمي كأنها أسنان اقتُلعت من فكّي اقتلاعًا. لكن، كان لا بد لي من سؤالها.

«أعرف ماذا؟».

«هل كنت تعرفين دائمًا أن لديها مشكلة؟ عندما كانت صغيرة؟».

رفعت المرأة حاجبيها ونظرت إلي. أظنّها عرفت وقتها أنني كذبت عليهنّ.

«ابنتي ارتكبت غلطة. ألم ترتكبي أية غلطة في حياتك، يا مورين؟ ماذا بك؟ كلنا بشر».

- 47 -

كانت هذه المدينة خانقة. أردت الذهاب. أردت قيادة السيارة. انقضى اثنان وعشرون أسبوعًا، ولا أزال أجد صعوبة كبيرة في السير في هذه الشوارع. لا أزال أجد صعوبة كبيرة في التفكير. تمنّيت أن نجلس في سيارتنا، كلانا، فنسير ميلًا بطيئًا بعد ميل بطيء، ونبتعد عن هذا المكان بعض الوقت. البحر. الصحراء. *أي* مكان، هكذا قلت لك، فلنذهب فقط. لكنّك لم ترد مغادرة المدينة. قلت إن هذا لا يبدو أمرًا صائبًا، ليس من غير فيوليت، ثم إن ألفة البيت هي ما تحتاج إليه الآن.

لم أكن قد نظرت إليها منذ موته. عدت إلى قضاء أيامي في الفراش. وعندما لا أكون فيه، أكون واقفة في المطبخ أنظر إلى الأواني في المجلى غير قادرة على غسلها. كنت غير قادرة على فعل أي شيء.

تذكاراته في كل مكان من حولي. لكن أكثر ما يذكّرني به كان حيًّا فيها. الثغرة الصغيرة بين سنتيها الأماميتين. رائحة ملاءات فراشها في الصباح. البيجاما المخطّطة التي كانت مصرّة على ارتدائها طيلة الوقت، تلك البيجاما الشبيهة بالأوفرول الذي مات فيه. السير إلى المدرسة. ماء الحمّام.

تلك اليدان.

كنت شديدة التوق إلى العثور عليه فيها مهما يكن ذلك مؤلمًا. وكنت أكرهها لهذا السبب عينه.

ما عاد أحد يتحدّث عنه أبدًا... ولا حتى اصدقاءنا... ولا حتى جيراننا... ولا حتى أباك وأمك... ولا حتى أختك. كانوا يسألوننا عن

أحوالنا، ثم تتألّم عيونهم تعاطفًا معنا؛ لكنهم ما كانوا يذكرون اسمه أبدًا. وما كنت أريد منهم شيئًا غير أن يقولوا اسمه.

«سام». أحيانًا، كنت أقول اسمه بصوت مرتفع عندما أجد نفسي وحيدة في البيت... «سام».

وصلني بعد شهرين من موت سام إيميل من أم الطفل الذي مات في ملعب الأطفال منذ سنتين. قفز قلبي عندما رأيت اسمها.

إنني أدعو أن تتمكني، مثلي، من العثور على سبيل لمتابعة الحياة. لست أدري كيف، لكني اهتديت آخر الأمر إلى إحساس بالسكينة، حتى في حزني.

لكن تلك السكينة التي كتبت عنها ما كانت موجودة عندي. حذفت تلك الرسالة.

«لعلّه يجدر بك أن تبتعدي بعض الوقت، وحدك». كلّمتَني من باب الحمام. غطست أكثر في ماء الحوض حتى تصير أذناي مغمورتين.

سألتك تلك الليلة عما عنيته بذلك. أين أذهب؟ أذهب! أردتني أن أذهب.

«هناك أماكن تستطيع مساعدتك. تستطيع مساعدتك في احتمال هذا الأسى. مراكز استشارة نفسية».

تجهّم وجهي وقلت: «إعادة تأهيل!».

«بل شيء مثل مراكز العافية. لقد وجدت واحدًا في الريف. لا يبعد إلا بضع ساعات». ناولتني شيئًا مطبوعًا على ورقة من أوراق مكتبك الثقيلة... «إن لديهم مكانًا شاغرًا الآن. لقد اتصلت بهم».

«لماذا تريد ذهابي؟».

جلست على حافة السرير، ووضعتَ رأسك بين يديك. ارتعشت الأضلاع في ظهرك، وبدأت دموعك تقطر على سروالك التحتي... بطيئة، منتظمة مثل قطرات صنبور مطبخنا. كان في داخلك اعتراف لا

يزال غير ناضج، شيء ثقيل قابض على أحشائك، شيء لم يُقَل بصوت مسموع بعد. رجوتك صامتة، *لا تفعلها*. من فضلك، *لا تفعلها*. *لا أريد أن أعرف*. دعكت ذقنك وحدّقت في لوحة غرفة سام المستندة إلى الجدار.

قلت: «سوف أذهب».

- 48 -

كانت لديهم جلسات تأمّل بمساعدة المؤثّرات الصوتية، وحلقات تعافٍ بالطاقة، ودروس عن النحل، وأرجوحات قماشية معلّقة من عوارض خشبية في الحظيرة التي أعيد استصلاحها. وكانت في غرفتي زيوت أساسية مصفوفة على رف الحمام، ودليل جيب إلى العلاج الطبيعي موضوع في درج إلى جانب السرير. جلسات المعالجة في التاسعة صباحًا وفي الثالثة بعد الظهر. الأفراد أولًا، ثم المجموعات. أعطوني بيان إخلاء المسؤولية عندما سجلت دخولي في مكتب الاستقبال. وضعت إشارة الموافقة عند فقرة تقول: *أرفض المشاركة في جلسات المعالجة المشمولة بالرسوم الأسبوعية*. ما كنت أريد ذكر اسم ابنتنا بصوت مسموع أثناء وجودي هناك. لقد تركت البيت حتى أبتعد عنها. لست مهتمة بالحديث عنها، ولا عنك، ولا عن مقدارِ ما كان لدى أمي من مشكلات. لقد مات طفلي. ولا أريد شيئًا غير أن أُترَكَ وحدي.

كانوا يقدّمون طعام العشاء عند الساعة السابعة تمامًا، في غرفة الطعام. كانت الطاولات المنفردة مشغولة كلها، فجلست على مقعد طاولة خشبية طويلة ونظرت من حولي إلى بحر من الأشخاص الأثرياء. ما كانت البيجاما الرياضية التي ارتديتها في مستوى ما رأيته من حولي. رفعت السحّاب حتى ذقني، ومددت يدي إلى طبق الفاصوليا السوداء.

«هل وصلتِ اليوم؟». كادت الملعقة تسقط من يدي. التفتُّ إلى شمالي – بدا لي صوتها مثل صوت أمي تمامًا. انحنت المرأة ونظرت في طبقي، ثم قالت إنها لا تظنّ أنني أتناول طعامًا متناسبًا مع حقل الطاقة

عندي. وفي آخر تلك الليلة، جلسنا تحت بطانية واحدة عند نار الموقد، وشربنا شايًا بالزنجبيل، وأصغيت إلى كلامها. كانت إيريس انفعالية أكثر من أي امرأة عرفتها قبلها. لكنها أعجبتني على الفور.

دعتني إلى الانضمام إليها في نزهة كل صباح. وكان توقيت النزهة مضبوطًا بحيث نكون سائرتين في الحقل لحظة شروق الشمس. وصلت إلى بابي حاملة في يدها بلورة من الزيركون. أصرَّت على أنها غير قادرة على بدء يومها من غيرها. سرنا عبر المرج الفاصل بين أكواخ النزلاء والمبنى الرئيسي، ثم نزلنا صوب جدول هو الحد الشمالي لتلك المؤسسة. وبعد ذلك سرنا صاعدتين من حول حقول الخزامى على امتداد درب هناك. كنا نسير ساعة ونصف ساعة كل مرة؛ وكنت دائمًا متأخّرة عنها خطوة واحدة. تحدّثني إيريس من فوق كتفها مسترسلة في تيار وعي متواصل، وفي كلماتها تأكيد شديد جعلها تكاد تبدو كأنها تمرّنت مسبقًا على كل جملة. كان لها أنف طويل حادّ. شعرها المربوط الأسود الذي كان أكثر حدّة من أنفها لا يكاد يتحرّك مع سيرها بتلك الخطوات الخفيفة النشطة. ما كان شعرها يتجعّد في الهواء الرطب مثلما يتجعد شعري.

كانت حياتها مدار الشطر الأكبر من أحاديثها... السرطان الذي أصابها... والعجائب التي شهدت حدوثها أمامها أثناء عملها طبيبة... والخسائر التي عانتها. كانت إيريس متزوجة من طبيب جراح داهمته نوبة قلبية قاتلة أثناء وجوده في غرفة العمليات. كانت تحدّثني عن تلك الحادثة وكأن أسوأ ما فيها هو أنه لم يستطع إنهاء العملية الجراحية. وعندما تنتهي من إخباري كل ما تريد إخباري به في ذلك اليوم (كان يبدو لي دائمًا في أحاديثها شيئًا من القصدية كأنها تلقي درسًا من كتاب)، تتوقّف وتمطط عضلات ساقيها وتقول لي أن أسير متقدّمة عليها طيلة ما بقي من طريقنا.

عندها تبدأ أسئلتها عن سام، من جديد. أسئلة تجعلني أحس كأنني تحت مصباح طاولة العمليات، أمامها، كأن قفصي الصدري مفتوح لها، مفتوح كلّه.

لقد أخبرتها بما جرى لسام في أول لقاء لنا على العشاء، لأنها سألتني سؤالًا مباشرًا: «كم طفلًا لديك؟ وهل لا يزالون أحياء جميعًا؟».

أجبتها بنبرة هادئة. كان لدي طفل واحد. وقد مات. ما كان التعاطف الذي أظهرته إيريس كبيرًا. ظلت نبرة صوتها مسطّحة. قالت لي إن عليَّ أن أعثر على سبيل جديد للعيش في هذا العالم. كرهتها، وأحببتها.

كنت أنهض من فراشي في الخامسة صباحًا من كل يوم. أنظّف أسناني، وأخرج إلى العشب الندي النضِر لكي أتحدث مع هذه المرأة التي لا أعرفها. أتحدّث عن سام مع إيريس فتؤلمني ساقاي ويداهمني ثقل في صدري، ثقل كفيل بأن يُسقطني أرضًا. أصل إلى كوخي في نهاية تلك النزهة، قدماي مبتلتان، وبنطلوني رطب، فأخطو تحت ماء الدوش الخارجي الحار وأنسى كل ما قلته في ذلك الصباح، أنسى كل سؤال سمعته من إيريس. *كيف تظنين أن شكله كان سيبدو الآن لو أنه ظل حيًا؟ ما الشيء الذي كنت تفضّلينه فيه أكثر من أي شيء آخر؟ كيف كان إحساسك عندما تحتضنينه؟ كيف كانت ولادته في هذا العالم؟ كيف كان الطقس يوم مات؟*

كنت أستحم فأزيل ذلك كلّه عني كأنه علاقة عابرة مع رجل آخر... جنس خفيّ لا يستطيع أحد أن يعرف عنه شيئًا.

وفي اليوم الذي سبق مغادرتي ذلك المكان، أي بعد أسبوعين من اليوم الذي أوصلتني فيه، وجدني حراس الحديقة في الجدول ذي البرودة الجليدية. كنت عارية، محمومة، أنتفض مثل حيوان يؤكل حيًّا.

دعوني ألمسه. أنا أمه. أنا في حاجة إليه. علي أن آخذه إلى البيت.

فقدت صوتي عدة ساعات.

كنت عاجزة عن الوقوف على قدميّ عندما أخرجوني من ذلك الجدول. جاءت المشرفة الصحية في المركز، ثم ذهبت. تهامس الناس، ووضعوا أيديهم على صدورهم مشفقين عليّ وهم يرونني أستعيد قدرتي على الوقوف، وعلى ارتداء بنطلون أتوا به من متجر الهدايا هناك. كان شعار المركز مطرّزًا على ردف البنطلون. تركت البطانية تسقط عن كتفي، وتركت ثدييّ الذابلين يظهران عاريين أمام جمع الناس الصغير من حولي. كنت في مكان أبعد كثيرًا من حيث يستطيع الخجل أن يوجد.

أتت إيريس إلى كوخي حاملة كأس شاي، لكنّي لم أفتح لها الباب عندما دقّته؛ ولم أفتحه عندما اعتذرت بصوت مسموع من خلف ألواحه الخشبية، قائلة إنها أخطأت تقدير مدى هشاشة وضعي. هشاشة! برأس إصبعي كتبت هذه الكلمة على الجهة الأخرى من الباب.

أتت المعالِجة المتخصّصة في حالات الأسى الشديد، تلك التي قرّرت رفض خدماتها عند وصولي، وطلبتْ إجراء تقييم رسمي لحالتي. قالت لي إن عليّ التفكير في البقاء مدة أطول. أشارت إلى أنه قد لا يكون من المأمون أن أبقى وحدي. اقترحَت أن تتصل بك.

قلت لها: «لا، أشكرك». وكان هذا كل شيء. ما كان لدي الكثير مما أستطيع قوله.

وفي صباح اليوم التالي، جلست في شرفة كوخي ومعي حقيبتي. كنت في انتظارك. حدّقت في الأشجار إلى الناحية الأخرى من الفسحة أمامي. كانت كلّها مائلة صوب الغرب ميلًا منتظمًا.

«إذًا؟»... ظلّت عيناك على الطريق، طيلة المسافة. وضعت يدي فوق يدك المستقرة على عصا السرعة. رأيتك تنقلها من السرعة الخامسة إلى السادسة. كنت مدركة ما ينبغي أن أقوله بعد ذلك.

«كيف حالها؟... كيف حال فيوليت؟».

- 49 -

«سنكون بخير. اذهب. اذهب واستمتع». قلبت قطع الأحجية رأسًا على عقب فسقطت على الأرض، وأرغمت نفسي على النظر إلى فيوليت. لم ترفع عينيها. كان لديك أمرٌ متّصلٌ بعملك. بدا لي أن تلك الأعمال صارت أكثر تواترًا مما كانت قبل ذلك. وبدوت لي مختلفًا عندما غادرت البيت الآن. رتّبت ملابسك، ووضعت لبنطلون الجينز حزامًا. بدوت لي وسيمًا. قلت لك ذلك قبل قليل، في غرفتنا.

قلت لي: «لا أزال الشخص نفسه الذي تزوجتِه».

ما كنت قادرة على قول هذه الكلمات عن نفسي. كنت أعرف هذا. وكنت تعرف هذا. تلاقت عيوننا في المرآة الطويلة خلف الباب.

كانت الأحجية التي أمامنا صورة للمنظومة الشمسية. أحجية مؤلّفة من ألف قطعة. ما كانت موجودة في بيتنا قبل ذهابي. لقد أقام أبوك وأمك مع فيوليت أثناء غيابي. لم أتبادل وأمك كلامًا كثيرًا منذ أن مات سام، مع أنها ظلّت شهورًا تتّصل كل يومين لكي تلقي علي تحية سريعة، وتعرض أن تأتي للإقامة معنا، وتقول إنني لا أغيب عن بالها. كانت تحاول، لكنها لم تعرف كيف تصير قريبة مني. وأنا... ما كنت أعرف أن أكون قريبة من أي شخص. سافرا قبل عودتي من مركز المعالجة. لكن البسكويت الذي صنعته هيلين كان لا يزال دافئًا على طاولة المطبخ. كانت جليسة الأطفال هناك عندما دخلت الباب. لم أرها منذ موت سام. كانت عيناها محمرّتين، منتفختين. تعانقنا، فتذكّرت تلك الرائحة السكرية التي تكون باقية عليه كلما أخذته من بين ذراعيها.

ثلاثة أيام. ظلّت فيوليت ثلاثة أيام حتى تحدّثت معي بعد عودتي إلى بيتنا. في ذلك الوقت، كان قد مضى على موت سام سبعة شهور. بدأت فيوليت تجميع قطع كوكب نبتون؛ وبدأت تجميع قطع المشتري. وفي آخر المطاف، التقينا في نقطة قريبة من الشمس.

«لماذا ذهبتِ؟».

«كنت في حاجة إلى هذا حتى يتحسّن وضعي».

ناولتها قطعة كانت تبحث عنها.

قلت لها: «اشتقت إليك أثناء سفري».

وضعت القطعة في مكانها ورفعت رأسها ناظرة إليّ. يقول لي الناس دائمًا إنها تبدو أكبر من سنّها؛ لكني لم أر فيها ذلك حتى هذه اللحظة. بدا لي لون عينيها داكنًا أكثر من ذي قبل. كان كل شيء في البيت يبدو مختلفًا، أينما نظرت. لقد تغير كل شيء. أشحت بوجهي عنها. طعم مرارة تحت لساني. نظرت إليَّ عندما ابتلعت ريقي. ابتلعت ريقي من جديد. قلت لها إنني ذاهبة إلى الحمام.

كانت قد رفعت الأحجية عند عودتي. وجدتها تقرأ كتابًا في غرفتها. لا شك عندي في أنها سمعتني أتقيأ في المرحاض.

«أتحبين أن أقرأ لك هذه القصة؟».

هزّت رأسها نفيًا.

«معدتي مضطربة قليلًا منذ وقت العشاء. هل أنت بخير؟».

أومأت برأسها. جلست على حافة سريرها.

«هل تحبّين أن نتحدّث في أي شيء؟».

«أحب أن تذهبي من جديد؟».

«من غرفتك؟».

«أن تتركينا. أنا وبابا».

«فيوليت!».

قلبت الصفحة.

دمعت عيناي. كرهتها.

كنت في أمسّ الحاجة إلى عودته إلى البيت.

- 50 -

بعد أن هجرتنا أمي، واصل أبي حياته كأن شيئًا لم يحدث. ما كان هذا صعبًا من الناحية العملية لأن أمي صارت، شيئًا فشيئًا، جزءًا روتينيًا من حياتنا مع مر السنين؛ كانت شخصًا ينظر إلينا عرضًا وكأنها تشاهد فيلمًا من الممكن جدًا أن توقفه قبل أن ينتهي.

الأمر الوحيد الذي تغيّر هو أن أبي نقل فرشاة أسناني وفرشاة شعري إلى الدرج العلوي في الحمام، ذلك الدرج الذي ظل سنينًا طويلة مبقّعًا بأحمر الشفاه وبمنتجات رديئة للعناية بالشعر تسرّبت من عبواتها. أحسست مع نقل أشيائي من تحت المغسلة أن مسؤوليات جديدة قد صارت الآن على عاتقي مع أنني لم أعرف شيئًا عن تلك المسؤوليات.

بدأ أصدقاء أبي يأتون إليه في أمسيات أيام الجمعة لكي يلعبوا البوكر. وكنت أذهب إلى السيدة إلنغتون لقضاء الوقت مع ثوماس ومتابعة الأفلام وأكل البوشار إلى أن تأتي وتغلق التلفزيون وتعرض عليّ أن تسير معي إلى بيتي حيث كنت أذهب إلى الفراش من غير تأخير. لكنّي تلكّأت ذات ليلة في الممر المظلم أمام المطبخ، وأصغيت. كان البيت يفوح برائحة كولونيا ثقيلة، وبيرة.

ما كانت تلك الليالي تزعجني... عندما يملأ الرجال وروائحهم بيتنا. كان ذلك واحدًا من الأوقات القليلة التي يبدو فيها أبي شخصًا حقيقيًا. كان الآخرون يشربون كثيرًا؛ وأما أبي فلا يشرب أكثر من كأس ويسكي واحدة بعد عودته من العمل. كانوا يتبادلون الشتائم بكلمات

غير واضحة، ثم ضرب أحدهم بيده على الطاولة. سمعت صوت شلال من «فيشات» البوكر يسقط على الأرض.
قال أبي بطريقة لم أسمعه قبل ذلك يستخدمها في كلامه: «أنت غشّاش»... وكأن التنفس كان صعبًا عليه بين هذه الكلمات الثلاث. ثم قال أحدهم: «زوجتك كانت غشّاشة، أنت، أيها الضعيف التافه. لا عجب في أنها هجرتك».
عندما رفعت عيني عن أرض الممر، رأيت أبي واقفًا ينظر إلي من عتبة باب المطبخ وهو يرتجف غضبًا. كانت ساقاي خَدِرَتين فلم أستطع حركة عندما سمعت صوت خطواته يقترب مني. صاح بي أن أذهب إلى غرفتي. وضع أحدهم الزجاجة على الطاولة بصدمة قوية. وسمعت شخصًا يقول: «آسف، يا سب... لقد أفلتت منه زمام الأمور. شربَ أكثر مما ينبغي أن يشرب».
وفي الصباح، قال لي أبي إنه آسف لسماعي ذلك الكلام، فرفعت كتفي وقلت: «سماع ماذا؟».
«اسمعي يا بلايذ؛ من الممكن أن يظنّ الناس بك أمورًا سيئة، لكنها غير صحيحة. الأمر المهم الوحيد هو ما تصدقينه عن نفسك».
شربت كأس عصير البرتقال، وشرب قهوته. قلت في نفسي، أبي أفضل من أولئك الرجال، لكن كلمة واحدة سمعتها في تلك الليلة ظلّت ترن في أذني - «ضعيف». *أنت، أيها الضعيف التافه. لا عجب في أنها هجرتك*. فكرت في تلك المرّات كلّها التي لم يدافع فيها عن نفسه، ولم يطلب منها البقاء في البيت وعدم الذهاب إلى المدينة. تذكّرت المنشفة الرطبة التي قذفته بها، فظلّت متدلية من رأسه. تذكّرت الرجل الذي اتصل؛ وتذكّرت الدم الذي رأيته في المرحاض. تذكّرت أقراص الدواء التي لم يبعدها عنها. والأطباق المحطّمة التي كان يكنسها دائمًا. تذكّرت انسحابه الهادئ ونومه على الأريكة. كرهت حقيقة أن أمي قد هجرته، لكني تساءلت إن كان قد حاول استبقاءها حقًا.

- 51 -

بدأت الكتابة من جديد بأن رميت كل كلمة كتبها قبل موت سام. تغيّر عقلي كأنه صار الآن يعمل على موجةٍ مختلفةٍ. قبل. بعد. صار «بعد» جافًا؛ وصارت جملي حادّة، سريعة. وكأن كل فقرة قادرة على جرح واحد من الناس. كان على صفحاتي قدر كبير من الغضب، لكني ما كنت أعرف طريقة أخرى للتعامل مع غضبي. كتبت عن أمور لا أعرف عنها شيئًا. الحرب. الريادة. ورشة ميكانيكي. أرسلت أول قصة أنجزتها إلى مجلة أدبية نشرت لي شيئًا قبل أن أنجب أطفالًا. كانت إجابتهم وجيزة مثلها مثل رسالتي إليهم، فشعرت بالرضا مثلما كان شعوري عندما لطّخت بطني بدمي بعد موت سام. *اللعنة عليكم. لم أكتب هذا من أجلكم أصلًا*. ما كان لشيء من هذا أي معنى، لكنه ملأ الساعات التي كان عليّ أن أجتازها.

بدأت أذهب إلى مقهى لا يبعد إلا مسافة قصيرة سيرًا على الأقدام؛ مقهى لا موسيقى فيه، لكن لديه كؤوسًا ضخمة. وكان هناك رجل أراه كثيرًا، شاب لعلّه أصغر مني بسبع سنوات، أو ثماني سنوات. كان يعمل على اللابتوب، ولا يشرب أكثر من كأس واحدة. كان كلانا يحب الجلوس في آخر المقهى، بعيدًا عن تيار الهواء الداخل من الباب. أعجبتني طريقته في تعليق سترته على الكرسي لأن بطانة قبعتها الثخينة تصير مسندًا مريحًا لظهره. بدأت أعلّق معطفي بالطريقة نفسها.

جلب معه ذات يوم شخصين أكبر منه سنًا، رجل له أنفه الكبير نفسه، وامرأة لها عيناه الداكنتان. دعاهما إلى الجلوس، وأحضر لهما قهوة

وكرواسانًا. وبلطف، وضع على الطاولة منديلين ورقيين، واحدًا أمام كل شخص، كأنه يخدم زبونين في مطعم فخم.

لقد اشترى بيته الأول! أفرحني هذا النبأ. أصغيت إليه وهو يشرح لهما كل صورة من صور البيت على هاتفه. مدخل المطبخ هناك، وهذا الممر يؤدِّي إلى الحمام... و، نعم، هذه ستكون غرفة الطفل. سيصير لديه طفل! مثل ابني سام. تمنّيت أن ينظر في اتجاهي حتى ابتسم، حتى يدرك أنني مهتمة بمستقبله، حتى يدرك أنني كان يقلقني التفكير في ما إذا كان لدى هذا الشاب اللطيف في حياته من يحبّه.

تحدثوا عن ضرائب العقارات، وعن إصلاح السقف، وعن موقع البيت الجديد. ثم سألته أمه عن خططه بعد ولادة الطفل التي كانت متوقّعة بعد شهر من ذلك.

«أستطيع المجيء إلى المدينة في ذلك الأسبوع لكي أساعد في كل ما يلزم. الأطباق، غسل الملابس. هذه ليست مشكلة، فلديَّ وقت كافٍ. أستطيع أن أجلب السرير النقّال الموجود في الغرفة الاحتياطية في بيتنا». كان صوتها مفعمًا أملًا. أدركت قبل أن يجيبها ابنها أن ردّه سيكون أقسى ما تسمعه في حياته كلها. قال لها إن والدة سارة ستأتي. قال إن من الأفضل لسارة أن تكون أمها معها. قال أيضًا إنها تستطيع القدوم لزيارتهما بعد ذلك، بعد أن يستقرا، وبعد أن يمضيا وقتًا معًا... ثلاثتهم، فقط. وأما والدة سارة... فسوف يقول لها متى تستطيع أن تأتي. ربما بعد ثلاثة أسابيع، أو نحو ذلك. سيكون عليهم أن يروا كيف تسير الأمور.

تحرّك رأس الأم إلى الأمام بطيئًا، ثم إلى الخلف، ثم تمتمت بهذه الكلمات، «بالطبع، يا حبيبي». وضعت يدها على يده لحظة قصيرة جدًّا قبل أن تعيدها إلى حيث كانت تحت الطاولة، تحت فخذها.

ينكسر قلب الأم مليون مرة في حياتها.

وعند ذلك، خرجتُ. ما كنت راغبة في استراق السمع أكثر من ذلك. سلكتُ مسارًا طويلًا في طريق عودتي إلى البيت.

- 52 -

كانت هناك لحظة في طريق عودتنا إلى البيت من مكان لا أستطيع الآن تذكّره. التفت كل منا صوب الآخر في مقعد السيارة الأمامي، ضحكتان مكتومتان، وأعين متلاقية، ردة الفعل نفسها التي تظهر لدينا معًا كلما قالت فيوليت شيئًا مضحكًا. هذا كل ما كان مهمًا... أن نتشارك هذه المعرفة الحميمة، معرفة كل منا بالآخر. معرفة أننا صنعناها معًا، وأنها الآن معنا، هنا، تقول تلك العبارات القاطعة التي يقولها الكبار... عبارات تعلّمَتها منّا فصارت تقولها بصوتها المتموّج، صوت طفلة في الثامنة. كيف كنت قادرة على العثور معك على لحظة الفرحة التامة تلك؟... معها؟ ما كان يمر بي يوم واحد لا أريد فيه رؤية مشهد ما حدث عند الإشارة الضوئية في ذلك التقاطع.

لكن الحياة كانت ماضية في سبيلها. أدركت هذا عندما أدرت وجهي بعيدًا عنك. الحياة ماضية، أردت هذا أم لم أرده. كنا معًا من غيره، ثلاثتنا، في السيارة، نتبادل النظرات مثلما نفعل من قبل. مضى على رحيله أكثر من سنة.

كان شوقي إليه مميتًا. أردت أن أقول اسمه في السيارة حتى أجبركما على سماعه. ينبغي أن يكون معنا أيضًا.

أدخلت يدي في الحقيبة التي وضعتها عند قدمي. وأخرجت منها علبة مناديل صغيرة. ألتفتّ إلى فيوليت الجالسة في المقعد الذي خلفك. أخرجت منديلًا ورميته إلى المقعد الخلفي من فوق رأسي. نظرت فيوليت إلى المنديل يعوم في الهواء ثم يستقر في حضنها.

أخرجت منديلًا آخر، ثم آخر، ثم آخر. ابتعدت عيناك عن الطريق ونظرتا إليّ مرة، ثم مرة أخرى، ثم نظرَتا في المرآة لكي تراها. التقت عيناها عينيك، ثم أدارت رأسها بهدوء ونظرت من النافذة بينما كانت المناديل تتطاير فوق المقعد الخلفي.

كنا نفعل هذا مع سام أحيانًا، عندما يبكي في السيارة. نواصل رمي المناديل من حوله إلى أن يتحوّل بكاؤه إلى ضحكات متدافعة. وكنا نحب تلك الضحكات. نستهلك علبة مناديل كبيرة، ونطير فرحًا بقهقهته عندما يرى تلك المظلّات البيضاء الناعمة تملأ جو السيارة... يزداد زعيق الطفلين الفرح ارتفاعًا، ويرتاح وجهانا المتعبان ويبتسمان للطريق ابتسامتين لا معنى لهما.

وأما في هذه الأمسية، فلم يقل أحدكما شيئًا عندما رحت أفعل هذا من أجله. أشحت بوجهي عندما انتهت عبوة المناديل، فوضعتها تحت زجاج السيارة الأمامي حتى تكون مرغمًا على رؤيتها أثناء القيادة. أظن أن حقولًا كانت خلف النافذة. أتذكّر أنني نظرت إليها ورغبت في الجري على امتدادها إلى أن تمسك بي من قبعة سترتي... إن جريت خلفي! إن جريت خلفي!

سألتك تلك الليلة إن كان من الأفضل أن ترى فيوليت أحدًا... طبيب نفسي للأطفال لكي يساعدها في التغلب على حزنها. كانت تبدو لي غير راغبة أبدًا في أي حديث عنه.

«أظنّها تتأقلم مع الأمر جيدًا. لست واثقًا من أنها في حاجة إلى هذا».

«فماذا عنا نحن، معًا – معالجة نفسية مشتركة». الظاهر أننا بدورنا لا نتحدّث عنه. أنت لم تأت أبدًا على ذكر ما فعلتُه في السيارة.

«أظننا نتعامل مع الأمر بطريقة حسنة أيضًا». قبلتَني على جبهتي... «لكن عليك أنت أن تذهبي. اذهبي وحدك. عليك أن تحاولي من جديد».

سرت من غير هدف في أرجاء بيتنا الصامت.
كنت تبني نموذجًا معماريًا في غرفة عملك. كانت أشياؤك متناثرة على طاولة المكتب تحت ذراع المصباح المتحرّك. المادة اللاصقة، ولوحة التقطيع، ومجموعة سكاكين لها شفرات قابلة للتبديل. الجدران الصغيرة المصنوعة من لوح رغوي كانت مصفوفة جانبًا. تحب فيوليت مراقبتك عندما تبني نماذج عملك هنا.
رحت أحمل الشفرات واحدًا تلو الآخر وأسقطها في علبتها المعدنية. لا يجوز أن تكون متناثرة هكذا. لقد طلبت منك فيما مضى أن تتوخّى الحذر في ما يخص هذه الشفرات. التقطت الشفرة الأخيرة وأجريتها على إصبعي فأجفلت لحدتها. ما أسهل أن تُحدث جرحًا! ما أسهل أن أُحدث جرحًا. مسست الندبة تحت قميصي، ذلك الخط المنتفخ على جلدي، الخط الذي تشكّل على بطني. ما أطيب ذلك الإحساس بالدم! أغمضت عيني.
جعلني صوتك أقفز في مكاني: «ماذا تفعلين؟».
«أرتب أشياءك. لا يجوز أن تترك هذه الأنصال متناثرة حيث يمكن أن تعثر عليها ابنتنا».
«سأفعل هذا. اذهبي إلى الفراش».
«هل أنت آتٍ؟».
«بعد قليل».
جلست على الكرسي المرتفع، وأضأت المصباح. مسست كتفك، ثم دعكت أسفل رقبتك. قبلتك خلف أذنك. رأيتك تضع شفرةً في مقبض السكين، ثم تتناول المسطرة المعدنية. تحبس أنفاسك دائمًا عندما تعمل. وضعت أذني على ظهرك وأصغيت إلى زفيرك المديد.
«آسف، يا حبيبتي، ليس الليلة. لا بد لي من إنجاز هذا العمل».
بعد ساعات من ذلك، أيقظني الصوت من نومي... واحدًا تلو آخر،

بطيئًا، شفرات تتساقط في علبتها المعدنية. كليك. كليك. كليك. لحظة صمت، وبعد ذلك، كليك. كليك. كليك. لحظة صمت. فتحت عينيّ. واستويت جالسة في غرفتي، ونظرت في الضوء المنعكس على زجاج السقف. كليك. كليك. كليك. مال رأسي جانبًا، فتحوّل صوت الشفرات المتساقطة في علبتها إلى قطرات ماء متجمّدة تصطدم بالمزراب المعدني عند نافذتنا. اشتدّت الريح. كليك. كليك. كليك. أغمضت عينيّ وحلمت بولدي بين ذراعيّ، وبرائحة رقبته الدافئة، وبطعم أصابعه في فمي... بالدم يقطر عليه بطيئًا كأنه قطرات ماء منسابة من صنبور لم يُحكم إغلاقه وهو يتلوّى تحت كل قطرة منها. رأيت قطرات الدم تصطدم بجلده النضر، ثم تسيل راسمة أنهارًا متعرّجة تجتمع كلّها في ثنايا جسده الصغير. رحت ألعقه كأنه قمع آيس كريم بدأ يذوب. كان طعمه حلوًا أشبه بصلصة التفاح الدافئة، التي كنت أطعمه إياها في الصيف الذي سبق موته.

لم تأت إلى السرير في تلك الليلة. وجدتك في الصباح نائمًا في غرفتها تحت بطانية خفيفة أتيت بها من أريكة غرفة المعيشة.

قلت لي عندما جلسنا نتناول طعام الإفطار: «أفزعتها قطرات المطر المتجمّد. أتتها كوابيس».

مسحتَ على رأسها بيدك، وسكبت لها مزيدًا من عصير البرتقال. وأما أنا فصعدت عائدة إلى سريري.

- 53 -

«الطقس شديد البرودة هناك، يا بلايذ. ألا تأخذ قفازَيْها معها إلى المدرسة؟». تأوهت أمك وهي تنحني لكي تخلع حذاءها الرطب من قدميها. لقد أتت للإقامة معنا بضع ليالٍ حتى تمضي وقتًا مع فيوليت، وذهبَت الآن لإحضارها من المدرسة. كانت فيوليت جاثية في بركة من الثلج الذائب تنفض القطرات عن بنطلونها.

«القفازان في حقيبتها، لكنها لا تحب استخدامهما».

مرّت بي فيوليت مسرعة في طريقها إلى المطبخ. بدأت أمّك تسوّي شعرها الخفيف أمام المرآة التي في الممر. جعلتني حركاتها البطيئة أدرك أن في ذهنها أمرًا. وقفت مستندة إلى الجدار، وانتظرتها إلى أن تكلّمت.

«هل تعرفين... قالت لي المعلمة إن يوم فيوليت كان صعبًا. بدت لها غاضبة. وما كانت لديها رغبة في المشاركة في أي نشاط من نشاطات صفها».

أحسست انقباضًا في صدري، «يظن فوكس أنها ضجِرة هناك».

«كانت تجلس وحدها في زاوية باحة المدرسة عند وصولي. لم أرها تلعب مع أحدٍ أبدًا». رفعت حاجبيها وألقت نظرة صوب المطبخ لكي تتأكد من أن فيوليت لا تزال أبعد من أن تسمعها... «لم يمض إلا أقل من سنتين. عليك ألّا تنسي أنها أحبّته أيضًا، مثلما أحببناه جميعًا، بالرغم من كل شيء...». بالرغم من كل شيء – فاجأتني كلماتها. لم تتطرّق قبل الآن أبدًا إلى ذكر ابننا، وما كنت أدري إن كانت على علم بما أعلمه. كانت بي رغبة دائمة في سؤالها عن هذا الأمر. من بين الناس جميعًا، هي أقرب من يمكن أن يكون حليفًا لي.

همست: «هيلين، هل حدّثك فوكس عن يوم موت سام؟... عما قلت له إنه حدث؟».

أشاحت بوجهها، ثم التفتت وسوّت طيّات معطفها الذي علقته في المدخل. «لا. حتى أكون صادقة معك، لست أدري إن كنت قادرة على الكلام في هذا الأمر. إنني آسفة. أعرف أنك كنت هناك، وأنك عشت ذلك كلّه، ولكن... لا أستطيع».

«سمعتك تقولين بالرغم من كل شيء وظننت...».

أجابت بنبرة حادة: «كنت أريد القول إنها تبدو غير متأثّرة بذلك. لقد تأقلمت مع الوضع في البيت بالرغم من أنك لم تكوني قريبة منها». ألقيت نظرة صوب المطبخ فخفّضت صوتها من جديد... «لست أقول هذا على سبيل الانتقاد يا بلايذ، أؤكد لك. لقد كان ما مررتِ به جحيمًا».

أومأت برأسي حتى أبدّد أي تردّد سبّبته لها. بدت لي في تلك اللحظة واهية جدًّا. وبدت أكبر كثيرًا من سنها البالغة سبعة وستين عامًا. أدركت ساعتها أن فقدانها حفيدها كان له أثره عليها... هي أيضًا.

وبالطبع، لا يمكن أن تكون قد أخبرتَ أمك شيئًا عن ظنوني. نادتها فيوليت طالبة منها أن تصنع لها بسكويتًا برقائق الشوكولاته، وسمعتها تبحث عن وعاء عجن البسكويت في الخزانة. لقد ذهبت أمك إلى المتجر هذا الصباح، تحت الثلج، لكي تشتري المواد اللازمة كلّها. مددت يدي إلى يدها، وضغطت عليها.

قالت بصوت منخفض: «أنت إنسانة قوية». ما كان لهذه الكلمات أي معنى في نظري... كلمات غير صحيحة. هي تحبّني، لكنها لا تعرفني أبدًا.

وعند عودتك إلى البيت تلك الليلة، رأيتها تنتحي بك جانبًا في غرفة المعيشة المظلمة. دار بينكما كلام بصوت منخفض. سمعت يديك تربتان على ظهرها. وبعد ذلك، شممت فيك رائحة عطر الورد القوي الذي تستخدمه أمك، وأمضيت الليل كلّه أفكر في تلك المعانقة.

- 54 -

تجول في رأسي أحيانًا قصة عني وعن فيوليت.

تجري القصة على النحو التالي:

ترضع حليبي إلى أن تُتمَّ سنتها الأولى. يغذّيني إحساسي بجلدها الحار على جلدي. أنا سعيدة. أنا شاكرة. لا أريد أن أبكي عندما أكون على مقربة منها.

تُعلّم كل منا الأخرى بضعة أمور. الصبر. الحب. لحظات بسيطة فرحة معها تجعلني أحس نفسي حية. نبني أبراجًا بعد وقت القيلولة، ثم نقرأ الكتاب نفسه كل ليلة، إلى أن تعرف كل صفحة فيه؛ ولا تستطيع أن تنام إلا إذا هززتها أولًا بين ذراعيَّ. أكرهك إذا تأخرت عودتك إلى البيت، وإذا تأخرتَ في أخذها مني. تناديني عندما تستيقظ في الليل. وتصدح بكلمتَيّ *صباح الخير* عندما أدخل غرفتها. نمضي معًا ساعة هانئة قبل استيقاظك من النوم. ليست في حاجة إليك مثلما هي في حاجة إليّ.

نسير إلى روضة الأطفال معًا، وتلوّح لي بيدها من خلف البوابة. أشتاق إليها طيلة النهار؛ ويظلّ جزء من عقلي منشغلًا بذلك الاشتياق. ترسم لي بطاقة في يوم عيد الأم عليها كلمات من عندها، كلمات طبعتها معلمتها من أجلها. تندفع الدموع إلى عينيّ عندما أفتحها. لا ينتابني أي ذعر عندما آخذها من المدرسة في آخر النهار.

تبتسم لي. تحتضن ساقي. أطلب منها أن تقبّلني.

تهتم به كأنه دميتها. تمسّ رأسه عندما تحتضنه. تراقبني عندما أرضعه

وتتكور إلى جانبنا راغبة في مشاركتنا دفء جسدينا. لا أحب أن نكون معًا، هو وأنا، من غيرها. تحدّثني عنه عندما لا يكون موجودًا. تحدّث الغرباء عنه. ومن وقت لآخر، تسألني إن كنا نستطيع الذهاب وحدنا إلى الحديقة لأنها مشتاقة إلى وقت تمضيه معي. نفعل ذلك، ونتأرجح جنبًا إلى جنب، ونشتري الآيس كريم بالفانيليا. نعود إلى البيت فيكون في انتظارنا... يكون آمنًا، معك. لا أحب التظاهر الصامت بأنه طفلي الوحيد.

تجلس على سريري عندما أبدل ملابسي، ونتكلم في أمور تتكلم فيها الأمهات وبناتهن. أنا لطيفة؛ وأنا دافئة. هي فضولية. تحب أن تكون على مقربة مني. عيناها ناعمتان. أثق بها. أثق بنفسي عندما أكون على مقربة منها. أنظر إليها وهي تنمو وتكبر لتصير صبية لطيفة محترمة. صبية أحسّ أنها لي. لدينا ابن؛ ولديها شقيق. نحبّهما حبًا متساويًا. نحن أسرة من أربعة أشخاص تتناول العشاء نفسه كل يوم أحد وتتجادل في البرنامج التلفزيوني الذي نراه أيام الجمعة... أسرة ترتحل مسافات طويلة في عطلة الربيع.

لست أمضي أيامي في التساؤل عمن كنا نستطيع أن نكونهم.
ولا كيف تكون الحياة لو أنها ماتت بدلًا منه.
أنا لست وحشًا، ولا هي وحش.

- 55 -

ذهبت لشراء مزيد من الواقي الشمسي من المتجر الذي في ردهة الفندق. لا نعرف كيف نتصرّف جيّدًا في عطلاتنا على شاطئ البحر، لأن جلدنا يحترق بسهولة كبيرة. لكننا حاولنا أن نكون أسرة عادية، طبيعية. اقترحت أمك أن نسافر. قالت إن تغيير المكان قد يكون مفيدًا لنا جميعًا؛ فلم تتأخّر، بل حجزت لنا في هذا الفندق. أحبّت فيوليت اللعب بالرمل، مع أنها صارت في التاسعة. جلست أقرأ رواية تحت مظلتنا المخطّطة؛ وكنت أرفع حافة قبعتي الواسعة من وقت لآخر حتى أتفقدها. كانت تحفر شبكة قنوات لكي تملأها ماءً. جسد نحيل من جلد وعظم، عمره ليس أكثر من ثلاث سنوات، يحبو بينها وبين أطراف موجات المحيط ويمصّ طرف إبهامه.

سارت إليه على رؤوس أصابعها، ثم جثت عند قدميه. كانت الريح تحمل صوتيهما وتطير بعيدًا عني. بدا كأنه يضحك. تظاهرت بالسقوط وقد علا وجهها ملمح سخيف جعله يضحك ناظرًا إلى الشمس. لحق بها فأعطته دلوًا صغيرًا حتى يساعدها في ملء قنواتها.

كانت أمها امرأة أنيقةً أثارت إعجابي عندما رأيتها عند بركة السباحة، في وقت سابق من ذلك النهار.

«ما أحلى ابنتك! انظري كيف تلاعبه هكذا. هل بدأت تعمل جليسة أطفال؟».

قلت لها إنها تبدو أكبر من سنها الحقيقي. دعوتها إلى الجلوس على مقعدك الخالي بينما كان أولئك الاثنان يلعبان معًا. نظرنا إلى الطفلين

وتبادلنا المجاملات اللطيفة التي أسمعك تتبادلها مع أمهات أخريات. رفع الصبي رأسه ونادى أمه. لوّح لها بيده لكي ترى الدلو الذي حصل عليه.

«أراه. إنني أراه. ما ألطف هذا، يا جيكي!». كانوا باقين هناك طيلة الأسبوع. لديها طفلان آخران ذهبا مع والدهما في رحلة بالزورق تستمر طيلة النهار، لكنها بقيت مع جيك خشية أن يصيبهما دوّار البحر. بدأت فيوليت تدفنه في الرمل. ساقاه أولًا. ثم وسطه. راحت تربّت على الرمل وتسوّيه فوق مؤخرته بينما ظل الصبي ساكنًا سكونًا تامًا.

تناولت المرأة هاتفها وقالت لي،: «اعذريني لحظة».

كان عليها إجراء مكالمة هاتفية من أجل عملها. إلا أن الريح كانت شديدة على الشاطئ. جرت صوب الممرّ المحمي الواقع خلفنا، فرحت أنظر إلى ثوبها الأبيض الطويل خافقًا من حول ساقيها.

صار الصبي الآن مدفونًا في الرمل حتى ذقنه. وصار رأسه المدوّر الحار أشبه بحبة كرز ملقاة على الرمل. جرت فيوليت إلى الماء وملأت أكبر دلو لديها، ثم عادت إليه بخطوات بطيئة. رأيت ذراعيها ترتجفان. كيف استطاعت حمل هذا الدلو الثقيل؟ انتصبتُ جالسةً في الكرسي. رفعت الدلو فوق رأسه فانتفخ صدرها. توقّفت لحظة ونظرت لترى إن كنت أراقبها. بادلتها نظرتها. خفق قلبي. كانت عينا الطفل مغمضتين. حاولت النهوض سريعًا. انسكب قليل من الماء عندما نقلت إحدى يديها فوضعتها تحت الدلو. سوف تسكب الماء عليه. لا بد أن في الدلو غالونًا من الماء. سوف يختنق الطفل في لحظة واحدة. وقفت تنظر إليه ساكنة. يدها مستعدّة لقلب الدلو. خارت ساقاي من تحتي وحاولت أن أصرخ لكن صوتي لم يخرج من فمي. ضربت على صدري محاولة أن أعثر على صوتي. وأخيرًا استطعت الصراخ. خرج اسمه من فمي... لا يكاد يكون مسموعًا... فأحرقت نار حروفه حلقي.

سام!

«ما الأمر؟». أجفلتني يدك التي استقرت على ذراعي. فدفعتك عنّي. كانت فيوليت واقفة تنظر إلينا، وكان الدلو إلى جانبها. مال الصبي برقبته فتشقّق غلافه الرملي كأنه قشرة جليد تحيط به.

قالت له: «لقد أفسدت الأمر».

قال: «أنا آسف»، وبدأ يبكي بكاء خفيفًا.

جثت على ركبتيها وساعدته في النهوض. أزالت الرمل من على ظهره ومن شعره الأشقر الناعم. «لا تبك. نستطيع فعل هذا مرة أخرى. هل صرت الآن بخير؟». مسحت بيديها على كتفيه الصغيرتين. ألقت نظرة سريعة في اتجاهي... أرادت أن ترى إن كنت لا أزال انظر إليها.

قلت لك أخيرًا: «لا شيء»، وأصلحت وضع ثوب السباحة. كانت ضربات قلبي تهزّ صدري هزًّا. رأيتها تحاول جعل الصبي مبتهجًا من جديد. لعلي بالغت في ردة فعلي. تذكّرت من جديد كيف دفع قفازها الوردي العربة، فأزحت تلك الصورة جانبًا من غير تأخير. ناولتَني الكيس البلاستيكي ولم يظهر عليك أي قلق... لم تسمعني أنطق اسمه. أو، على الأقل، تظاهرت بأنك لم تسمع شيئًا.

بقينا هناك بعد ذلك ساعتين. أنهيت قراءة كتابي. وأما أنت، فقد لعبت مع الأطفال بطائرة من الورق. وفي تلك الليلة تناولنا طعام العشاء مع أسرة الصبي، مع الأم الأنيقة وأبنائها الثلاثة ذوي القمصان المخطّطة. جلست أنظر إلى فيوليت تغرس نهايات عيدان الأطفال في قطع المارشميلو وتعلمهم كيف يشوونها ويضعونها مع الشوكولاته بين طبقتين من البسكويت. أحسست بأنك تنظر إلي. التفتُّ ونظرت إلى عينيك فابتسمت لي. أنهيت كأس نبيذك. نهضت لكي أكسّر لوح شوكولاته جديدًا إلى مربعات صغيرة أوزّعها على الأطفال. جلست معك على الكرسي الخشبي العريض، في حضنك الذي كنت أمضي فيه

وقتًا طويلًا قبل أن أصير أمًا. أدخلت يديَّ تحت قميصك لكي أدفئهما. قبّلتَني على شفتيَّ. رأيت المرأة تنظر إلينا عبر ألسنة النار. من الممكن أن يصير كل شيء سهلًا جدًا... فقط إذا سمحت له أن يصير.

- 56 -

فترة صمت طويلة مضنية قبل إجابة ينبغي أن تكون في غاية السهولة. إغلاق باب الحمّام الذي كنت تبقيه مفتوحًا على الدوام. جلبك إلى البيت كأس قهوة واحدة بدلًا من اثنتين. عدم سؤال الآخر عما يريد أن يطلبه في المطعم. انقلابك لكي تدير وجهك صوب النافذة عندما تدرك أن الشخص الآخر قد بدأ يستيقظ. سيرك متقدّمًا تلك المسافة كلها.

هفوات السلوك هذه مقصودة كلّها، ملحوظة كلّها. إنها تودي بما كان موجودًا ذات يوم، تأكله. كان اتضاح هذا التحوّل بطيئًا؛ وما كاد يبدو ذا معنى على الإطلاق. فعندما تكون الموسيقى جميلة، أو تميل أشعة الشمس وتدخل غرفة النوم هكذا، يمكن ألا يكون لذلك كلّه أي معنى... أي معنى أبدًا.

نزلت إلى المطبخ صبيحة يوم ميلادك التاسع والثلاثين، وأعددت لنفسي إفطارًا. لقد قلت في الليلة الفائتة (الحقيقة أنك قلت هذا مرتين) إنك تحب أن نذهب إلى المطعم الفرنسي في شارعنا لكي نأكل البيض هناك.

لكني أحببت أن تستيقظ في فراشنا وتشم رائحة الخبز المحمّص الذي أعدّه. أنت لا تحب هذا الخبز المحمّص. وسوف تدرك أنني لا أريد الذهاب إلى ذلك المطعم لتناول الإفطار هناك. أردت أن أجرحك. أردتك أن تقول في نفسك، *لعلها ما عادت تحبني!* أردت أن يخيب أملك وتنقلب في الفراش وتعود إلى النوم شاعرًا أنك لست ذلك الرجل الذي تريد زوجته إسعاده في صبيحة يوم ينبغي أن يكون مهمًّا.

نزلت إلى الطابق السفلي بعد عشرين دقيقة. نزلت مرتديًا كنزة لا

أحبها. كان صوف الكنزة مثل وبر الفأر، وكانت عليها تلك الكرات الصغيرة التي تظهر على الصوف القديم. رأيتني أغسل السكين لكي أزيل عنها بقايا الجبن الطري. آنذاك، كانت الساعة قد بلغت التاسعة. قلت لي إنك ستخرج لشراء صحيفة. كنا مشتركين في صحيفة تايمز، فرميت بها على الطاولة، أمامك. لكنك قلت إنك تريد شراء صحيفة جورنال. لا أظن صحيفة جورنال تعجبك. عدت إلى البيت بعد ساعة ونصف الساعة، ولم تقل شيئًا. لم تأكل شيئًا إلى أن تجاوزنا وقت الغداء بزمن غير قليل، وسخنّا أطباق السباغيتي الباقية من اليوم السابق. يعني هذا أنك ذهبت وأكلت البيض في المطعم من غيري. لم نتكلّم في الأمر أبدًا، ولم أندم أبدًا على ما فعلته بك ذلك اليوم.

سألتني قبل ثلاثة أيام عن اسم ذلك النوع من الزهور التي اشتريتها في الأسبوع السابق من أجل طاولة المطبخ... *الزهور البيضاء الناعمة*. قلت لك إنها أزهار الأضاليا. سألتك عما جعلك في حاجة إلى معرفة اسمها، فقلت لي إن ذلك فضول منك، لا أكثر، وإنها أعجبتك، وإن عليَّ أن أكثر من شرائها. كان هذا شيئًا غريبًا. ما كنت قبل ذلك تبدي أي اهتمام بالزهور. لم تسألني يومًا عن اسم أية زهرة.

ثم مرَّ أسبوع، وكنت جالسًا على الكرسي حيث تقرأ عادة. كان هاتفي في يدك. لقد تركته على الطاولة. كنت تنظر إلى صورة التقطتها لك قبل شهر من ذلك. ما كنت موجودة في الصورة، وما كانت فيوليت موجودة. كانت الصورة لك وحدك. وكنت فيها وسيمًا، مبتسمًا، ذقنك غير محلوقة منذ يومين. مرفقك مستند إلى طاولة في مطعم. في تلك الليلة، رحت أقول في نفسي إنك كنت تنظر إلى تلك الصورة وتتساءل -لعلك كنت تتساءل- كيف تراك بقية النساء... لعلّه كان يتخيّل الانطباع الأول الذي يتركه لدى امرأة قد تجده رجلًا جذابًا! لعلّه كان يحاول البحث في تلك الصورة عن نسخة مختلفة من نفسه!

ليس نظر المرء إلى صورة له دليلًا أن له علاقة عاطفية مع امرأة. ليس طرح المرء سؤالًا عن اسم نوع من الزهور دليلًا على أن له علاقة عاطفية مع امرأة. لكن الأمرين كلاهما من جملة الأمور التي تتخمّر في ذهن الزوجة إلى أن تبلغ نقطة تشعر عندها أنها ما عادت محبوبة. هذه هي المستجدات التي أخذتنا من مكان نستطيع تجاوزه، حتى في حضرة وجه الموت الكالح الذي كاد يقتلني، إلى مكان لا نستطيع العودة منه. صارت هذه الأمور شديدة الثقل، شديدة الإيلام، وصارت إساءات متكرّرة حلّت محل ما كان يومًا أكثر الأماكن أمانًا في العالم كله.

هذا ما جعلني أمتنع عن الخروج معك من أجل تناول الإفطار صبيحة يوم ميلادك التاسع والثلاثين.

- 57 -

سكبت لنفسك فنجان قهوة، ودفعت بخطاب الاستقالة في اتجاهي. كنت عائدة إلى البيت بعد إيصال فيوليت إلى مدرستها. لم أتوقّع أن أجدك هناك.

«لكن، لماذا؟».

استندت إلى ظهر كرسيّك ووضعت ساقًا فوق ساق. لاحظت عندها أنك لم تحلق ذقنك منذ بضعة أيام. لعلك لم تحلقها منذ ثلاثة أيام، أو أربعة. أمور كثيرة فيك ما عدت أراها، وما عدت أنتبه إليها.

«إنني راغب في شيء ذي تفكير أكثر تقدمًا... ربما في عمل ينصبّ تركيزه على الاستدامة. ما عاد هناك أي متّسع للإبداع. صار ويزلي يتدخّل في كل شيء».

رأيت حركة أصابعك البطيئة على سطح الطاولة الخشبي. انتقلت عيناي إلى خطاب الاستقالة، وإلى توقيعك عليه. كان الخطاب وجيزًا، بضع جمل وحسب. وكان عليه تاريخ اليوم السابق.

«كان من الأفضل أن نتحدّث في الأمر أولًا، ألا تظن هذا؟ حقيقة الأمر أنني ما كنت أدري شيئًا عن وضعنا المالي، ولا عن مقدار ما لدينا من مال مدّخر». راح ذهني يستعيد الماضي ويحاول تذكّر آخر بيان مصرفي رأيته. أنت من يدفع فواتيرنا. وأنا لا أتابع ما نكسبه، ولا ما ننفقه. تنامى في داخلي إحساس بغبائي... «أعني، هل أحوالنا المالية على ما يرام؟ هذا قرار كبير».

«نحن بخير». كنت تفضّل إبقائي خارج الأمر كلّه. نقرت على الطاولة من جديد وقلت: «لم أرد إزعاجك بهذا الأمر».

«إذًا، ماذا الآن؟».

«هناك بضع فرص مطروحة أمامي».

جلست مسترخيًا على الكرسي، ووضعت عقبي قدميك على الأرض. بدوت لي قلقًا، لا تعرف استقرارًا. أو لعلك بدوت لي كأنك قد ارتحت. وقتها، لم أستطع تحديد الأمر تمامًا.

«سوف أخرج وأجري قليلًا».

«الطقس بارد اليوم».

«تابعي أعمالك. افعلي ما تفعلينه كل يوم عندما لا أكون هنا». داعبت شعري مثلما تداعب شعر فيوليت دائمًا، ثم خرجت من المطبخ باحثًا عن حذاء الجري. لقد انقطعتَ عن الجري منذ زمن.

لديَّ إحساس يقول لي إن هناك أمرًا غير سليم. لديَّ إحساس بالخفة في رأسي. أحسست برغبة في الاتصال بأمك. كانت في الخارج مع كلبها عندما ردت على مكالمتي.

قلت لها إنني أريد الحديث عن العطلة منذ الآن، وأريد أن نراجع معًا خطة زيارتهما المرتقبة إلينا. لقد اعتزما حجز تذكرتين للسفر بالطائرة في الثاني والعشرين من كانون الأول؛ وفي اليوم التالي نأخذ فيوليت لكي تتزلّج. ستذهب معنا أختك أيضًا. سألت أمك عما لديها من أفكار من أجل هدية أقدّمها إلى أبيك. تكلّمنا أيضًا في الأطباق التي ستعدّها كل واحدة منا من أجل وجبة العشاء.

قالت لي: «أعرف أن هذا سيكون قاسيًا، من جديد... من غير سام».

«أفتقده كثيرًا».

«وأنا أيضًا».

تساءلت عما إذا كان يجدر بي أن أودّعها، لكني قلت لها: «هيلين،

قال لي فوكس هذا الصباح إنه استقال من وظيفته. هل كنت على علم بأنه يفكر في تركها؟».

«لا. لم يقل لي شيئًا عن هذا». توقّفت لحظة ثم قالت: «إن كانت هناك مشكلة مالية، فأنت تعرفين أننا مستعدون لتقديم المساعدة، دائمًا. أريدك ألا تتركي هذا الأمر يقلقك».

«ليس هذا هو الأمر. إنه... أحس كأنني ما عدت أعرفه. لقد صار... بعيدًا، بعيدًا جدًّا». حبست أنفاسي مستغربة ما قلته لها. ما كنت أحبّ الحديث معها في أمور متّصلة بك؛ لكنّي كنت أبحث يائسة عن شيء من الاطمئنان... «أحس كأن هناك شيئًا يجري، شيئًا آخر لا أعرفه».

«أوه، لا أظن هذا، يا حبيبتي. لا». أوحَت لي نبرة صوتها بأنها أدركت ما كنت أرمي إليه... «يا بلايذ، أنتما لا تزالان رجلًا وامرأة حزينين على فقد طفلكما. هذه فترة صعبة، عليه وعليك. ولعل فوكس يعاني أكثر مما تظنّين». صمتت لحظة متيحة لي فرصة لإبداء رأيي على ما قالته، لكني ما قلت شيئًا... «اصبري عليه».

«أرجو ألّا تقولي له إنني اتصلت بك». بدأت أدلّك صدغيَّ محاولة إرخاء توتري.

«بالطبع». غيّرت الموضوع وعادت إلى الكلام في اليوم الذي ينبغي أن يحجزا فيه رحلة العودة. وكنت أنظر من نافذة غرفة المعيشة مترقّبة عودتك.

كان اللابتوب الذي تعمل عليه مفتوحًا. وكنت أعرف كلمة المرور. بدت لي طاولة مكتبك مثل ما هي دائمًا... أدوات مبعثرة، ومشروع قيد الإنجاز مثلما تركته عندما قاطعنا عملك في الليلة السابقة.

لا شيء يبدو مختلفًا، وما من شيء يوحي بالتوقّف عن العمل. دخلت إلى صفحة البريد الوارد، وبحثت بين الرسائل. لم أجد صعوبة في العثور على رسالة مديرك في العمل:

يسعدني أننا متفقان على أن هذه النتيجة الأفضل بالنظر إلى طبيعة الحادثة. يؤسفني أن الأمر قد وصل إلى هذه النهاية. لعلنا كنا، كلانا، قادرين على التعامل مع الأمور بطريقة أكثر تعقّلًا. سوف تبقى سينثيا على تواصل معك في شأن إنهاء خدماتك مثلما اتفقنا.

يعني هذا أن هناك حادثة لا أعرف عنها شيئًا. إنهاء خدماتك!... لقد فصلوك من العمل.

فتحت رسالة أخرى أتتك من سكرتيرتك ذلك الصباح. أنت لم تقرأها بعد. ما كان في تلك الرسالة شيء إلا: *اجتمعت مع الموارد البشرية، منذ قليل. اتصل بي.*

ذهبت إلى غرفة فيوليت وأمسكت بالممحاة وقلم الرصاص الذي عليه وحيد القرن. هي من اشتراهما لها. شممت رائحة مطاط الممحاة وكأن من الممكن العثور فيه على نوع من أنواع التأكيد. أعدتهما إلى الرف. واستلقيت على سريرها الذي لم أرتّبه بعد.

وضعت يديَّ الاثنتين على صدري الخافق. ليالي تأخّرك في المكتب. الرفض الذي أواجهه عندما أمسّك. وأصابعك التي كانت تنقر على الطاولة عندما كذبت عليّ. أغمضت عينيّ، وشممت عبق نوم فيوليت في وسادتها.

همست: «أكرهك». كنت أعنيكما معًا. كرهتكما معًا. وما أردت أحدًا غير سام. لو كان هنا، لكان كل شيء على ما يرام. بكيت إلى أن سمعتك تفتح باب البيت. صوت حذائك على البلاط. صوت قدميك على درجات السلم. بقيت ساكنة مثلما كنت، وسمعت خطوات تتجاوز غرفة فيوليت وتدخل الحمام. تركت ذلك الإيميل مفتوحًا في لابتوبك. سوف تجده بعد عشرين دقيقة، لكنك لن تنطق بأية كلمة.

- 58 -

جاء صباح اليوم التالي، فانتظرت في الخارج برهة قبل عودتي إلى البيت عقب إيصالي فيوليت إلى مدرستها. أردت أن تكون قد ذهبت؛ لكني شممت رائحتك قويةً في البيت. كنت في مكان ما. لم أنادك. أغلقت باب الحمام، ودخلت تحت الدوش، ودعكت جسدي دعكًا شديدًا. دعكت كل ناحية مني. ظللت واقفة تحت الماء المنهمر إلى أن صار الماء باردًا.

كنت أسمعك من خلف الباب المغلق، أسمع الأصوات التي بقيت أسمعها كل يوم تقريبًا من أيام عيشتنا معًا. أدراجك تفتح وتغلق. سروالك الداخلي النظيف. قميصك الداخلي. ثم باب الخزانة. قميصك الرسمي... لا بد أنك تريد ترك انطباع قوي لدى أحدهم في ذلك اليوم. صوت المشبكين المعدنيَّين على علاقة الملابس. انزلاق سترتك على خشب العلاقة الثقيل، ثم على ذراعيك.

ثم انفتح باب الحمام. كنت عارية. في ذلك الصباح، نظرتَ إلى جسدي نظرة مختلفة. نظرتَ إلى الجلد المترهّل الذي حمل طفليك. إلى الثديين اللذين رضعاهما حتى جفّا، إلى بقعة شعر العانة الهزيل التي لم أعتن بها منذ سنين... نظرت إلى ذلك كلّه بعيني رجل لديه شيء أفضل، شيء أكثر تماسكًا وشبابًا، يستطيع أن ينظر إليه. تخيّلت جلدها الصقيل الخالي من العروق البنفسجية ومن بقايا الشعر. نظرت إلى نظرتك إليّ. وتساءلت عما يعنيه هذا الجسد عندك الآن. أهو وعاء فحسب؟ السفينة

التي أوصلتك إلى هذا المكان الذي صرت فيه أبًا لطفلة جميلة ولطفل لم تكد تعرفه؟

رأيت نظرتي إليك فأشحت بوجهك. أدركت أن نظراتك قد توقّفت على جسدي العاري فترة أطول مما ينبغي. عرفت أنني أعرف. مددت يدك إلى المنشفة المعلّقة على المشجب. ناولتني إياها.

في تلك الليلة، لم يكلّم أحدنا الآخر أية كلمة. لم تعد إلى البيت حتى الساعة العاشرة ليلًا. وعندما عدت، ضاجعتني بعنف جعلني أنزف. رجوتك أن تفعل ذلك. تخيلت أنك ذهبت وضاجعتها تلك الليلة أيضًا. لكنّي أردت الإحساس بأنني ممتلَكة... ممتلَكة امتلاكًا من نوع ميكانيكي بجعلني أحسّ بجسدي منفصلًا عني. أردت أن أحسّ كأنني سفينة في البحر... سفينة صدئة، موثوقة، أصابتها ضربات كثيرة.

إن في حياتنا أيامًا كمثل ذلك اليوم، أيامًا تترك علامات من شأنها تغيير من نحن. هل كنت امرأة يخونها زوجها؟ وهل كنت الرجل الذي يخونني؟ لقد كنا والدَيّ طفلٍ ميت. كنا والدَي طفلة لم أستطع أن أحبها. وسوف نكون الزوجين اللذين ينفصلان. الزوج الذي يذهب. الزوجة التي لا تتمكّن أبدًا من تجاوز ذلك.

1972

كان هناك وقت صار واضحًا فيه للجميع أن إيتا تنزلق بعيدًا. كفّت عن إعداد الطعام؛ وكفّت عن الأكل. بل إنها كفّت عن أكثر الأشياء في ذلك الوقت. صارت للبيت رائحة ثقيلة مثل رائحة مناشف رطبة ظلت زمنًا طويلًا متروكة في الغسالة. تتجوّل في الطابق العلوي بعض الأيام؛ وأما في أيام أخرى فلا تخرج من غرفتها أبدًا. كان ذلك وقتًا صعبًا على سيسيليا أيضًا. كانت تذوب؛ وصارت كأنها تسبح داخل الملابس التي كانت على مقاسها في السنة الفائتة. فقدتْ شهية الأكل، وكفّتْ عن الاهتمام بنفسها مثلما تفعل كل فتاة في الخامسة عشرة، ومثلما تعرف كيف تعتني بنفسها. ما كانت تريد أن تطلب من هنري مالًا لكي تشتري فوَطًا صحية. راحت تحشو سروالها التحتي بالجوارب عندما يأتيها الحيض. ما كان في البيت صابون لغسل الملابس، فراحت تكوّم تلك الجوارب تحت سريرها. خجلت كثيرًا عندما اكتشف هنري أمرها. طلب من شقيقته أن تأتي لكي تعيش معهم في تلك الفترة. كانت تلك الشقيقة في بلاد بعيدة. وبقدر ما تستطيع سيسيليا أن تتذكّر، لم يكن هنري قد أتى على ذكرها من قبل. هذا ما جعلها تدرك أن الأمور وصلت إلى مرحلة يائسة. ظلّوا متباعدين إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ - فهمت شقيقة هنري أن الوضع حسّاسٌ جدًا. صارت تنظّف البيت، وتشتري مأكولات تضعها في البراد.

وذات يوم، سمعت سيسيليا شقيقة هنري تقول له إن عليه أن يرسل ابنته إلى مدرسة داخلية. رأت أن عيش الفتاة مع أمها ما عاد آمنًا أبدًا. لم

تثر الفكرة اهتمام هنري أول الأمر، «إنها ابنتها، بحقّ الربّ. إيتا في حاجة إلى أن تكون مع سيسيليا».

«يا هنري، هي لا تريد أن تكون معها. إنها لا تحب تلك الفتاة».

استرقت سيسيليا النظر من زاوية الباب وراحت تراقبه، غطى وجهه بيديه برهة، ثم هز رأسه وقال: «أنت مخطئة. لا علاقة للحب بالأمر على الإطلاق».

وبعد بضعة أيام، شنقت إيتا نفسها من شجرة البلوط التي في فناء البيت مستخدمة حزام هنري. حدث هذا في صباح يوم اثنين؛ وكانت الشمس قد أشرقت قبل قليل. كان البيت ومدرسة سيسيليا في شارع واحد؛ وكانت إيتا في الثانية والثلاثين.

- 59 -

سألت نفسي إن كان ألم قضاء الأيام في تخيل أنك تضاجع امرأة أخرى، يمكن أن يؤدّي إلى تخفيف وطأة إحساسي بافتقاد سام. من المؤكّد أن هناك حدًّا لمقدار الحزن الذي يستطيع شخص واحد احتماله. لهذا السبب، ظننت أن زيادة تركيزي على ما كنت تفعله بي قد يجعل ألمي وحزني على سام لا يخنقاني كثيرًا، لا يحرقاني كثيرًا. لكن هذا لم يحدث أبدًا. لم أستطع أن أعثر في خيانتك لي على ما يحطم قلبي تحطيمًا كافيًا. جعلني ما حدث لسام متبلّدة... ضربني ضربة شديدة صرت بعدها غير قادرة على الإحساس بأي شيء إحساسًا أعمق من إحساسي بفقده. أكنت تريد امرأة أخرى؟ لا بأس! أما عدت تحبني؟ أفهم هذا.

كانت الطبيبة التي تحدّثت إلينا في المستشفى بعد موت سام قد قالت لنا قبل انصرافنا: «كونا قويّين معًا. هناك علاقات زوجية كثيرة لا تقوى على الاستمرار بعد موت طفل. عليكما أن تظلّا منتبهَيْن إلى هذا، وأن تعملا جادّين على إنقاذ زواجكما».

قلتَ لي بعد ذلك معلّقًا على كلامها: «كيف تقول لنا الطبيبة هذا الكلام؟ لدينا هموم تكفينا؟».

ظللت ثمانية أيام من غير أن أواجهك بما لديَّ من شكوك. تابعنا حياتنا بهدوء حتى لا تحسّ فيوليت بأي توتّر. كنت زائد اللطف. كنتَ زائد الفطنة. لكني ما كنت أريد شيئًا من هذا. ما كنت أسألك أبدًا أين تذهب كل يوم لأن الأمر لا يهمني كثيرًا. تذهب لكي تراها... تذهب

لكي تعثر على عمل جديد! لست أدري. طلبت منك إلغاء زيارة أبويك في عطلة عيد الميلاد مع أن هذا بدا كأنه عقوبة لنا، أنا وأنت.

قلت لي: «لماذا لا تتّصلين أنت بأمي؟ أظنّك تستمتعين بأن توافيها بأخباري دائمًا».

معنى هذا: لقد قالت لك إنني اتصلت بها.

لم أدرِ شيئًا عن العذر الذي قدّمته إليها عندما ألغيت تلك الزيارة. لم أعد أردّ على اتصالاتها بعد ذلك مع أنني كنت أتألم كلما تجاهلتها.

وفي الليلة الثامنة، وجدتك في غرفة عملك. كنت تنظّف طاولة مكتبك. لقد أزحت مشاريعك كلها جانبًا... قدّمتها إلى الأشخاص الذين تابعوا العمل مع زبائنك. كانت ذراع مصباح المكتب الطويلة مطوية الآن كأنها ستوضع في غلاف حافظ وتُحزم تأهّبًا للانتقال. لعل هذا ما سوف يكون. بحثت عن علبة الشفرات فلم أجدها في أي مكان.

«أين وضعت أشياءك كلّها؟ أين وضعت أدوات التشكيل والتقطيع؟».

حبست أنفاسي وانتابني إحساس بالخجل لأنني أريد معرفة مكان تلك الشفرات. أطبق القلق على صدري كأنّه يهدّدني. أشرتَ إلى الخزانة بينما كنت تضع الأشياء في صندوق من الورق المقوّى. فتحت باب الخزانة المنزلق وجالت عيناي في فوضى الرفوف. ألعاب قديمة، وإطار صور مكدَّسَة، وقواميس أحتفظ بها منذ أيام الجامعة. ثم وجدت العلبة على الرف الثاني بين كتبك المعمارية وكأس فيها مساطر وأقلام. أغلقت باب الخزانة واستدرت إليك. لقد بدأ كتفاك يتحدّبان مثل كتفيّ أبيك. تساءلت إن كانت تحب أن تمر بيديها على الشعر الخشن على مؤخر رقبتك، وإن كانت ستحلق لك ذلك الشعر في يوم من الأيام مثلما كنت أفعل كثيرًا.

«كيف هو شكلها؟».

رفعت رأسك. بدَت الغرفة شديدة الاختلاف من غير ظلال مصباحك

التي كانت تتراقص على الجدران دائمًا عندما تعمل. صرت الآن ساكنًا جدًا. حبست أنفاسي من جديد وتساءلت في نفسي عما ستقوله لي بعد ذلك. لكنك لم تقل شيئًا. سألتك من جديد: «كيف هو شكلها، يا فوكس؟».

ثم خرجتُ من الغرفة. ذهبت إلى السرير. لم أدرِ إن كنتُ سأجدك في الصباح قد رحلت عن البيت. لكنّي أحسست ناحيتك من الفراش تتحرّك بعد بضع ساعات من ذلك... أو لعلها ساعة واحدة فقط.

«ما عدت أراها أبدًا». لقد كنت تبكي. سمعت ثقل أنفاسك في أنفك. وما كان في داخلي أي شيء. لا ارتياح. ولا غضب. كنت متعَبة فحسب.

وفي الصباح، جلبت القهوة إلى السرير قبل أن تستيقظ فيوليت. جلست إلى جانبك وأنت تشرب القهوة.

قلت لك: «خسرنا ما فيه الكفاية عندما مات سام». رأيتك تدعك جبهتك... «لكنك لم تتعامل أبدًا مع أساك عليه تعاملًا صحيحًا. أنت لم تواجهه». انتظرت أن تقول لي شيئًا.

«سام لا علاقة له بانهيار زواجنا. لا علاقة له بالأمر أبدًا».

انفتح باب غرفة نومنا، ثم دخلت فيوليت ووقفت تنظر إلينا. نظرتَ إليّ نظرة بطيئة، وكانت عيناك النعستان الآن متسعتين مثل عينيها. وبعدها، عادت عيناك إلى ابنتك.

قلت لها: «صباح الخير، يا حبيبتي».

سألتك فيوليت: «ألن نتناول طعام الإفطار؟».

خرجتَ من الغرفة لاحقًا بها.

- 60 -

كان أمرًا سخيفًا أن أتركه في ذلك المكان. تحت السرير. ألقيته هناك عندما سمعتك عائدًا وقت العصر. إلا أنك ما عدت تلقي أي بالٍ إلى الكتب التي أضعها هنا وهناك. ثم إنني لم أكن قد فكّرت فيها، إن أردت الصدق... أكاد أكون غير موجودة في عالمها؛ وتكاد تكون غير موجودة في عالمي إلا ضمن حدود ما يقتضيه روتين حياتنا الذي ظل مستمرًّا.

لست أدري ما جعلني أشتريه. كنت مدركة أنه لن يفيدني شيئًا. لكنني أحسست كأن هناك ما أستطيع فعله لمحاولة جعل الأمر حقيقيًا... لمحاولة جعلي أحسّ شيئًا مختلفًا عن الفضول اليائس. مر شهران منذ أن واجهتك في شأن علاقتك بها. وما كنت قادرة على التفكير إلا في شيء واحد: من هي تلك المرأة؟ كيف شكلها؟ لكن رفضت أن تقول أية كلمة عنها. كل ما عرفته هو أنها كانت سكرتيرتك. كانت هي المرأة نفسها التي أخذت ابنتنا لتناول طعام الغداء معها.

كلما سألتك أن تقول لي المزيد، تهز رأسك ولا تجيبني إلا بعبارة: «لا تفعلي هذا». تقولها بصوت خافت. وجدت الكتاب في حقيبتها المدرسية. «*الاستمرار في العيش بعد علاقة عاطفية: طريقة التغلّب على الخيانة في زواجك*». كانت فيوليت تأكل اللبن الرائب جالسة إلى طاولة المطبخ. هذا ما تحب أن تأكله بعد عودتها من المدرسة. رفعت رأسها عندما وقفت أحدّق في ذلك الكتاب بين يدي. لم أدر ما أستطيع قوله لها... إنها في العاشرة فقط. أيمكن أن تعرف معنى «علاقة عاطفية»؟ فكرت في الأطفال الأكبر سنًا في المدرسة. لن تتردّد في سؤالهم عن هذا.

سألتها بنبرة متوترة: «لماذا هذا الكتاب عندك؟». رفعت حاجبيها كأنها توحي لي بأنها تعرف، ثم وضعت ملعقتها في اللبن الرائب.

«أجيبيني».

«لماذا هو موجود عندك أنت؟».

ابتعدتُ عنها.

دققت باب غرفة فيوليت بعد ساعة من ذلك وسألتها إن كنا نستطيع الكلام. أدارت كرسيها بحركة بطيئة، ونظرت إليّ نظرة خالية من أي تعبير. رفعت الكتاب بيدي وقلت إنني أريد توضيح أمر من الأمور... هذا الكتاب عندي من أجل أبحاث أجريها في موضوع جديد أكتب عنه. قلت لها إن علينا أن نتكلّم فيما يعنيه تعبير «علاقة عاطفية» الذي يستخدمه الكبار. ماذا تفهم من هذا التعبير؟ ليس هذا الكتاب موجودًا عندي لأن هناك مشكلة بين أمها وأبيها. كل منا يحب الآخر كثيرًا.

قالت،: «لا بأس». ثم انكبّت من جديد على كتابها المدرسي.

كنت مدركة أنها تعرف تلك المرأة. لعل ذلك اليوم الذي أخذتها فيه معك إلى مكتبك لم يكن اللقاء الوحيد بينهما. ما كنت أدري شيئًا عن الأسرار التي تخفيانها عني معًا. كان أمرًا غريبًا جدًّا أنها لم تستخدم أبدًا قلم الرصاص الذي عليه وحيد القرن، ولا الممحاة، لم تستخدم هذين الشيئين اللذين قدّمتهما إليها تلك المرأة. احتفظت بهما على رف في غرفتها، فكانا معروضَين هناك كأنهما جائزتان، كأنهما من المقتنيات التي لا بد أنها تعني لها أكثر مما ظننت.

رميت الكتاب في سلة القمامة في الخارج، ورحت أتساءل في نفسي عن الأكاذيب الأخرى التي أستطيع قولها لها حتى تعزّز كذبتي الأولى. أردت أن أعود إليها، في غرفتها، وأقنعها مستخدمًا السلطة التي ينبغي أن تكون لدى الأم... أقنعها بأنها مخطئة. ما أردتها أن تظنني امرأة من

ذلك النوع، امرأة يمكن أن يخونها زوجها. أمقت هذه العلاقة بينك وبين فيوليت، أمقتها منذ عشر سنين، لكني لا أريدها أن تظنك أبًا يمكن أن يقدِم على فعل ذلك.

كنت مدركة أنني مربوطة إلى أسرتي بخيط واهٍ. لكن عليَّ أن أتمسّك بهذا الخيط. لا شيء باقيًا لي غيره.

بعد عودتك إلى البيت في تلك الليلة، لمستك بطريقة توحي بالعاطفة عندما ظننت أنها تنظر إلينا. خاطبتك بكلمة «حبيبي» بدلًا من استخدام اسمك. جلست على الأريكة إلى جانبك عندما كنت تتابع مباراة الهوكي. وضعت يدي في حجرك، وذقني على كتفك، وناديتها إلى الغرفة لكي أسألها إن كانت قد دفعت المال الذي أعطيتها إياه من أجل وجبة الغداء في المدرسة، من أجل البيتزا. نظرت إليّ متجهّمة، ثم انخفضت عيناها إلى يدي المستقرة على فخذ أبيها، وهزَّت رأسها هزة بسيطة، حركة صغيرة إلى الأمام وإلى الخلف كانت كافية لأن تقول لي إنها تفهم ما أحاول فعله. لديها قدرة واضحة على جعلي أكره نفسي.

استيقظت صبيحة يوم أحد بعد شهر من ذلك، أي بعد ثلاثة شهور من اكتشافي تلك العلاقة العاطفية، فأدركت كل شيء. لقد انتهى الأمر. علينا أن نكفّ عن التظاهر بأننا سنتجاوز الأمر كلّه، بأننا سنتجاوزه ببساطة كأنه منظر مزعج على ضفة نهر نعوم فيه مع التيار الجاري. خرجت جليسة الأطفال مع فيوليت لقضاء فترة العصر في الخارج، وذهبت معك إلى بار في شارعنا.

«أنت لا تزال تراها، أليس هذا صحيحًا؟».

اكتفيتَ بالنظر عبر النافذة، ثم أشرت إلى النادل بحركة نافدة الصبر. سألتك من جديد إن كنت تستطيع -من فضلك- إخباري عن تلك المرأة. قل لي، لماذا أحببتها؟ لم تحاول تفادي عينيّ. بدوت كأنك تناقش في ذهنك مقدار ما ينبغي أن تقوله لي، وما الأسرار التي أنت مستعد للبوح

عنها. انفجر إلحاح في داخلي، وما عدت قادرة على البقاء جالسة هناك، قبالتك... علينا أن ننهي هذا الأمر. أريدك أن ترحل.

سرت مسرعة في طريق عودتي إلى البيت وقد التصق معطفي بصدري. نزلت إلى القبو، وجلبت الحقائب. وضعت فيها ملابسك كلّها، وضعتها مرتبة؛ ثم أغلقتها. اتصلت بواحدة من شركات النقل، وحجزت أربعة صناديق كبيرة. سيارة نقل مغلقة صغيرة ستصل صبيحة اليوم التالي. وجدت في درج مكتبك بطاقات لاصقة صغيرة، فرحت أسير في البيت وأضع واحدة منها على كل شيء نستخدمه معًا وأريدك الآن أن تأخذه معك: الطاولة الصغيرة الدوارة في المطبخ، وآلة التسجيل، ومجموعة أطباق أتتنا هدية من والديك، وبساط في الممر عند مدخل البيت، ذلك الذي عليه علامات من حذائك الذي لا تخلعه أبدًا عندما أطلب منك خلعه، وأريكة غرفة المعيشة التي صار شكل مؤخّرتك مطبوعًا فيها على مر السنين، والمزهرية الزجاجية الخضراء، ولوح التقطيع المصطبغ بلون الدم من اللحوم الحمراء، والكراسي التي طلبتها من أجل طاولة غرفة المعيشة، تلك التي تؤلم ظهر كل من يجلس عليها، وأثاث غرفة عملك كله، وأكثر ما في البيت من أعمال فنية. ذهبت بعد ذلك إلى الخزانة في غرفة عملك. وجدت علبة الأنصال. أخذت أطوَلها ولففته بشالٍ حريريٍّ، ثم وضعته في الدرج الأسفل في خزانتي.

«لا يهمني أين ستنام هذه الليلة. ما عليك إلا أن تعود غدًا لكي تحزم بقية الأشياء التي تريد أن تأخذها». بل إنني قبّلتك قبلة الوداع... إنها عادة... سلوك تلقائي لامرأة متزوجة. فكرت في أشياء سام عندما كنت صاعدة إلى الطابق العلوي. لقد احتفظنا بكل ما يخصّه في صناديق وضعناها في القبو. لعلك تريد شيئًا منها... بطانية، أو لعبة. لعله يجدر بي أن أسألك عن هذا. لعلك متمسّك برائحته الخفيفة الباقية في ثنايا القماش بعد قرابة ثلاث سنين. فتحت صنبور الماء في الحمام، وخلعت

ملابسي. أخفى الماء المنهمر صوت خطواتك في الممر، فأجفلتني رؤيتك بباب الحمام. سترت ثديي بيدي، واستدرت. أحسست الآن بأنك تقتحم خلوتي. بعد تلك السنين كلّها، أحسّك الآن شخصًا غريبًا.

«ماذا عن فيوليت؟». لم ترفع عينيك عني عندما دخلتُ حوض الاستحمام. كان الماء شديد الحرارة، لكني أرغمت نفسي على الجلوس فيه.

«ماذا عنها؟ أنت من فعل هذا. ولك أن تقرر ما تقوله لها».

نظرت إلى الأعلى مبعدًا عينيك عني مثلما تفعل دائمًا عندما أقول شيئًا يجعلك تتمنّى لو أنني لست على هذا القدر من المعاندة أو الغموض أو الاختلاف أو قلة الوضوح... أو تقلّب الرأي... أو التهكّم. هذه كلّها من جملة الأشياء التي لا تريدني أن أكونها. دعكت جبهتك بيدك كأنني أرهقك. الظاهر أني أجعلك تتمنى لو أنني ما كنت موجودة أبدًا.

«فعلت كل ما أستطيعه حتى يبقى الأمر بعيدًا عنها لأنني لا أريد أن تنشأ لديها أفكار سيئة عنك. لا أريد أن تتغير الأمور بينكما. لكني أظنّها عارفة».

قلت هذا وانتظرت ردّة فعلك. أردتك أن تكون ممتنًا لي، وأن تكون مقرًّا بأنك من فعل هذا بنا. لكن كل ما قلته كان: «أريد وصاية مشتركة، وأن نقسم الوقت بيننا بالتساوي».

«لا بأس».

راقبتَ انزلاقي داخل حوض الاستحمام إلى أن صار جسدي كله مكوّرًا تحت الماء. كنت تنظر إليّ، إلى المرأة التي لم تضاجعها منذ سنتين. تساءلت في نفسي إن كنت ستحاول أن تدخل ذلك الحوض معي... إن كنت لا تزال راغبًا في الإحساس بجلدي، مرة أخيرة، بالرغم من عيوبي كلّها ومن الخيبات التي سبّبتها لك كلّها. نظرت إليك فلم أشعر بشيء نحوك... لا حبًا، ولا كرهًا، ولا أي شيء بينهما. أهكذا ينبغي

أن يكون الإحساس بلحظة النهاية؟ هناك أشخاص يبذلون جهدهم عند تلك اللحظة، ويكافح كل منهم من أجل العودة إلى الآخر... يفعلون هذا من أجل أطفالهم، من أجل الحياة التي يعتقدون بأنهم في حاجة إليها. ولكن، ما كان عندي شيء يوقد تلك النار. ما كان عندي شيء أعطيه.

صدمني ما قلته لي: وصاية مشتركة. سأكون وحدي معها. هذا ما كنت تعنيه عندما سألتني: «ماذا عن فيوليت». لقد أردتَ القول: «ماذا عنكِ مع فيوليت؟ وماذا عن الحياة التي ستكونين مضطرة إلى احتمالها معها من غيري؟ ماذا عن الأيام التي تمرّ من غير أن تكلّم إحداكما الأخرى؟ ماذا عن الليالي التي تحسّ فيها بحاجة إلى أحد معها، لكنك لا تكونين وافية بالغرض؟ ماذا عن الأوقات التي تكون مدركة فيها أنك تتظاهرين برعايتها والاهتمام بها مثلما ينبغي أن تفعلي؟ من سيصدّقها؟ من سيدافع عنها؟ من سيروّح عنها؟ من سيبهجها في الصباح عندما تستيقظ؟ من سيحبها في تلك الأيام عندما تكون وحدها معك وتكون في حاجة إلى الاطمئنان إلى أن كل شيء سيكون على خير ما يرام؟ من سيصدّقها؟».

وقفت مرتديًا بنطلون الجينز وكنزتك الرمادية، واضعًا يديك في جيبيك، وقفت تنظر إليّ. عارية. منقوصة. قابلت نظرات عينيك الثاقبة، وقلت: «سنكون بخير. أنا أمّها».

- 61 -

أدمغتنا تراقب دائمًا. تترقّب الخطر. من الممكن أن يأتي في أية لحظة. تدخل المعلومات الدماغ فتفعل أمرين اثنين: تصيب وعينا حيث نستطيع ملاحظة تلك المعلومات وتذكّرها. وتصيب لا وعينا أيضًا حيث يتولى جزء صغير من الدماغ له شكل حبة اللوز اسمه الجسم اللوزي تفحص المعلومات بحثًا عن أية علامة منذرة بالخطر. نحسّ الخطر خلال وقت أقصر مما يلزمنا لإدراك ما نراه أو نسمعه أو نشّمه... خلال اثني عشر جزءًا من ألف جزء من الثانية. نستجيب استجابة سريعة جدًّا يمكن أن تحدث، حتى قبل أن يصير لدينا إدراك واعٍ بأن هناك أمرًا ينبغي أن نخافه. تمامًا مثلما يحدث عندما نرى سيارة تقترب. تمامًا مثلما نرى شخصًا ستصدمه تلك السيارة.

إنها المنعكسات. إنها تخبرك عن المنعكس الأكثر طبيعية في العالم عندما تلد امرأة طفلها – منعكس الأوكسيتوسين. هرمون الأمومة. هو ما يجعل الحليب يتدفّق ويملأ تلك القنوات ثم ينساب داخل فم الطفل. يبدأ الهرمون عمله عندما تتوقّع الأم أن عليها إطعام طفلها، عندما تشمّ طفلها أو تمسه أو تراه. لكنّ له أثرًا على سلوك الأم أيضًا. يجعلها هادئة، ويقلل توتّرها. يجعلها تحبّ طفلها. يجعلها تنظر إلى طفلها فتجد نفسها راغبة في إبقائه حيًّا.

شهد مقطع فيديو انتشارًا واسعًا جدًّا على الإنترنت. كان عن امرأة شهيرة. عن أرستقراطية بريطانية شابّة تحبّ الصحف متابعة أبنائها، وعن طفلها الصغير ذي السلوك الهائج. تمسك به ثلاث مرات عندما يكون في

خطر شديد - تندفع لإمساك يده لحظة سقوطه على سلم الطائرة الزلق، وتقبض على ياقة قميصه فوق مقدمة يخت زلقة، وتجذبه إلى الخلف مبعدة إياه من درب حصان منطلق في لعبة بولو. تفعل ذلك في اللحظة الأخيرة. مثلما يطبق فكّا أفعى سامة على فأر. إنها غرائز الأمومة... حتى عند تلك الأم المحاطة بالمربّيات، الأم المتأنّقة، ذات الكعب العالي، ذات الشعر المزيّن.

أخذت فيوليت هاتفي صبيحة يوم أحد قبل فترة قصيرة من انتقالك، فوجدت مقطع الفيديو على يوتيوب. جلست على الأريكة إلى جانبي تحت شعاع من شمس نهاية الأسبوع الدافئة. كنت أقرأ. رفعت الهاتف أمامي.

«هل رأيتِ هذا؟».

تابعت ذلك المقطع. كانت تنظر إليّ مهتمة طيلة ستين ثانية، إلى أن انتهى. قالت لي: «الأم تنقذ طفلها كلّ مرّة».

«هذا صحيح». وضعت الهاتف من يدي، ثم تناولت فنجان الشاي. ارتجفت يدي الممسكة بالفنجان. وددت أن أصفعها. وددت أن أصدم رأسها بظهر الأريكة حتى ينزف فمها دمًا.

أنت، أيتها البنت الصغيرة اللعينة الغبية. أنت، أيتها القاتلة.

لكني خرجت من الغرفة وبكيت بصوت منخفض فوق المغسلة... والماء يجري. كنت حزينة. اشتقت إليه كثيرًا، كثيرًا جدًّا. اقترب عيد ميلاده الرابع.

- 62 -

نظرتُ إلى الحيّز الخالي الذي تركتَه في غرفة نومنا. لقد أخذت معك صورة سام عندما انتقلت. جلست على الأرض وتخيّلتها هناك، الأم، ويد الصغير المطبقة على ذقنها. وأصابعها المحيطة بفخذه. دفء جلدها.

«أنا جائعة»... كانت فيوليت تنظر إليّ من عتبة الباب، لا تزال مرتدية الملابس نفسها التي ذهبت بها إلى المدرسة... «إلامَ تنظرين؟».

«سوف أطلب طعامًا».

«لا أريد طعامًا نطلبه من الخارج».

«سأعدّ لك سباغيتي».

رضيت بهذا، وتركتني وحدي. ما كنت أريدها هناك. وما كنت قادرة على جعل عينيّ تفارقان الثقب الذي تركه المسمار في الجدار.

طهوت السباغيتي في حين كانت تنهي واجباتها البيتية على طاولة المطبخ. لديها عادتك نفسها، عادة تقريب أنفها من الورقة التي تكتب عليها حتى يكاد يمسّها. رأيت التحدّب في ظهرها، فابتسمت من غير تفكير. ثم تذكرت أنك رحلت. تذكّرت أنك ما عدت الشخص الذي أبتسم إذا تذكّرته.

«هل تحبين تناول الآيس كريم بعد العشاء، ومتابعة برنامج في التلفزيون؟».

«ما عاد لدينا تلفزيون هنا؟».

«صحيح. ما رأيك في أن نلعب لعبة؟».

ما كانت في حاجة إلى الإجابة عن هذا السؤال.

«كم الساعة الآن؟ أظننا لا نزال قادرتين على الذهاب إلى السينما، العرض الأخير».

«عندي مدرسة غدًا». محت شيئًا بحركة عنيفة، ثم أزاحت فتات الممحاة فسقط على الأرض.

«أعرف، لكني فكّرت في أن يكون ذلك استثناءً».

وضعت مريلة المطبخ عندما بدأت تقليب الصلصة. لقد ذهبت للتسوّق واشتريت ملابس جديدة بعد خروجك من بيتنا. ارتديت الكنزة ورداء الكشمير الرمادي في حجرة تجربة الملابس في المتجر، وعدت بهما إلى البيت. اشتريت كنزات أخرى. لم أعتد أبدًا أن أفعل شيئًا من هذا القبيل. أن أشتري كومة ملابس غالية الثمن دفعة واحدة. لكني رغبت ذلك اليوم في فعل شيء متهوّر ولم أستطع التفكير في شيء غير هذا. كنت لا تزال تسدّد ما أسحبه من بطاقة فيزا.

«إن لديها كنزة مثل كنزتك هذه».

لديها! توقّفت عن تحريك الصلصة وكأنني قادرة على طرد ذلك الحيوان إذا كففت عن الحركة. ومن زاوية عيني رأيت فيوليت تعود إلى عملها، أنفها على مقربة شديدة من الصفحة. أردتها أن تقول المزيد.

قلت لها: «هذا شيء لطيف».

رفعت رأسها ونظرت إليّ... أهو لطيفٌ؟

«أظن بأن لديها ذوقًا ممتازًا». غمزت لها بعيني ووضعت السباغيتي على الطاولة. تركتها تبرد ريثما تفرغ فيوليت من الكتابة. انحنيت فوق الموقد متسائلة عما قد تقوله لي.

«إذًا، أنت ذاهبة غدًا إلى بابا. هل أنت متحمّسة لرؤية بيته الجديد؟».

«إنه بيتهما».

لم أدرِ إن كانت تكذب أم لا تكذب... الظاهر أنها تعرف أكثر مما أعرف. لقد افترضت أنك تعيش وحدك. لكنّي لم أهتم بالسؤال عن هذا الأمر. تساءلت إن كنت قد تحدّثت مع فيوليت عن انفصالنا في وقت أبكر كثيرًا من مناقشته معًا. خلعت المريلة ونظرت إلى كنزتي. ألا أزال قادرة على إعادتها إلى ذلك المتجر؟ لكني رأيت الآن أن على كمها نقاطًا من صلصة السباغيتي.

«لا بأس، حسنًا، إنه بيتهما. هل أنت متحمّسة؟».

«هناك أمر عنها ينبغي أن تعرفيه». قالت هذا بنبرة حادة.

كنت ممسكة طبق السباغيتي الذي سكبته لنفسي أوشك على الجلوس معها إلى الطاولة. حبست المفاجأة أنفاسي... لعلّه خوف مما ستقوله لي بعد ذلك.

«ماذا؟».

هزت رأسها ونظرت إلى طبقها من جديد ففهمت أنها ما كانت أبدًا تريد إخباري بذلك الشيء. أو لعله ما من شيء تخبرني به.

«لسنا مضطرتين إلى الحديث عنها. هذا أمر متعلّق بأبيك، ولا علاقة لي به». ابتسمت لها. أدرت شوكتي في الطبق إلى أن التفّت السباغيتي عليها، ثم رفعتها إلى فمي.

- 63 -

أعادت أمي اختراع نفسها بعد أن هجرتني؛ لكن تعبير «اختراع نفسها» قد يكون مبالغًا في كرمه. عرفت هذا عندما كنت في الثانية عشرة، فرأيتها في مطعم على مقربة من المدينة. كانت واقفة عند البار، بين مقعدين مرتفعين، تطلب شوكة نظيفة بصوت لم أسمعها تستخدمه قبل ذلك. لكنّي كنت قادرة على معرفتها من ظهرها... تكوُّر كتفيها، وانحناءة ردفيها. أعطوها الشوكة، فقالت: «شكرًا»، بصوت بدا مختلفًا عن صوتها عندما كانت أمي. خرجت الكلمة من فمها مترفّعة وهي تدور على عقبَيّ حذائها الأسود. ناولتُ الرجل الذي كان معها الشوكة النظيفة فقال لها: «أشكرك يا آني، يا حبيبتي». كان اسم أمي الأوسط آن.

علمت في ما بعد أن ذلك الرجل الضخم هو ريتشارد. كنت أعلم أيضًا أن هناك رجلًا آخر، الرجل الذي سمعت صوته على الهاتف قبل رحيلها، الرجل الذي شككت بأن له صلة بالدم الذي في المرحاض. لكني لم أتخيّل أن يكون شكله هكذا - لقد كان وسيمًا، لكنه فاسقٌ، وله شعر رطب وجلد لامع. يضع في معصمه ساعة ذهبية ضخمة. بدا لي أن وجهه قد لوّحته الشمس مع أننا كنا لا نزال في شهر آذار. كان شديد الاختلاف عن أبي، شديد الاختلاف عن الحياة التي تخيلتُ أنها تركتني لكي تحياها.

اندسست في المقصورة إلى جانب السيدة إنغتون التي أتت بنا، أنا وتوماس، احتفالًا بإحرازنا المركز الأول في معرض علمي أقامته المدرسة. لقد وقفت تنظر إلينا من الناحية الأخرى للصالة الرياضية

ونحن نعرض أمام الحكام ما توصّلنا إليه واقفين في مواجهة اللوحة الكبيرة التي صنعناها وكتب عليها توماس شرح التجربة بخطه الأنيق المتأنّي، وإلى جانب تلك الكلمات صور تفصيلية رسمتُها من أجل كل قسم من أقسام التجربة. شيء عن الضوء فوق البنفسجي... لا أستطيع تذكّره الآن. لكنّي أتذكّر كيف كانت السيدة إنغتون تومئ برأسها عندما قدمنا عرضنا، وكأنها قادرة على سماع كل كلمة نقولها عبر أصوات مئة تلميذ في تلك القاعة. نظرت إليها واقفة في البعيد وشددت كتفيّ أثناء كلامي مثلما تفعل. أردتها أن تفخر بي.

جلست زمنًا بدا لي ساعات طويلة وأنا أنظر إلى أمي وريتشارد يتناولان طعامهما ثم يطويان مناديل الطاولة مثلما يفعل الأشخاص المحترمون. كانت ترتدي بلوزة شفافة سوداء فضفاضة لها وردة حمراء مطرزة على ياقتها. لم أرها من قبل مرتدية شيئًا مثيرًا كهذه البلوزة. وضع الرجل المال على الطاولة حتى قبل أن يريا الفاتورة. ألقت السيدة إنغتون نظرة في اتجاهها، لكنّها لم تقل لي شيئًا في ذلك الوقت، ولم تقل لها شيئًا. اكتفينا بتناول الآيس كريم. وراح توماس يتحدّث عما نستطيع فعله بالجائزة النقدية التي فزنا بها: خمسون دولارًا. وأما أنا، فقد شلّني القلق وخدّرني، فهل تلتفت أمي وتلمحني جالسة هناك؟ جزء صغير منّي كان يتمنّى أن تفعل ذلك. لكنّها لم تلتفت. أحسست انفراجًا عندما ذهبَت... ما كنت واثقة من أنها ستأتي وتسلم علينا إذا رأتني. خرجنا من المطعم وعُدنا بسيارة السيدة إنغتون.

تركتِ السيدة إنغتون، توماس يجري صوب بيته، في حين سارت معي حتى نهاية الممر أمام بيتنا. قالت لي: «هل أنت بخير، يا بلايذ؟». أومأت برأسي وابتسمت، ثم شكرتها لأنها أوصلتني إلى البيت. ما كنت أريد أن تعرف السيدة إنغتون كم جرحتني رؤية أمي سعيدةً، جميلة، في حال أفضل من دوني.

ركعت على ركبتيَّ ويديَّ قبل استلقائي في الفراش تلك الليلة، وصليت متمنّية أن تموت أمي. أفضِّل رؤيتها ميتة على رؤيتها تلك المرأة الجديدة التي صارتها، تلك المرأة التي تغيّرت وما عادت أمّي.

- 64 -

لم يتجنبني أحد من قبل... على الأقل، لا أتذكّر حدوث هذا. ولكن، كان أكثر سهولة عليَّ أن أرى الملكة وجهًا لوجه من أن أراك شخصيًا بعد سنة من ذهابك. ما أردت يومها شيئًا غير أن تسلّمني فيوليت عند المدرسة؛ وكانت رسالتك النّصيّة مقتضبة جدًّا. لكني أردت رؤية المرأة التي تركتني من أجلها، المرأة التي تعيش في الشقة نفسها حيث تمضي ابنتي نصف وقتها. أردت أن أعرف الفرق بيننا. أردت أن أستطيع تخيلكما معًا. لقد تجنّبنا المحاكم والمحامين نزولًا عند طلبك؛ وهذا ما جعلني (بعض الشيء) صاحبة اليد العليا في مفاوضاتنا الحذرة. لكنك كنت متصلبًا في هذا الأمر: لن تتركني أقابلها إلى أن تحسّ بنفسك مستعدًا لذلك. لا مجال لمناقشة أي خيار مختلف.

قلت لفيوليت بعد أن أخبرتني بأن المرأة أوصلتها إلى المدرسة ذلك الصباح، «أحب أن ألتقي صديقة بابا الجديدة». كنا في يوم جمعة، وسوف تمضي عطلة نهاية الأسبوع عندي.

«لعلّها ليست راغبة في لقائك».

«لعلّها كذلك».

وضعت فيوليت حزام الأمان ونظرت إلى مفتاح السيارة الذي أدخلته في مكانه. كانت تواقة لأن أشغّل المحرّك وآخذها إلى حيث تستطيع ألّا تكون قريبة مني، مثلما هي الآن في المقعد الذي خلفي. ألقيت نظرة سريعة على مرآة السيارة، فرأيت تعبير وجهها قد تغير... نظرة إشفاق. لا أدري إن كان ذلك التعبير صادقًا أم لم يكن.

«هناك سبب يجعل بابا لا يريدك أن تلتقيها». خفّضت صوتها كأنها تقول لي سرًّا، أو كأنها تعطيني ما يساعدني على فهم سرٍّ لم أدرك بعد أنني أحاول حلّه. نظرت من النافذة إلى صف مداخل البيوت المألوف الذي كنا مارّين به في طريقنا إلى البيت. لن تكلّمني إلا مرات قليلة جدًّا خلال ما بقي من تلك الأمسية.

لذا... لست واثقة من أنك تركتَ لي خيارًا غير أن أفعل ما فعلت.

قالت لي فيوليت إنكما ستذهبان معًا إلى الباليه في الأسبوع التالي، أنت وهي فقط. لا تستطيع المرأة أن تذهب معكما لأن لديها ارتباطا مسبقًا ليلة الأربعاء، في التوقيت نفسه. بحثت في الإنترنت عن عرض الباليه، فوجدت أنه يبدأ في الساعة السابعة مساء. كنت أعرف أيضًا أنك ستأخذ فيوليت لكي تتناول البيتزا قبل الذهاب إلى الباليه.

كانت البناية السكنية غير المرتفعة التي تسكنها الآن قائمة في جزء ثري قديم من المدينة، في جزء أعرفه جيدًا. ذهبت إلى تلك المنطقة بسيارة تاكسي، نزلت منها قبل بضع كتل سكنية. كانت الساعة السادسة والنصف. لا تزال الشوارع مزدحمة. نظر السائق إليّ في المرآة كأنه استطاع الإحساس بتوتري، أو كأنه رأى أصابعي تجذب مرة بعد مرة ذلك الخيط السائب في حاشية معطفي. أعطيته بقشيشًا كبيرًا جدًّا لأنني ما كنت راغبة في الانتظار حتى يعيد إليّ بقية النقود. وضعت قبعة معطفي على رأسي فغطى فراؤها القسم الأكبر من وجهي. كان السير أمرًا حسنًا لتهدئة أعصابي. تراجع توتري ورحت أنظر إلى حركة قدميّ، واحدة أمام الأخرى، إلى أن اقتربت من بنايتك. استندت إلى جدار من القرميد الأحمر وخلعت قفازيَّ من يديَّ، ثم أخرجت هاتفي من جيبي. لم تكن لدي خطة حقيقية؛ لكن من المنطقي أن أبدو امرأة منشغلة، مهتمة بقراءة الرسائل في هاتفها... مثل أي شخص آخر في الشارع.

راقبت باب مدخل البناء من طرف عيني. صارت رؤية ما في الداخل أكثر سهولة مع تزايد ظلمة السماء. دخلت بضع نساء، وخرجت بضع نساء، لكنّي عرفت أنها ليست واحدة منهن... أكبر سنًا مما ينبغي، أضخم مما ينبغي، معهنّ كلاب كثيرة. ثم خرجت من ذلك المدخل امرأة ترتدي سترة منتفخة ناعمة، هاتفها في يدها. ابتسمت المرأة للبواب. كان شعرها طويلًا، متموّجًا، مردودًا جانبًا. رأيت في أذنها قرطًا ماسيًا عندما لمع في ضوء المصابيح المعلّقة في سقف المدخل. رفعت ذراعها حتى تضع حقيبة يدها على كتفها، ثم أخرجت منها زوج قفازات بلون جلد الفهد... كان الطقس يتحوّل سريعًا إلى ليلة باردة شديدة الريح. وكنت واثقة كل الثقة من أنها هي المرأة التي أريد. لذا، اعتمدت على تلك الثقة، ولحقت بها.

كان اللحاق بها سهلًا. حذاؤها الجلدي ذو الرقبة المرتفعة كان له عقبان ثخينان منخفضان؛ وكانت تسير بخطوة بطيئة كأنها لم تترعرع في المدينة. رأيتها تضغط مفاتيح إشارات المرور الضوئية كلّها مع أن أكثر الناس يعرفون أن لا فائدة منها. لو رآني الناس أفعل شيئًا من هذا القبيل لأصابني ذلك بالتوتر، على ما أظن؛ لكن اللحاق بها بدا لي أمرًا في غاية السهولة. أجرت المرأة مكالمة هاتفية سريعة بينما كنت واقفة على مسافة بضع أقدام خلفها عند واحدة من الإشارات الضوئية؛ ثم لم تلبث أن انطلقت مسرعة قبل أن تنتهي فترة الضوء الأخضر الذي سهت عنه فكادت تفوّته. وبعد مسافة قصيرة جدًّا، انعطفت فدخلَت مكانًا زرته مرات كثيرة من قبل عندما كنت من سكان هذا الحي: مكتبة صغيرة فيها رفوف منحوتة نحتًا تزيينيًا ممتدّة من الجدار إلى الجدار، وفيها كرات زجاجية حليبية اللون معلّقة من سقف ارتفاعه عشرون قدمًا تتأرجح تأرجحًا خفيفًا كلما انفتح الباب.

نظرتُ مرة ثانية إلى اللافتة المعلّقة في الواجهة... حتى أتأكد. تغلق

المكتبة في الساعة السادسة أيام الأربعاء؛ هذا ما كنت أتذكّره تذكّرًا غامضًا. لكن الأنوار كانت مضاءة. وضعت كفي على الزجاج حتى أحجب الوهج الآتي من مصباح الشارع فيصير ما في الداخل أكثر وضوحًا. رأيت أن هناك أربعين شخصًا، أو لعلّهم خمسون شخصًا. كلهنّ نساء. رأيت المعاطف موضوعة على مقعدين طويلين اثنين، ورأيت أيضًا طاولة موضوعة إلى جانب الجدار عليها نبيذ وقالب حلوى مقدَّم من المخبز المجاور. لم يبد لي أن هناك من يدقّق في التذاكر، أو في الأسماء. توقّعت رؤية لافتات عليها اسم كاتب من الكتّاب، أو طاولة عليها كتب من أجل توقيعها. بدا لي جميع من في الداخل أصغر منّي سنًا. نساء كثيرات جئن بأحذية مثل حذائها... أنت تعيش في حي إيجارات بيوته مرتفعة، ومتاجره كلّها تبيع الأشياء نفسها. كان مع المرأتين الواقفتين على مقربة من الواجهة طفلان مولودان حديثًا. وكانت كل منهما قد علّقت طفلها عند صدرها بحمالات مصنوعة من قماش مخطط. كانت المرأتان تتحدّثان وتتمايلان يمينًا وشمالًا، تتمايلان بالإيقاع نفسه تمامًا. تذكّرت ذلك الإحساس، ذلك الإحساس بشيء يشبه جهاز توقيت إيقاعي لا يفارق ردفيّ المرأة أبدًا عندما تحس ثقل صغيرها على جسدها.

كانت واقفة على مقربة من الجدار الخلفي. رأيتها تمسد بيدها شعرها الكثيف الداكن بينما كانت إحداهن تضع يدها على كتفها لكي تحيّيها. تعانقت المرأتان. رأيتها تضغط وجنتها الوردية على وجنة صديقتها الطويلة الشقراء. لها وجه متألّق، وعينان كبيرتان داكنتان على رموشهما طبقة كثيفة من الماسكارا، وعلى وجهها ابتسامة. بدت كأنها تذكّرت شيئًا أحضرته معها لتلك المرأة الشقراء... بحركة سريعة وضعت يدها في حقيبتها وأخرجت منها شيئًا رماديًا صغيرًا، حملته المرأة وضغطت به على صدرها شاكرة إياها. انضمت إليهما امرأة أخرى ناولت كل منهما كأس نبيذ.

بدأت الغرفة تمتلئ. سرعان ما أصير غير قادرة على الرؤية من الخارج. غاض قلبي في صدري. أريد المزيد. ينبغي ألا أخشى دخول ذلك الباب -من المؤكّد أنها رأت صورة لي في وقت ما؛ ومن المؤكد أنها تعرف شكلي- لكنّي دخلت ووضعت معطفي فوق كومة المعاطف. رأيت إحدى العاملات في المتجر تغلق صندوق المحاسبة فاقتربت منها وسألتها بصوت منخفض: «هل تعلمين أين أستطيع العثور على مضيفة هذه الحفلة؟».

«ليست حفلة في حقيقة الأمر. إنها مجموعة أمّهات. ملتقى تأتي إليه من تحب أن تأتي. يأتيهم أحيانًا متحدّثون يلقون كلمات، أو أشياء مجّانية تقدّمها هذه العلامة التجارية أو تلك. نحن نعيرهم المكان أملًا في أن يحقّق لنا هذا بعض المبيعات».

«وهل جميع من هنا أمهات؟».

«أظن أن هذا ليس شرطًا ضروريًا. لكني لا أعرف سببًا آخر يدعوهن إلى المجيء». هزت كتفيها، ثم اعتذرت مني وذهبت إلى غرفة في خلفية المتجر حاملة صندوق المال معها. نظرت في أرجاء المكان فسمعت فجأة سيمفونية مشكلات الأمهات تُعزَف من حولي... تدريبات النوم، وبدء وجبات الطعام الصلب، والبيجامات ذات السحابات بدلًا من البيجامات ذات الأزرار، وقوائم الانتظار من أجل التسجيل في حضانات الأطفال. سكبت لنفسي نبيذًا في كأس بلاستيكية صغيرة، وسرت متمهّلة صوب الناحية الأخرى من الصالة، حتى بلغت نقطة أستطيع رؤيتها منها. نظرت إلى هاتفي آملة ألا تأتي إحداهنّ وتكلّمني. كنت أرفع رأسي بين الفينة والأخرى حتى أنظر إليها. بدا لي أنها تروي قصة. كانت تستخدم يدها الحرة فتلوّح بها تلويحًا بسيطًا بحركات تكاد تبدو مذعورة، مثل جناحَيّ فراشة. أومأت المرأتان برأسيهما، وضحكتا. اقتربت منهما واحدة أخرى وفتحت عينيها على اتساعهما وقالت لهما شيئًا، فضحكن جميعًا

من جديد. لاحظت أنها تلمس الناس كثيرًا. تلمس الأذرع، والأيدي، والخصور. يمكنني القول إنها امرأة متّقدة العاطفة. تذكّرت قدميك العاريتين تحت الملاءات، وكيف تحاولان دائمًا أن تعثرا على قدميّ في الليل، تحاولان الاندساس في ربلتي ساقيّ حتى تشعرا بالدفء. وتذكّرت كيف كنت أبتعد عندك، أبتعد في السرير، أبتعد أكثر فأكثر.

«هل أنت هنا لأول مرة؟».

ظهرت أمامي امرأة ربطت شعرها عاليًا فوق رأسها، وعلى شفتيها أحمر شفاه فاقع. كانت معها بطاقة كُتب عليها «*ليلة الأمهات*» مع مجموعة شعارات صغيرة لشركات متعدّدة.

«صحيح. هذه أول مرة. أشكرك».

«عظيم! أستطيع تعريفك على بعض الموجودات هنا. كيف سمعتِ عنّا؟».

وضعت ذراعها خلف ظهري وقادتني وسط القاعة من غير أن تنتظر سماع إجابتي.

قالت بصوت مرتفع، «سيدني، إنها جديدة»، ثم رفعت يدها عاليًا وأشارت إليّ كأنني في حاجة إلى علامة توضع على أذنيّ حتى تستطيع الحاضرات كلّهنّ متابعتي. رفعت سيدني حاجبَيْها وشقّت طريقها عبر الحشد حتى وصلت إليّ.

«وأنتِ ما اسمك...؟».

«سيسيليا». كان ذلك هو الاسم الوحيد الذي حضر في ذهني. نظرت من فوق رؤوسهن صوب المكان الذي كانت تقف فيه، لكني لم أستطع رؤيتها. ما عادت واقفة مع المرأتين الأخريين. جالت عيناي في الغرفة، وبدأت أحسّ غثيانًا.

«حسنًا، أهلًا بك يا سيسيليا. أهنئك لأنك جعلت نفسك تخرجين من البيت هذه الليلة. كم بلغ عمر طفلك؟».

«أشكرك... أتعرفين؟... أردت أن أعرّج على المكان حتى أحصل على بعض المعلومات. سأحاول البقاء أكثر في المرة القادمة». رفعت هاتفي أمامها كأني أريد القول إن أحدًا أرسل لي شيئًا... كأنني شخص لديه من هو في حاجة إليه... «عليّ الآن أن أسرع».

«بالطبع. عودي مرة أخرى». تناولَت رشفة من نبيذها، ثم استدارت لكي ترحّب بامرأة أخرى.

وجدت أن معطفي لا يزال فوق كومة المعاطف كلّها، لكني رحت أبحث بينها لشراء بعض الوقت، وأنا ألقي نظرات سريعة من فوق كتفي علّني أعثر عليها في ذلك الحشد الذي صار كثيفًا. عليَّ أن أذهب... أمضيت وقتًا كافيًا هنا. رفعت قبعتي فغطيت بها رأسي وخرجت إلى زوابع الثلج المتواثبة في الشارع. جلست على مقعد قبالة تلك المكتبة، ودفنت رأسي بين ركبتيّ.

إنها أم. لقد وجدتَ لنفسك أمًا أفضل من أجل ابنتك. وجدتَ المرأة التي أردتها دائمًا.

- 65 -

كنت متوتّرة الأعصاب في المرة الثانية.

اشتريت الشعر المستعار البني الطويل من متجر يبيع مستلزمات المسارح. لو رأيته لقلت لي إنه كشعر الفأر، لكني أردت هذا المظهر. خفق قلبي سريعًا عندما أدخلت أطراف شعري الأشقر تحت الشعر المستعار. لست واثقة من أنني بدوت مختلفة إلى الحد الكافي، لكنّي لم أستطع التفكير في شيء آخر أفعله. تمرّنت أمام المرآة على ابتسامة أكثر سعادة، ثم رفعت رأسي عاليًا. *يا غبية! أنت غبية تمامًا!* كنت غبية لأنني وضعت شعرًا مستعارًا، ولأنني ظننت أنني سأفلت بهذا، ولأنني صدقت إجابتك عندما سألتك إن كان لديها طفل - غبيّة لكل سبب من هذه الأسباب. نعم... غبية لهذه الأسباب كلّها.

وصلت إلى المكان، فوجدت سيدني، التي كانت زعيمة غير رسمية للمجموعة، واقفة بالباب توزع على الداخلات نماذج من كريم طبيعي للحفاضات. مست أصابعي أطراف شعري الجديد.

«مرحبًا. هل تأتين لأول مرة، أهلًا بك!». قالت هذا وهي تنظر من فوق رأسي كأنها تبحث خلفي عن امرأة قادمة تكون أفضل مني. أومأت برأسي وشكرتها، ثم وضعت عيّنة كريم الحفاضات في حقيبتي. كانت في القاعة متحدّثة تستعد لتقديم ما دعوه «أسرة طبيعية، أنت طبيعية». كانت الكراسي قد ملأت القاعة كلّها. أخذت كأس نبيذ، وبحثت عيناي بين الحاضرات. رحت أتظاهر بالنظر إلى رفوف الكتب، في حين ظلّت عيناي في اتجاه الباب الذي تتقاطر مجموعات النساء داخلات عبره،

نساء تمتدح كل منهنّ ملابس الأخرى وتسألها عن أطفالها. شوّشت أطراف شعري البنّية نظري وجعلتني راغبة في طردها عن وجهي كأنها ذبابات مزعجة: لم أعتد بعد أن يكون شعري داكن اللون. رأيت المرأة ذات الشعر المربوط إلى الأعلى، تلك التي كلّمتني المرة الماضية، تنظر إليّ من آخر القاعة. يا إلهي، هل عرفتني؟ أحسست حرارة في وجنتي، واستدرت حتى أجد امرأة غيرها أتكلّم معها، أية امرأة، لكن النساء اللواتي من حولي كن غارقات في أحاديثهن. دسست نفسي ضمن مجموعة من ثلاث نساء تناقش مسألة «سياسة عدم إعطاء أية مهلة». ابتسمت، وكنت موشكة على تقديم نفسي عندما نقرت تلك المرأة على كتفي.

«اسمي سلوني. ها هي بطاقتي. الحلوى مقدّمة من شركة لونا. والنبيذ من إيدين أستيتس. وفي الأسبوع القادم، ستكون لدينا خبيرة في النوم، إنها مذهلة. هل أنت معنا على صفحة فيسبوك؟». يا للراحة! أخذت البطاقة من يدها، مرة أخرى. ثرثرت مع مجموعة صغيرة، ثم وقفت أنظر إلى الباب. لكنها لم تأتِ. طلبتْ سلوني من الجميع الجلوس، وبدأت المتحدّثة تقديم ما لديها. جلستُ في الصف الأخير، على مقربة من الباب. اعتزمت الذهاب عندما تسنح لي فرصة الخروج من غير أن يلاحظني أحد. كان الشعر المستعار يثير إحساسًا بالحكة في جلد رأسي؛ وما كان لدي اهتمام بأن أكون هنا... إلا من أجلها.

ولحظة هممت بالوقوف، أتتني نفحة هواء بارد من جهة الباب، من خلفي، ها هي قد أتت. رفعت يدها معتذرة من المتحدثة، وسارت على أطراف أصابعها صوب مقعد فارغ وهي تفتح معطفها. استدرتُ ببطء لكي أنظر إلى مقدمة الصالة، ووضعت ساقًا فوق ساق. حبستُ أنفاسي. مكان فارغ إلى جواري. جلستْ في ذلك المكان الفارغ. حامت من فوقي موجة من عطرها الحلو.

همست لي: «آسفة»، عندما اصطدمت حقيبة يدها بساقي. ابتسمت لها، لكن عينيّ ظلتا تنظران إلى المتحدثة، مع أن خفقات قلبي الشديدة جعلتني غير قادرة على سماع كلمة مما كانت تلك المرأة تقوله. تركت عينيّ تنزاحان وتنظران إلى بنطلونها الجينز، إلى حذائها، إلى حقيبة اليد باهظة الثمن التي وضعتها على الأرض.

أجفلني صوتها الهامس: «إنني أتابعها على الإنترنت. متحدثة مذهلة». أومأت برأسي إيماءة حماسية بينما كانت المرأة تُخرج دفتر ملاحظات صغيرًا منقوشة على غلافه كلمة «فرحة» بحروف مذهّبة. راحت تسجل ملاحظات عن كيفية صنع مادة منظفة منزلية غير سامة وتعبئتها في زجاجات؛ ورحت أبدي اهتمامي بما أسمعه وأومئ برأسي من وقت لآخر. كانت يداها طويلتين، جميلتين. أرخيت يدي اللتين انتشرت عليهما بقع الكلَف ومئات الغضون الصغيرة. كنت في الأربعين. بدت أصغر مني بعشر سنين، على الأقل. لم أر في أصابعها خاتمًا. لا أزال أحمل خاتم زواجي، أحيانًا. لكني خلعته هذه الليلة.

بدت المحاضرة طويلة من غير نهاية. وعندما انتهت آخر الأمر، استدرت إليها وقلت: «كان هذا جيّدًا جدًّا. إنها ممتازة».

«أليس هذا صحيحًا؟ لدي صديقة تنفّذ كل ما تقوله، حرفيًا. أقسم لك أنها لا تمرض أبدًا». وضعت دفتر ملاحظاتها في حقيبة يدها ونهضت قائلة: «ألا تريدين كأس نبيذ».

سرت خلفها وهي تمسّ نساء كثيرات في طريقها مسلّمة عليهن. على الكتف، على الذراع، قبلات ومعانقات. صبت كأسين وأشارت بيدها صوب فسحة صغيرة خالية وسط الحشد الضاج. سرت خلفها إلى ذلك الموضع. أطلقتْ زفرة ارتياح كبيرة.

«هذا أفضل. يصير المكان هنا شديد الازدحام. كان عليّ ألّا أرتدي الصوف». جذبت ياقة كنزتها ذات اللون الخمري، وأخذت من كأسها

رشفة صغيرة جدًّا. «أو، أنا آسفة. اسمي جيما. أظنني لم أقل لك اسمي حتى الآن».

«وأنا آن».

«ما أعمار أطفالك؟».

لقد وضعت خطة الإجابة عن هذا السؤال. إنني أم وحيدة لطفلتين صغيرتين، سنتان، وخمس سنين. حمراء الشعر، وشقراء الشعر. واحدة تحبّ كرة القدم، وأختها تحب الباليه. حفظت الاسمين جيدًا. تمرّنت على قولهما بصوت مرتفع.

«وأنا لديَّ طفل واحد. إنه في الرابعة. اسمه سام».

رنَّ صدى تلك الكلمات. أحسست به متألقًا في داخلي، وأتاني ما يشبه دوّارًا خفيفًا كأنني أستنشق مادة مخدّرة انقطعت عنها منذ سنين. أطرقت برأسي خوفًا من أن ترى عينيّ. تخيّلته في البيت يتناول وجبة العشاء معك ومع فيوليت، وتساءلت إن كنت أستطيع العودة في الوقت المناسب حتى أضعه في فراشه. أربع سنين... سيكون الآن كلّه قصص وأشياء مضحكة. *أحبك طيلة المسافة إلى القمر الكبير الكبير، وبالعكس، عشرة آلاف تريليون مرة، يا ماما.*

«لديّ صبي آخر. يبلغ شهره الخامس يوم غد». مات صدى اسم سام في أذني، وعادت عيناي تنظران إليها. تناولت رشفة أخرى من كأسها، رشفة صغيرة كأنها تبلل شفتيها. لاحظت الآن أن ثدييها كبيرين، ممتلئين حليبًا.

«آسفة، هل قلت إن عمره خمسة شهور؟».

قفزَتْ عند انسكاب النبيذ على حذائها الجلدي – لقد ارتخت يدي وسقطت إلى جانبي. نظرتُ إلى الكأس البلاستيكية الفارغة في يدي.

«أوه، اللعنة على هذا». نظرت من حولها باحثة عن شيء تمسح به النبيذ. تمتمت قائلة: «لدينا مناديل هنا». وراحت تبحث في حقيبة يدها

بينما بقيتُ جامدةً في مكاني، صامتة. نظرت إليها تخرج المناديل من عبوتها، لكن ذهني كان يفكر في التواريخ. كنا في شهر تشرين الثاني. بدأت أحصي الشهور رجوعًا. لقد تركت البيت في كانون الثاني. قبل سنة تقريبًا.

«يعني هذا أنه مولود في شهر حزيران».

«صحيح، في الخامس عشر من حزيران... دعيني أبحث عن مناديل ورقية، فهذه المناديل المعطّرة غير نافعة».

«إنني آسفة». جريت إلى الطاولة التي وضعوا عليها الحلوى وعدت بقبضة مناديل ورقية وانحنيت لكي أجفّف حذاءها. كانت قد خلعته من قدميها وجلسَت على كرسي. أخفت قدميها تحت تلك الكرسي. مسحت جلد الحذاء الداكن، واعتذرت كثيرًا.

«إن لديّ هذه المشكلة... ترتجف يدي أحيانًا». أدهشني أنني لا أجد صعوبة في العثور على هذه الأكاذيب.

«أوه، لا بأس عليك». تغيرت نبرة صوتها بعد سماعها ما قلته عن ارتجاف يدي، عن إعاقتي. وضعت يدها على أعلى ذراعي مثلما رأيتها تفعل مع بقية صديقاتها في تلك القاعة... «لا تتركي هذا الأمر يقلقك أبدًا. سوف يجف الحذاء».

نهضنا واقفتين معًا. وقفت بجواربها المبتلة فكانت أطول مني بمقدار قدم تقريبًا. لا بد لي من رفع رأسي حتى أكلمها.

«أنا... أنت... عمره خمسة شهور. فترة قصيرة جدًا!». أدهشتني قدرتي على الكلام، على قول كلمات مترابطة... «مظهرك رائع».

«أشكرك. إنني مرهقة. نوم طفلي سيئ جدًّا. لا أطيق انتظار سماع حديث مدرِّبة النوم في الأسبوع المقبل. أو... قد تكون لديك نصائح من أجلي. هل تلقيت تدريبًا من أجل النوم؟ هل جربت طريقة 'اتركيه يبكي كما يشاء'؟ لكني لا أظنني قادرة على فعل هذا. لا أستطيع احتمال أن أترك ابني يبكي».

هذا الصبي الذي تحدّثني عنه... إنه ابنكَ أنت. لقد ولدت لك صبيًا. لقد حظيتَ بفرصة أخرى. ثم انتبهت إلى الأمر، انتبهت إلى أن هناك ثمانية وثلاثين أسبوعًا بين الحمل والولادة. لقد حبلت في شهر أيلول، أي قبل شهر من طردك من العمل. كنت عارفًا أنها حبلى قبل زمن طويل من مطالبتي لك بترك البيت. كنت على علم بهذا طيلة الوقت. كنت تعرف.

«مممم... هل تعرفين؟ إنه ينام فحسب. لم أجد نفسي مضطرّة إلى فعل شيء».

«أوه، حقًّا! كم كانت سنّه عندما بدأ ينام جيدًا؟ كم كانت سن ابنتك عندما بدأت تنام جيدًا؟».

أطبقت الغرفة على صدري. تخيّلتها تدفع ذلك الطفل عندما ولّدته. وتخيلتك واقفًا تنظر إلى ابنك الجديد يخرج إلى الحياة.

«أربعة شهور، أو نحو ذلك. الحقيقة أنني لا أتذكّر جيدًا».

«أفكّر في إعطائه وجبة أثناء الليل. يقولون إن هذا مفيد حتى يكون لديه إحساس بالشبع. لكني لا أعرف ماذا أعطيه...».

«ماذا عن أبيه؟».

«عفوًا؟». اقتربَت مني. ظنت أنها لم تسمعني جيدًا. كان سؤالًا غريبٌ جدًا.

«أعني، هل لديك شريك؟».

«لديَّ شريك. إنه ممتاز. إنه أب رائع. الحقيقة أنه أرسل إليَّ هذا منذ قليل». ابتسمت وأخرجت هاتفها. تحركت شفتاها قليلًا وهي تبحث عن الصورة التي أرادت أن أراها... تحرّكت شفتاها كأنها تكلّم نفسها. رفعت حاجبيها عندما وضعت الصورة أمامي، وانتظرت ردّة فعلي كأنها تريني شيئًا عجيبًا. كان في الصورة طفل ملفوف ببطانية صغيرة، طفل نائم في مهده. نجوم وأقمار على الملاءات. كانت الصورة مأخوذة من زاوية لا تسمح برؤية وجه الطفل. أخذت الهاتف من يدها وحدّقت

في ذلك الكائن البشري النائم الذي يشارك ابني الميت جيناته نفسها. سمعتها تقول: «يستطيع جعله ينام بكل سهولة. يحب كل منهما الآخر حبًا حقيقيًا».

«جميل جدًّا». أعدت إليها هاتفها، ورفعت يدي إلى شعري متذكرة أنني وضعت على رأسي شعرًا مستعارًا. كنت في حاجة إلى الخروج من ذلك المكان... على نحو مفاجئ، صار شديد الحرارة، وصار الضجيج شديد الارتفاع.

«وماذا عنك أنت؟ هل لديك شريك؟».

«ليس لدي شريك. أنا... لم يكن حاضرًا في الصورة أبدًا. لذا... أنا أم وحيدة». مؤكّدة لنفسي تلك الكذبة آملة ألا تسألني المزيد.

«هل تعرفين، يا آن؟... أحسّ بأنني رأيتك قبل الآن».

«أوه!».

«نعم، أحسّ كأننا التقينا من قبل».

«ربما».

استدرت صوب كومة المعاطف، عليَّ أن أذهب الآن.

«أين كانت مدرستك؟».

«أوه، بلدة صغيرة في الغرب...».

«هل تمارسين اليوغا؟».

«نعم، لعل هذا هو السبب. لقد جربت الذهاب إلى بضعة استوديوات يوغا. لعلنا التقينا في واحد منها!».

«لا، لا أظن هذا».

تحركت صوب باب الخروج، تحرّكت صوبي.

«إنني أتجوّل في الحي كثيرًا. ومن الممكن أن نكون قد...».

فرقعت بأصابعها، «أوه، طبعًا. فهمت الآن». حبست أنفاسي ونظرت إلى الباب.

«إنه تشابه فحسب... تشبهين مدرّبة الرقص. أنت تشبهينها كثيرًا».

اتصلت بك في طريق العودة إلى البيت بسيارة تاكسي. اتصلت أربع مرات. عرفت أنك لن تردَّ على اتصالي. كنت شديدة التوق إلى مكالمتك، إلى سؤالك إن كان يشبه سام. هل يتجهّم وجهه مثله؟ وهل له رائحته نفسها؟ نسيت أن أسألها عن اسم الصبي. أدركت الآن أن أي كلام لم يدُر بيننا منذ ولادة الطفل. لعلك تظن أن حياتك سوف تتلوّث بطريقة من الطرق إذا سمعتَ صوتي، أو إذا أخذتُ شيئًا من هذه التجربة التي تستحقها كلها. لقد بدت لي أمًا رائعة. أعرف هذا بمجرّد أن أكون على مقربة منها. أحسستها أمًا جيّدة جدًا... جدًّا.

- 66 -

لست أدري إن كنت قد نظرت إليها عندما انفتح فرجها المتوَرِّم لكي يخرج منه مخلوق جديد، مخلوق نصفه منك، ليصير بين يدي الطبيب الذي هنأكَ بولادة طفلك... صبي، مرة ثانية. لست أدري إن كانت الدموع قد ملأت عينيك عندما وضعت المولود الزلق على صدرها الناضح عرقًا ورأيته يفتح فمه لاستقبال حلمتها. لست أدري إن كنتَ قد أمسكت بيد المرأة المرتجفة بينما كانوا يخيطون جرحها، بينما كانوا يشدّون ويجذبون حتى يصلحوا الضرر الذي أصابها. لست أدري إن كنت قد أمسكت بمرفق ذراعها وأخذتها إلى المرحاض في غرفتها حيث بكت ألمًا، وحاولت الجلوس بساقيها المرتجفتين والدم يسيل منها... ثقل في داخلها، ونبض في حوضها، وجسدها شديد الضعف بعد تجربة عنيفة الوقع. هل حقنتَ ماء دافئًا داخل أجزائها المدماة مثلما علّمتك الممرضات فعله؟ هل استلقيت على سرير المستشفى العريض معها، ومع المولود، وتساءلت كيف استطعت أن تحبَّ امرأة غيرها؟ هل تركت هاتفك صامتًا حتى لا تدعها تسمع رسائلي وهي تحاول إرضاع طفلها أول مرة؟ هل طلبت ختان طفلك مثلما فعلت مع سام؟ هل أخذتها إلى فراشها في اليوم التالي مرتدية بيجاما قطنية ناعمة اشترتها من أجل هذه المناسبة؟ هل كان السرير الذي أخذتها إليه هو المكان نفسه الذي صنعتما فيه هذا الطفل، المكان نفسه الذي ولجتها فيه منتشيًا فلم تلقِ بالًا إلى ما سيحدث بعد ذلك؟

جفاني النوم أيامًا كثيرة بعد لقائها.

لم أستطع النوم حتى نزلت إلى القبو.

أزحت طبقة الغبار عن الصندوق. في داخله كانت أشياء سام. أوفرولات، وبطانيات، وبيجامات لها جوارب، وبضعة أشياء صغيرة كان يحبّها. الدب بيني. أخذت الصندوق إلى الأعلى، ووضعته عند سريري، ثم بدأت طقسي. أضأت المصباح الليلي. كولونيا الخزامى العضوية على يدي، النوع نفسه الذي كنت أستخدمه لتعطير جلده بعد الحمام. كان الجهاز الذي يُصدر الأصوات المهدّئة راقدًا في أسفل الصندوق. أمواج المحيط. وضعته على طاولة إلى جانب السرير.

أغمضت عيني وحاولت تذكّر كل شيء فيه. الأوفرول الطويل الناعم، الأخضر بلون النعناع، الذي أتاه من أمك. والبيجاما التي كانت مثل بيجاما فيوليت. وبطانية الموسلين والقلوب التي عليها. الجوارب الصغيرة الحمراء. البطانية الناعمة من المستشفى. كنت قادرة على تذكّر كل شيء من هذه الأشياء، ولا أزال الآن قادرة على التذكّر... إنها لعبة ذاكرة. لم أغسل شيئًا من هذه الملابس أبدًا. ما أكثر ما كان باقيًا منه في هذا القماش!

كان هذا تسامحًا مع نفسي، تسامحًا لم أتجه له إلّا مرات قليلة منذ موت سام. كان زادًا أدّخره إلى أن أكون في حاجة ماسة إليه.

بدأت أحمل كل قطعة، ببطء، إلى وجهي، وأشمّها بأشد ما استطعت، إلى أن يؤلمني أنفي، وأترك ذهني يتشرّب كل ما أستطيع العثور عليه... قرقعته بالآنية على أرض المطبخ بينما كنت أعدّ وجبة الشوفان، ومصّه ماء الصابون من منشفة رطبة في الحمام، وكيف كنت أحتضنه لكي أحكي له قصصًا. أحتضنه عاريًا، سعيدًا، وأخاطر بأن تظلّ مؤخّرته من غير حفاض فوق لحافنا. ما أشد توقي إلى هذه الأفلام القصيرة الصامتة عنه! ما كان يهمني أن تكون هذه الذكريات دقيقة، وأن أكثرها لم يحدث تمامًا مثلما أراه في المشاهد التي تجري داخل رأسي - كنت في حاجة

إلى رؤيته، فقط؛ وكنت قادرة على الإحساس به عبر تلك الأشياء التي بين يدَيّ. إذا كان تركيزي كافيًا، فمن الممكن أن يصير سام هنا، إلى جواري، ومن الممكن أن أحسّه حيًّا من جديد.

عند انتهائي من مداعبة أشيائه كلّها، اخترت البيجاما التي كان يرتديها أكثر من غيرها، تلك البيجاما التي صار قماشها رقيقًا عند ركبتيه لكثرة حبوه خلف فيوليت. بقعة عند رقبتها بقيت من أثر مربّى التوت. البطانية الخفيفة من مهده. وبيني أيضًا. كنت قادرة على العثور عليه في ذلك الفرو، فأتنفسه حتى يمتلئ دماغي به، كأنه مادة مخدّرة. لكن رائحة سام كادت تختفي، وصار بيني رطبًا بعض الشيء، صارت فيه رائحة عفونة. مررت بإصبعي على ذيله الملوّن الذي صار الآن يبدو بلون الصدأ. لقد احتفظت أيضًا بحفاض غير مستعمل. نشرت كل شيء على السرير؛ كل قطعة كما ينبغي أن تكون: الحفاض داخل البيجاما، والبطانية فوقها، وبيني على مقربة من رقبته. ثم حملته واحتضنته بين ذراعي، وشممته، وقبّلته. أطفأت المصباح. أحكمت زاويا البطانية وأطرافها حتى يظلّ دافئًا. بدأت أتمايل على صوت موجات البحر وأدندن له بأغنية لكي ينام، مثلما كنت أفعل دائمًا. أهزّه إلى الأمام وإلى الخلف. وعندما هدأ، وصار ثقيلًا بين يدي. عندما صارت أنفاسه عميقة، طويلة، اندسست برفق في الفراش حتى لا أوقظه. أزحت الوسائد، وهيّأت له مكانًا مريحًا. ثم نمت هناك، وهو بين ذراعي.

وفي الصباح، أعدت كل شيء إلى مكانه، بكل عناية. حملت الصندوق ونزلت إلى القبو. عدت إلى المطبخ، ووضعت الغلاية على الموقد، ثم رفعت الستائر وبدأت يومًا جديدًا... وحدي.

- 67 -

قال لي أبي إنه سيوصلني إلى بيت أمي يوم الأحد حتى أتناول طعام الغداء عندها. أدهشني هذا كثيرًا. لم نكن نأتي على ذكرها إلا نادرًا خلال سنتين انقضتا منذ رحيلها. ولم أرها منذ تلك المرة في المطعم عندما كنت مع السيدة إلنغتون. قال إنها اتصلت منذ أسبوع ووجهت إليّ تلك الدعوة. بدا لي أنه ما من خيار أمامي. هذا ما أحسسته من طريقة كلامه معي. لكنني أتذكّر أنني كنت راغبة في الذهاب، بصرف النظر عن خذلانها... كان بي فضول إلى رؤيتها. ولعلها أيضًا كان بها فضول إلى رؤيتي.

كانت تنتظرني، نظرت صوبي، عبر الممر، محاولة رؤية أبي من خلف زجاج السيارة اللامع. ظلّت تنظر إلى السيارة حتى انعطفت خارجة من ذلك الشارع، ثم نظرت إليّ. كان شعري مختلفًا... ضفيرتان طويلتان. وكان على وجهي نمش كثير من أثر شمس الصيف.

قالت لي: «ما ألطف أن أراك!»... وكأننا شخصان التقيا مصادفة في متجر للبقالة.

سرت خلفها فدخلنا البيت. كان البيت متواضع المظهر من الخارج، لكنه ممتلئ أشياء فاخرة لم أر مثلها من قبل؛ لم أر مثلها حتى في بيت آل إلنغتون. مفارش جميلة على الطاولات، وتماثيل زجاجية على قواعدها، ولوحات تضيئها من الأعلى مصابيح خاصّة بها. لم يبد لي أي شيء من هذا حقيقيًا. أحسسته مشهدًا مصطنعًا قد يظهر فيه الممثلون في أية لحظة فيؤدّون أدوارهم على تلك الخشبة. نادانا ريتشارد، فقادتني إلى المطبخ حيث ناولني شرابًا ورديًا داكنًا في كأس كوكتيل.

«أعددت لك شيرلي تيمبل». تناولت الكأس من يده الضخمة. نظرا إليّ معًا عندما أخذت منه رشفة.

«هذا هو ريتشارد. ريتشارد، هذه هي بلايذ». جلسَت إلى الطاولة ونظرت في أرجاء المطبخ مشيرة لي بأن أفعل مثلك. بدا لي كل شيء جديدًا تمامًا، غير مستعمل. لعله كان ذلك حقًا.

«لقد طلبت بعض السندويتشات».

نظر ريتشارد إليّ ثم عادت نظرته إلى أمي. رفعت حاجبيها كأنها تقول له، *هل أنت سعيد الآن؟*

سألني ريتشارد بضعة أسئلة عن الأسبوع الأول في المدرسة. ثم قال لي إن اسمي يعجبه. اعتذر بعد ذلك، وقال إنه يجب أن يذهب لكي يجري اتصالًا هاتفيًا.

أخرجت أمي طعام الغداء من غلافه السيلوفاني، وسألتني عما كنت أفعله. أردت أن أسألها: *خلال السنتين الماضيتين، أو خلال عطلة نهاية الأسبوع فقط؟* كان واضحًا لي أن علينا أن نتظاهر... تمامًا مثل هذا البيت الذي أقامته لنفسها. تمامًا مثل هذه الحياة التي أرادت، لسبب من الأسباب، أن تجعلني أراها. انحنت فوق الطاولة لكي تتناول سكينًا فمست بلوزتها بقعة مايونيز.

«اللعنة...». قالتها بصوت منخفض، ثم دعكت البقعة بمنشفة الأطباق... «لم ألبسها إلا مرة واحدة».

أكلتُ سندويتش الديك الرومي، وأصغيت إليهما يتحدثان عن مكان على شاطئ فرنسا. ذهبا إلى ذلك المكان في الصيف. عجبت من أين أتاهما ذلك المال كلّه، وما الذي يجعلهما يعيشان في ذلك البيت المضجِر في حي متواضع يقع على مسافة ساعة من المدينة. كنت أتخيّل دائمًا أنها هجرتنا لكي تعيش حياة مدينية بوهيمية كلها بشر جميلون... في مثل جمالها. من الواضح أن ريتشارد ليس منهم. ومن المؤكّد أنه ما

كان متناسبًا مع التماثيل الزجاجية والأطباق الخزفية الأنيقة. بدا لي غير منسجم مع المكان، تمامًا مثلما كنت مدركة أن أمي غير منسجمة معه.

كان شعرها مختلفًا، وجلدها مختلفًا، وشفتاها مختلفتين، وملابسها مختلفة... بل حتى صوتها كان مختلفًا. ملمس جديد، وروائح جديدة، ونبرة صوت جيدة. كان كل جزء من أجزائها التي عرفتها قد صار لامعًا مغلّفًا، له رائحة تشبه رائحة المتاجر الفاخرة. وفي وقت لاحق رأيت أكوامًا من الأقمشة وأكياس التسوّق الفخمة مطوية في خزانتها. كانت كلّها من متاجر لم أسمع بأسمائها من قبل. أخذتني في جولة عشوائية سريعة في أرجاء البيت انتهت بقضائنا وقتًا أطول في غرفة نومها. لم أرَ أية أقراص دواء على الطاولة التي إلى جوار السرير. لاحظت في زاوية الغرفة حقيبة سفر صغيرة مفتوحة. كانت حوائجها ظاهرة فيها. رأتني أنظر إلى تلك الحقيبة.

«لم تسنح لي بعد فرصة فكّ أمتعتي. نحن نمضي في المدينة وقتًا طويلًا. لدى ريتشارد عمل هنا. الواقع أننا عشنا في المدينة بعض الوقت». خلعَت عنها بلوزتها التي اتسخت بالمايونيز، ونظرت في الخزانة باحثة عن شيء آخر ترتديه.

تنهّدَت وقالت: «أكره هذا المكان، لكن... ».

لكن ماذا؟ طرحت هذا السؤال في نفسي. كانت حمالة ثدييها سوداء مصنوعة من قماش مخرّم. انتابتني رغبة محرِجة في دفن رأسي في صدرها حتى أشم رائحة جلدها، وكأن تلك الفرَجة بين ثدييها يمكن أن تذكّرني بالطفولة.

وبعد ذلك، في وقت لاحق من بعد الظهر، نزلَت بهدوء من الحمام وريتشارد يطوّق خصرها من الخلف ويشدّها إليه. رفعت يدها ودفنت أصابعها في شعره المدهن الذي بدأ الشيب يغزوه.

قال لها: «اشتقت إليك. لا تختفي هكذا بعد الآن». أبعدَت يدها عنه.

«ليتك لم تتّصل به».

«حسنًا، لقد نجح اتصالي في جعلك تعودين إلى البيت. أليس هذا صحيحًا؟».

ريتشارد هو من دعاني إلى المبيت عندهما، لا أمي. لقد استخدمني وسيلة لكي يجعلها تعود من المدينة. لكن، كان هناك جزءٌ منها -ولو صغيرًا- أراد أن يراني. لا بد أن هناك جزءًا مهتمًا برأي أبي فيها، وبرأيي فيها.

عددت إلى العشرة، ثم دخلت المطبخ. شكرتهما على الغداء، ونظرت من النافذة مترقبة ظهور سيارة أبي. انتظرتُ أن تقول أمي شيئًا...
عودي عما قريب! يسعدني أنك أتيت! لقد اشتقت إليك!

لوّحت لي مودّعة من عند باب البيت، وحرصت على منح أبي فرصة كافية لأن ينظر إليها جيّدًا.

لم يطرح عليّ أبي أي سؤال عندما كنا في السيارة... لا عن البيت، ولا عن ريتشارد، ولا عما تناولناه على الغداء. لكنّي قلت له بعد العشاء، عندما أنجزنا صامتَيْن غسل الأطباق معًا: «لست أنت من كان يجعلها غير سعيدة». أردت أن يعرف أبي هذا. لم يجبني بشيء. طوى المنشفة الرطبة ووضعها على الطاولة، ثم خرج من المطبخ.

كانت تلك آخر مرة أرى فيها أمي.

- 68 -

خلال الوقت الذي تمضيه فيوليت معي، يكون ذلك أشبه بالعيش في بيت مع شبح من الأشباح. نادرًا ما تكلمني، لكنها تعرف كيف تجعل حضورها محسوسًا. تترك الأنوار مضاءة، وتترك الصنابير تقطر ماء. أشعر كأنها تغيّر جو الغرفة. في ذلك الوقت، كنت على معرفة كافية بشعور المَقت... على درجة كافية للتعرّف عليه في كثافة الحيّز المحيط بها.

من منا تعتبره فيوليت ملومًا في انفصالنا؟ الإجابة الواضحة هي أنني أنا الملومة... إن كانت تلوم أحدًا. لكني أظنّ انقسام أسرتنا إلى اثنتين قد أعجبها. أراها مستمتعة بدورها الجديد، دورِ ابنة شخصين مطلقين؛ وأراها مبتهجة ابتهاجًا صامتًا بأنها صارت في حلٍّ مني. مرَّ زمن لم نسمع شيئًا من معلماتها. لست أدري إن كان هذا هدوء ما قبل العاصفة.

مددت يدي إليها بقطعة مافن عندما كنا في طريقنا إلى المدرسة ذات صباح. كانت تبحث عن شيء تحت وشاح رقبتها، لكنها توقّفت لكي تأخذها من يدي. وعندما التفتُّ إليها مرة ثانية رأيتها تُخرِج من تحت الوشاح سلسلة ذهبية دقيقة فيها حلية مدورة صغيرة تشبه تلك التي أهديتني إياها منذ سنين. تلك التي ما عدت أضعها أبدًا. راقبتها في مرآة السيارة تمسّ تلك الحلية مسًّا رقيقًا.

«من أين أتيت بها؟».

«من جيما».

لم تقل لي اسمها بصوت مسموع منذ ذلك الغداء الأول في مكتبكَ. ولما كنت غير راغبة أبدًا في انكشاف علاقتي الجديدة بجيما، فقد

امتنعت تمامًا عن سؤال فيوليت عنها. ما كنت أريد إيجاد أي سبب يجعلها تذكر اسمي في بيتكما.

لم يمر زمن طويل قبل أن تتوطد علاقتي مع جيما. كانت امرأة حيوية، كلّها طاقة... امرأة تستمتع بأن أطرح عليها أسئلة عن نفسها. كانت لديها عادة المضي في أحاديث طويلة، ثم لا تلبث أن تغمض عينيها في منتصف حديثها وتقول: «لقد تحدثت كثيرًا، أليس كذلك؟ وماذا عنك أنت؟». ثم تمسّ معصميّ الاثنين بكل نعومة كأنها تربّت على قوائم أرنب. كانت تلك حركة ساحرة جعلتني أدرك ما وجدتَه فيها من تعويض عندما كنا واقفتَين بين جدران زواجنا أثناء انهيارها الصامت.

بدأنا نجلس معًا خلال المحاضرات الأسبوعية، ثم نختلط ببقية النساء بعد ذلك. بقيت قريبة من جيما إلى أقصى حد استطعته حتى لا تفوتني أية فرصة لسماع شيء جديد. كانت كأنها أحجية أجمّع أجزاءها شيئًا بعد شيء، تجميعًا بطيئًا، أسبوعًا خلف أسبوع. يجري قلبي سريعًا طيلة الوقت الذي أمضيه معها، توّاقًا، مستميتًا لمعرفة المزيد عنها. كثيرًا ما أجد نفسي أحدّق فيها وأتخيّل كيف يكون منظرك إلى جانبها. كيف تمسّها. كيف تضاجعها. كيف تراقبها وهي تعتني بطفلك وتهدهده حتى ينام وتداعبه في الصباح، وكيف تجعلك في غاية السعادة.

«الحقيقة أن هذا يعجبني... أن أكون زوجة أب».

انتزعتني هذه الكلمات من خيالاتي، فرأيتها بوضوح من جديد. لم تأت سابقًا على ذكر فيوليت، أبدًا. كنت في انتظار هذا.

«إنها في الحادية عشرة. سن قد تكون صعبة لدى بعض الفتيات. لكن الظاهر أنني أعجبها. أنا محظوظة. أعني... أنت تسمعين تلك القصص المرعبة عن أطفال الأزواج والزوجات...».

تدخّلت واحدة من النساء وغيّرت موضوع الحديث. لكنني سألتها في ما بعد، عندما صرنا وحدنا، سألتها عما قالته.

قلت لها: «ما كنت أعرف أن لزوجك طفلة».

«أوه، ألم أذكر لك هذا؟ اسمها فيوليت. طفلة لذيذة جدًا. زوجي شديد القرب منها. وهذا ما يجعلها تظلّ معنا معظم الوقت».

«أفهم من كلامك أن أمورك جيدة معها».

«ليست لدينا أية مشكلات. أمور أسرتنا تسير على أحسن وجه. زوجي يحبّنا جميعًا. يحب أن نكون كلّنا معًا، نحن الأربعة».

«وماذا عن أمها؟».

«الحقيقة أنها غير موجودة تقريبًا في الصورة. هذه قصة طويلة. لديها مشكلات؛ وهذا ما يجعلنا نظل بعيدين عنها بعض الشيء».

أومأت برأسي وبقيت صامتة. تمنّيت أن تقول المزيد.

«هناك قصة قديمة في الأمر، لكن من الأفضل أن أظلّ بعيدة عنها. الظاهر أنها ليست مُحِبّة كثيرًا... هذا ما فهمته. ولكن، من نكون حتى نصدر أحكامًا؟ أليس ما أقوله صحيحًا؟». تنهّدتْ ونظرت إلى الغرفة.

أردت سماع المزيد، أردت أن أعرف كل كذبة قلتَها عني.

«يعني هذا أن فيوليت محظوظة بك».

«ما ألطف أن تقولي هذا! أشكرك. أحبها كأنها ابنتي».

بحثت في وجهها عن الحقيقة. كنت أبحث في وجهها عما يشبه إحساسي بالانزعاج الذي كان يضنيني في كل أمر متّصل بفيوليت. لكن رأيت جيما تتمايل مع أنغام الموسيقى المنبعثة من فوقنا. وضعَت كأسها الفارغة على الطاولة وقالت: «ألا نذهب». تنحنحت وسرت خلفها حتى خرجنا من الباب. «وفيوليت... هل تحب طفلك الصغير؟».

«إنها تعبد جِت. هي أفضل أخت كبيرة له».

عانقتها مودعة، وأحسست بضغط ثدييها الممتلئين حليبًا على ثديّ.



- 69 -

اشتريت هاتفًا جديدًا مع رقم جديد حتى أتبادل الرسائل النّصية مع جيما خلال الأسبوع. في البداية، كانت رسائلي سلسلة سريعة من المجاملات المضجرة - *هل ستكونين هناك؟ عظيم، وأنا أيضًا*. وبعد ذلك، *ما ألطف أن أراك! أتمنّى لك أسبوعًا رائعًا*. وبعد ذلك، صارت تكتب لي طالبة النصيحة وهي تقف بين رفوف الصيدلية باحثة عن دواء جيد من أجل الزكام، أو تسألني إن كان من الأفضل أن تشتري لابنها حفاضات سباحة من النوع الذي يستخدم مرة واحدة أو مرات متعدّدة من أجل دروس «ماما وأنا». كانت امرأة واثقة من نفسها، امرأة حيوية تحب الكلام؛ لكنها تظلّ راغبة في سماع شيء يطمئنها عندما يكون الأمر متعلّقًا بابنها. أرادت أن تكون أمًا مثالية، وأن تفعل وتعطي أفضل ما تستطيع. كثيرًا ما كانت تطلب النصيحة منّي. وجدتُ نقطة الضعف هذه ساحرة. فكم ترهق نفسها من أجل راحة ابنها، وكم تحرص على تقييم نفسها وتقييم ما تقدّمه له.

تحب أن تكون أمًا، نعم، لكنها تحب أيضًا أن تمارس دور الأمومة. يروقها أن تهتم وتعتني وتحب وتثير جلبة وتُطعِم. كانت تعيش على هذه الأمور. عندما سألتها إن كانت تفكّر في فطام ابنها عما قريب -كاد عمره يبلغ سنة كاملة- هزّت رأسها نفيًا. هزته هزًا عنيفًا. كان عليّ أن أدرك هذا. لقد قالت لي ذات مرة إنها تحسّ فورة عاطفية كلما أرضعته. تحسّ شيئًا ما كانت تعرفه قبل ولادته. شيئًا نابعًا من أعمق أعماقها، شيئًا لا تستطيع تفسيره. قلت لها إنها تتكلم كأنها تصف لحظة النشوة الجنسية.

«أتعرفين ماذا، يا آن؟... إنها أفضل من ذلك».

ضحكنا معًا، لكنها كانت جادة في ما قالته.

قالت عندما كنا نرتدي معطفَيْنا في إحدى ليالي الأربعاء: «أتمنّى أن أرى سام. ألن يكون أمرًا ظريفًا أن نجمعهما معًا».

«سيكون هذا شيئًا لطيفًا جدًا».

لم تعد إلى ذكر تلك المبادرة مع أنني فكرت في مجموعة كبيرة من الأعذار إن هي طرحت الأمر من جديد. مواعيد. مرض (كانت الجراثيم تخيفها كثيرًا). خطط في اللحظة الأخيرة للسفر خارج المدينة. كانت مواصلة العلاقة معها أسهل كثيرًا مما توقّعت.

في إحدى الليالي، اتصلت بي قرابة الساعة الثانية عشرة عندما كانت فيوليت في بيتكَ. كانت قلقة. يعاني جت زكامًا شديدًا أصاب صدره. يجد صعوبة في التنفس. لا تعرف ما ينبغي فعله: هل تأخذه إلى قسم الطوارئ في المستشفى؟ هل تعدّ له حمامًا حارًّا؟

«ماذا يقول زوجك؟». كنت عارفة أنكما غير متزوجَيْن لأننا لم ننفصل رسميًا بعد. لكنها كانت تدعوك بهذا اللقب، زوجها.

«هو ليس هنا – سافر من أجل عمله؛ ولا يرد على الهاتف».

«أوه»... فاجأني أنك تركت فيوليت تنام مع جيما ولم تقل لي شيئًا عن هذا الأمر. فكّرت في اتفاقنا الفضفاض، وفي أنني كنت منصفة جدًّا عندما اتفقنا على قسمة الوقت بيننا. كان منتظَرًا من كل واحد منا أن يبلغ الآخر إن كان سيترك فيوليت مع شخص غيره. لقد بدأت تستفيد من تفضيلها أن تكون معك. وتطلب ليلة إضافية هنا، وليلة إضافية هناك، ولا تقول لي متى ستكون خارج المدينة معك من أجل قضاء عطلة نهاية الأسبوع. كنت مدركًا أن لك اليد العليا في ذلك كله. قلت لها: «يعني هذا أنك وحدك».

«ابنته هنا. إذا أخذته إلى المستشفى، فسأكون مضطرّة إلى إيقاظها

لكي تأتي معنا. لكن لديها غدًا تدريبات على كرة السلة قبل المدرسة، وسوف تكون مرهَقة. ربما أستطيع تركها وحدها... إنها في الحادية عشرة. لا يبعد المستشفى عنا إلا أربع كتل سكنية. إنها لا تستيقظ في الليل أبدًا... أبدًا. لكن، يا إلهي، شيء فظيع أن تستيقظ فلا تجدني هناك». أطلقت زفرة طويلة جدًّا. كانت تفكر... «لا، لا. إذا ذهبت، فلا بد لي من إيقاظها».

لست أدري ما دهاني في تلك اللحظة.

«اتركيها. اتركيها في البيت وحدها. لا مشكلة في هذا. لن يصيبها أي شيء. ضعي جهاز المراقبة في غرفتها، وتابعيها من هناك، عبر هاتفك. لقد صارت كبيرة إلى الحدّ الكافي. لو كنت مكانك لأخذته إلى المستشفى على الفور».

«حقًّا؟ هذا صعب. أتظنين أن عليَّ أن أفعل هذا؟».

«نعم، بالتأكيد. اذهبي. لن يطول غيابك. ولن تستيقظ قبل عودتك. لا تستطيعين المغامرة في هذا الأمر... إنه طفل صغير. لا تستطيعين المغامرة. لن تسامحي نفسك أبدًا».

لو كنت مكانها لما تركت فيوليت وحدها أبدًا. لكني أردتكَ أن تغضب منها. أردتكَ أن تغضب كثيرًا. أردت لها أن تفعل شيئًا لا تستطيع أن تغفره لها.

«أوه، لست أدري، يا آن».

قلت لها بنبرة ملحّة: «خذيه إلى المستشفى. أستطيع سماع تنفسه. يبدو لي في حالة سيئة جدًا. أنا قلقة عليه».

وضعتُ سماعة الهاتف، وشعرتُ بالقرف من نفسي.

وصلتني منها في الصباح رسالة نصية تقول إنها انتظرت في المستشفى أربع ساعات ثم أرسلوها إلى بيتها بعد أن نصحوها بأن تعِدّ له حمامًا حارًا وبأن تجلس في البخار وهي تحتضنه... وسوف يكون بخير.

وعندما رأيتها في لقاء الأمهات في الأسبوع التالي، قالت إنك غضبتَ كثيرًا عندما اعترفت لك بأنها تركت فيوليت وحدها في البيت. تخيّلتكَ تقذفها بكلمات جارحة عبر أسنانك المطبقة مثلما كنتَ تفعل معي عندما تغضب مني غضبًا حقيقيًا... *ظننت أنني أستطيع ائتمانكِ عليها. ظننتكِ أمًّا أفضل من ذلك.*

«إنه محق، يا آن. لعله كان عليّ ألّا أفعل ذلك. لم أكن قادرة على التفكير السليم».

«أنا آسفة جدًا... ربما قدّمت إليك نصيحة خاطئة. لكنكِ كنت تفعلين ما ظننت أنه أفضل شيء».

«صحيح... ربما».

في تلك الليلة، كانت أكثر ميلًا إلى الصمت. أدركت أنها غاضبة مني. كتبت لها عندما كنت أنتظر سيارة التاكسي التي ستعود بي إلى البيت:

هل كل شيء على ما يرام؟ بدوت مكتئبة اليوم.

إنه ليس أكثر من واحد من تلك الأسابيع غير اللطيفة... ما من شيء شخصيّ. أؤكّد لك هذا ☺

كانت أكثر لطفًا من أن تدخل في مواجهة مباشرة. أضنتني فكرة أنني خذلتها. لقد صارت -ببطء- الشخص الوحيد الذي أنا في حاجة إليه.

- 70 -

لقد أغفلتُ جزءًا مهمًا من علاقتنا. بل لعله الجزء الأكثر أهمية. عندما أكون مع جيما، أكون والدة سام. يصير حيًّا في داخلي من جديد بطريقة ما كنت أظنها ممكنة. وجودي مع جيما كان أشبه بلعبة من ألعاب التظاهر يكون فيها صديقي المتخيَّل حب حياتي. ابني الحلو. ولدي الصغير محبّ الكلام، ذو الأسنان القليلة، الذي يتجوّل في غرف البيت بقدمين حافيتين مرتديًا قميصه المتَّسخ، ذلك القميص المفضّل لديه. كان يحبّ أشرطة القياس، ومواعيد جمع القمامة، وأخذ عبوات السكر الصغيرة من المطاعم. كان في كل يوم يسألني عن «أمنا الطبيعة»، وكيف تصنع الطقس. نذهب للسباحة في عطلات نهاية الأسبوع، ونأكل المافن في الصباح عندما نكون في الطريق إلى حضانة الأطفال. حذاؤه ضيق على قدميه، دائمًا، وشفتاه متقلّصتان، دائمًا. كان يحب أن أحدّثه عن يوم مولده.

في كل يوم أربعاء، كنت أترك نفسي أتساءل طيلة النهار عما سأقوله عندما أذهب إلى مجموعة الأمهات - أأقول إنه استيقظ في الليل وكان مرهَقًا؟ أأقول إنه بكى عندما تركته مع جليسة الأطفال وخرجت من البيت؟ لعلي أقول شيئًا أخبرَتني به معلمته عندما ذهبت لكي آخذه من حضانة الأطفال بعد ظهر ذلك اليوم. كان نسج قصص من حول سام شيئًا إدمانيًا - أدور بين القصص المختلفة كأنني مهووسة، وأفكّر كيف سيكون شكله لو كان حيًّا، وكيف سأرعاه لو كان حيًّا... لو لم تقتله فيوليت. أفكّر في هذا مع أنني أحاول ألا أتركها تدخل مجال تفكيري

تلك الأيام. كانت أيامًا مقدّسة، أيامًا له فقط. أتحفّز وأصغي عندما تذكرها جيما في حديثها بعض الأحيان. تنتابني مشاعر متضاربة: شدّة رغبتي في بقاء تلك النافذة مفتوحة على حياتكم معًا، وكرهي وجودها ضمن محيط فرصة سام الثانية.

أكون سعيدة عندما تطرح عليَّ جيما أسئلة عنه. قالت لي إحدى المرات إن عينَيَّ تضيئان عندما تنطق اسمه؛ وما كان عندي شك أبدًا في أنها تستطيع رؤيتي أتألق في داخلي. ما كان أحد يذكره أبدًا... وها هي الآن هنا، ها هي تمنح اسمه مكانًا وزمانًا وقيمة. كانت راغبة في معرفة المزيد عنه. إن لسام أهمية في نظر جيما. وهذا ما جعل لها أهمية عندي، أهمية عميقة.

لكني لم أفكر في أمر الصور.

سألتني يومًا إن كانت لدي صورة لسام تستطيع رؤيتها. مالت صوبي ونظرت إلى هاتفي الذي كان في يدي. توقّعت أن أكون قادرة، بكل سهولة، على تصفح مئات الصور، مثلما تفعل بصور ابنها.

«أنت لا تعرفين ما حدث. في واقع الأمر، حذفت كل شيء من هاتفي. لم تبقَ فيه أي مساحة حرّة». حاولت إظهار انزعاجي من هذه المشكلة التكنولوجية. ألقيت بالهاتف في حقيبة يدي، وغيّرت مجرى الحديث.

في تلك الليلة، سكبت لنفسي كأس نبيذ أحمر، وبدأت أبحث في الإنترنت عن صور أولاد في الرابعة من العمر. عن صور أولاد يشبهون سام. بحثت في حسابات أشخاص لا أعرفهم في وسائل التواصل الاجتماعي ممن كانت صفحاتهم مفتوحة. أمضيت ساعات في مشاهدة حياة أطفال سعداء يلعبون بالفقاعات، ويركبون العربات، ويلطّخون أنفسهم بالآيس الكريم. كنت موشكة على إنهاء زجاجة النبيذ كلّها عندما وجدت الطفل المناسب. خصلات شعر متموّجة داكنة، وابتسامة بأسنان

لا تزال فيها ثغرات، وعينا سام الكبيرتان الزرقاوان. سيوبهان ماكآدمز... هي أم جيمس *في النهار*، *صانعة المعجَّنات في الليل*.

نظرت إلى وجهها على الشاشة. بدت لي متعبة جدًا. بدت لي سعيدة جدًا.

حفظت في هاتفي عشرات من صور جيمس، وجعلت واحدة منها صورة خلفية للشاشة. كان جالسًا على أرجوحة، رافعًا يديه فوق رأسه كأنه في أرجوحة دوارة كبيرة لحظة بلوغها القمة. كان سام يحب الأراجيح.

***

صرت أذهب إلى متاجر الملابس المستعملة فأنتقي بعض القطع المناسبة وآخذها إلى جيما أحيانًا مدَّعية أنها ملابس صارت صغيرة على ابني... ما كنت قادرة على التخلّي عن ملابسه أو ألعابه الحقيقية. ثم إن من الممكن أيضًا أن يقع نظركِ على تلك الأشياء، أو تراها فيوليت، فتعرفها. كانت جيما دائمًا تضغط ما أعطيه لها على صدرها كأنها تحتضن سام. أحببت رؤيتها تفعل هذا. أحببت النظر إليها عندما تفكّر فيه.

جلبَتْ لي ذات يوم مجموعة من مكعبات فروبل التي يلعب بها الأطفال. مجموعة عرفت أنها باهظة الثمن.

«الحقيقة أن زوجي هو من اقترح أن أعطيك إياها. أتتنا هدية من أحدهم، لكن لدينا مجموعة كبيرة منها».

أدركت عندها أنها لم تخبركِ شيئًا عن دوري في قصة ذهابها إلى المستشفى عندما مرض ابنها. احتضنت صندوق المكعبات وضغطت به على صدري شاكرة لها مثلما تفعل بالأشياء التي أعطيها لها. يفعل الناس هذا... ألا يفعلون هذا؟ يفعلون هذا عندما يمضون الوقت معًا، عندما يكتسب الواحد منهم حركات الآخر الصغيرة ويتصرّف مثله. لم أسأل نفسي يومًا إن كانت قد بدأت تقلّد حركاتي من غير انتباه... لعلها

صارت تقلّد طريقتي في مَسّ أطراف شعري المستعار الذي أستخدمه أيام الأربعاء. لعلّها صارت تقلد طريقتي في فرقعتي بلساني عندما أفكر في أمر من الأمور. لست أدري إن كنت تتذكرني أحيانًا عندما تقلدني فتفعل ذلك أمامكَ، إن كنتَ تتذكرني تذكّرًا عابرًا، سريع الزوال، لا يكاد يظهر حتى يختفي.

عند انصرافنا في تلك الليلة، طلبت منها أن تشكركَ باسمي على هذه الهدية. ثم قلت شيئًا ما كان ينبغي أن أقوله... قلت إنه يسرني لقاؤك ولقاء جت وفيوليت في وقت من الأوقات. كان هذا أمرًا مستحيلًا، بالطبع، لكني أردت العثور على طريقة أتحدّث بها عنك. أومأت جيما برأسها موافقة وقالت إن الفكرة تعجبها. قالت إن من الممكن أن نذهب معًا لتناول البيتزا، مع سام، مثلما اقترحت عليَّ في مرة سابقة.

«وكيف تجري الأمور مع فيوليت؟».

«فيوليت؟ إنها ممتازة». كانت جيما شاردة الذهن تكتب لأحدهم شيئًا على هاتفها.

لكني تساءلت في نفسي إن كانت كاذبة. ألم يحدث أبدًا أن نظرت إلى ابنتي فأتاها ذلك الإحساس بأن هناك شيئًا ليس على ما يرام. لست أدري إن كانت قد ارتابت يومًا في أن ابنها معرّض للخطر.

قبّلَت خدي عندما ودّعَتني، فمسست ذراعها مثلما تمسّ ذراعي دائمًا.

صار التقارب بيننا أكثر مما ينبغي أن يكون. عاهدت نفسي على عدم المجيء في الأسبوع التالي. أخذت تلك المكعّبات إلى البيت ووضعتها في غرفة سام.

- 71 -

قررت ألّا أذهب. كتبت لها إنني لست على ما يرام... لم ينم سام طيلة الليل، ولم أستطع النوم بدوري. أرسلت لي رسم وجه حزين، ثم كتبت تقول إنها ستفتقد حضوري. لم أرِدْ أن أخيّب أملها.

جلسنا معًا في آخر الصالة وتبادلنا آخر الأخبار عما جرى خلال ذلك الأسبوع. تحدّثنا بصوتَيْن خفيضَيْن. حكت لي عن عدد من المشكلات العابرة التي أثارت قلقها. وحكيت لها عن أشياء حلوة قالها سام أو فعلها.

نحن نلتقي كل ليلة أربعاء منذ نحو سنة. صرنا على معرفة بمعظم النساء اللواتي يأتين دائمًا. لكن صار معروفًا بأننا، أنا وجيما، تربطنا علاقة خاصّة بيننا. ترسخت هذه الصورة في وع الوقت. كانت بقية النساء تحتفظ لنا بكرسيَّيْن متجاورَين عندما يضيق المكان بالحاضرات. وإذا تأخّر وصول واحدة منا، فهن يسألن الأخرى عنها. تساءلت عما جعل جيما مهتمّة بي دونًا عن بقية النساء هناك. الإجابة -كنت واثقة من هذا- هي أنني أبديت اهتمامًا كبيرًا بها، فلم أترك لها أية فرصة أخرى. مع هذا، أردت تصديق أنها وجدت فيّ شيئًا جذبها... لعلها رأتني أمًّا ممتازة قادرة على الالتزام، وعلى الحب؛ ولعل صحبتنا كانت مريحة لها خلال سنتها الأولى مع ابنكَ الجديد. جعلني هذا أحسّ بنفسي كأنني جزء سرّي من أسرتك الجديدة التي بنيتَها لنفسك... أحسست بأنني أفلحتُ أخيرًا في الابتعاد خطوة، في الإفلات قليلًا من قبضة أَحكامِك عليّ.

ودَّعنا بقية النساء، وأحكمت لفّ وشاحي على عنقي.

أشارت جيما صوب الباب وقالت: «زوجي هنا». نظرت فرأيتك

واقفًا في الخارج، رأيتك تحدّق فيّ. شددت أصابعي على صوف الوشاح، وحبست أنفاسي. وببطء، استدرت فأعطيتك ظهري. لقد كنت تراقبنا.

«تعالي، سوف أعرّفك على زوجي». وضعت يديها على كتفي وقادتني صوب الباب. لم أجد ما أستطيع فعله.

«جيما، ينبغي... أريد الذهاب إلى الحمام».

«أوه، تعالي معي لحظة، سوف نذهب إلى السينما هذه الليلة. لكنه هنا الآن، أحب أن تريه».

نظرت إلى الأرض، وحاولت التفكير. ماذا أفعل؟ أحكمت لفّ وشاحي حتى غطّى ذقني. وضغطت قبعتي على جبيني. أخرجت أطراف شعري البنّي من تحت ياقة معطفي وفردتها على كتفي. فعلت هذا كلّه كأنه قادر على جعلك لا تعرفني... المرأة التي أحببتَها عشرين سنة... أم طفليك. وقفت هناك، وقفت أمامك، وقفت عارية مثلما لم أكن عارية من قبل. قبّلتك جيما. ليست مضطرّة إلى الوقوف على أطراف أصابعها مثلما كنت أفعل. أحسست بعينيكَ كأنهما رصاصتان. ابتلعت ريقي. قطرات دمع تزاحمت عند أجفاني... لكن جيما ستظنّ بأن الهواء البارد هو ما يجعل عيني تدمعان.

«فوكس، هذه آن. آن، هذا فوكس».

أحسست برأسي تسبح بعيدًا عني كأنها قنديل ورقيّ مضيء طائر في سماء الليل... ما عدت واقفة هناك، ما عدت حبيسة نظرتك، ما عدت منتظرة أن تذبحني كلماتك التي ستقولها بعد ذلك. تلك هي الطريقة الوحيدة التي تمكنني من تجاوز خوفي وعاري وأسفي لأنك اكتشفت فعلتي. حملت نفسي ورفعتها، فوق. راقبت ما يجري من فوق.

مددت إليك يدي بالقفّاز، «تسرني رؤيتك». رأيتك تنظر إلى جيما، ثم عدت فنظرت إليّ. لم تخرج يديك من جيبيّ معطفك الذي اشتريته

لك في عيد ميلادك. التفتت إليك جيما قلقة وكأن السبب الوحيد الذي يمكن أن يجعلك فظًّا هكذا هو أن بك مرض. أخرجتَ يدك من جيب معطفك بحركة بطيئة، وصافحتَ يدي الممدودة إليك. لم يجرِ بيننا أي كلام منذ سنة ونصف السنة. لم يمسّ أحدنا الآخر منذ فترة أطول من ذلك. كان جلد وجهك محمرًّا من البرد. بدوت لي أكبر سنًّا. لعلّك لا تنام جيدًا بعد مجيء الطفل، أو لعل هذا أثر إجهاد عملك الجديد! أو لعلّي ما عدت منتبهة إلى مرور الزمن... فعلى الرغم من كل شيء، في الذكريات التي أتتني بكل يسر، كنت لا تزال ذلك الرجل الذي أحببته منذ سنين.

«يسعدني لقاؤك». قلتَ هذا ناظرًا من فوق رأسي فأدركت أنك ستوفّر علينا جميعًا خزي تلك اللحظة. لا أظنك فعلت هذا من أجلي.

بدت جيما غير مرتاحة. توتّرَت، واختفت رقتها المعتادة، اختفت انسيابيتها. استطعت رؤية هذا من تحت معطفها الثقيل. أظن بأنها أدركت أن هناك أمرًا غير طبيعي؛ لكن البرد كان أشد من أن يسمح لها بالبقاء زمنًا طويلًا. كانت هناك نساء أخريات تنظرن إليها مودّعات. استدار كل واحد منا، نحن الثلاثة، مبتعدًا عن الخطر. دخلتُ حشد النساء على الرصيف، ثم بدأت أجري. لم أجد شيئًا آخر أفعله. كنت في حاجة شديدة إلى البعد عنك، البعد إلى أقصى ما أستطيع.

- 72 -

لست أدري إن كانت جيما قد أخبرتك بما حدث بعد ذلك. أظنك انتظرت إلى ما بعد السينما حتى قلت لها الحقيقة. أو لعلك انتظرتَ أيامًا. لعلك أردت تجنيبها الخيبة أطول وقت ممكن... إلى أن يصير بقاؤك على صمتك أكثر ثقلًا مما تطيق. أو لعلّك كنت غير راغب في الإقرار بأنك بقيت تلك الفترة كلها متزوّجًا من امرأة يمكن أن تقدِمَ على فعل أمر غير معقول إلى هذا الحد. أمر مختلّ إلى هذا الحد. أخجلتكَ صلتك بهذا الأمر. لم أسمع شيئًا من جيما طيلة ذلك الأسبوع. ولم أجرؤ على التواصل معها. كان صمتها غير المعتاد دليلًا على أنك كشفتَ لها عن حقيقتي. كففتُ عن الذهاب إلى مجموعة ليلة الأربعاء.

لعلّها لم تقل لك الكثير عن تفاصيل الصداقة التي جمعتنا سنة كاملة. لكن قيمة تلك الصداقة كانت كبيرة عندي. لم أعرف في حياتي كلّها صديقة مثلها، صديقة يجعلني تعلّقي بها أحسّ دفئًا ويُسرًا. كانت جيما أشبه بيوم صيفيّ لطيف. إحساسي بها كان مثل ما كانه إحساسي بك في وقت من الأوقات. منذ زمن بعيد. لم أدرك كم كنت وحيدة إلا بعد اختفائها من حياتي.

كان الفضول يأكلني أكلًا، فاستجمعت شجاعتي ذات يوم وسألت فيوليت: «كيف حال جيما؟».

«لماذا تسألين؟».

«فضول، لا أكثر».

«هي بخير».

«والطفل؟».

الطفل. لم تقل لي في ما مضى أي شيء عن الطفل. توقّفت شوكتها عند فمها. وحدّقت في الخضروات في طبقها. كنت واثقة من أنها استغربت علمي بأن هناك طفلًا. لعلها كانت تفكّر في هذا الخلل الذي أصاب ميزان القوى بيننا لأن ذلك لم يعد سرًّا تخفيه.

«إنه بخير». تنحنحت بعد ذلك بطريقة جعلتني أحس شيئًا من الاضطراب. نهضت عن الطاولة، ثم لم تأت أي منا على ذكر جِت تلك الليلة. سألتني قبل نومها إن كانت تستطيع قضاء عطلة نهاية الأسبوع معك: سوف يأتي جَدّها وجدّتها. لم أكلّم أمكَ منذ اكتشافي أمر علاقتك بجيما. كانت تتّصل كثيرًا، لكنها ما عادت تترك لي أية رسائل.

«لا بأس، لكن على والدك أن يطلب هذا الأمر مني».

رفعت كتفيها. تعرف كلتانا أن ما من مكان للبروتوكول في هذه الفوضى التي صنعناها. أتاني صوت هاتفي من الغرفة الأخرى. إنها جيما. لقد كتبت لي رسالة: *هل نستطيع الكلام؟*

غمرني ارتياح كبير.

في اليوم التالي، التقينا لتناول الشاي في مكان قريب من المكتبة. لم أنَم تلك الليلة، فقد ظلّت تدور في ذهني نسخ كثيرة عما سأقوله لها، وكيف يمكن أن أبرّر نفسي. وعلى الدوام، أكون شديدة التوتّر كلما تخيّلتها تراني بشعري الحقيقي من غير ذلك الشعر المستعار البني الذي بدأت أحب وضعه. ركزتُ بحرَ أعصابي المرهقة كله على مواجهة هذا الأمر وحده... شعري. لا أكاذيبي الملتوية، ولا أسلوبي المختل في استعادة ابني إلى الحياة، ولا تلك السهولة العجيبة التي وجدتها في الكذب... وكأنني شخص يثرثر مع الغرباء ثرثرة خالية البال أثناء قيامه بمهماته الصباحية المعتادة.

رأيت لحظة دخولي الباب أنها طلبت فنجان شاي لكل منا. وعندما

سلمت عليها، لم نتعانق مثلما نفعل دائمًا. جلست على كرسي وارتفعت أصابعي إلى شعري قبل أن أتذكّر أنني بلايذ. أنني لست آن. بدلًا من شعري، سوَّيت ياقة قميصي. لقد ارتديت قميصًا أعرف أنه يعجبها. ذكرت لي ذلك مرة، ودعكت كمه بين أصابعها لكي تحس خفة القماش.

«لست أدري ما أقول». لم أعتزم بدء الكلام، لكني بدأته.

أومأت جيما برأسها، لكنّها لم تلبث أن هزته هزة انزعاج، ففهمت. عضضت على شفتي بينما كانت تضيف إلى فنجانها قليلًا من الحليب. انتظرَت لحظة، ثم دفعت الحليب والسكر لكي يصيرا قريبَيْن مني. أصغينا معًا إلى نقرات ملعقتي على الفنجان وأنا أحرّك السكر في الشاي. كان واضحًا أنها لا تريد الكلام... لعلها لم ترِد غير معرفة ما أستطيع قوله لها إن سنحت لي فرصة.

«لا أنتظر منكِ الصفح عني. ما من شيء يبرّر ما فعلته».

نظرتُ إلى حيث كانت تنظر، إلى العالم الجاري خارج المقهى. كانت عيناها تتابعان كل شخص هناك كأنها معلّمة تحصي تلاميذها أثناء دخولهم غرفة الصف عائدين من الاستراحة. لعلها نادمة على طلب هذا اللقاء. أليس من الأجدر بي أن أطبق فمي؟

«أنا خجلة من نفسي، يا جيما. خجلة كثيرًا. أستعيد الآن ما جرى، فلا أستطيع تصديق أنني فعلت هذا. لا أستطيع تصديق أنني قادرة على فعل شيء يبلغ هذا الحد من... من الاختلال. إنني...».

انتظرت أن تمزّقني إربًا. تحولت عيناها من واجهة المقهى، ونظرتا إلى شعري. تركت شعري مثلما كان خلال السنوات الماضية كلّها. تساءلت إن كانت قد لاحظت الخصل الرمادية الهزيلة وسط شعري الأشقر. تساءلت إن كانت تراني الآن أكبر سنًا.

«إن كان هناك شيء أستطيع الإجابة عنه... أي شيء...».

«آسفة لما أصاب ابنك. يؤسفني كثيرًا أنك فقدتِه».

فاجأتني كلماتها.

ارتفعت يدها إلى فمها: «لا أستطيع تخيّل أن أفقد جت».

تنفست الصعداء، وارتفعت يدي إلى فمي، أنا أيضًا. من أين أتاها هذا التعاطف معي؟ ينبغي أن تمقتني... أنا وطفلي الميت.

نظرت عيناها إلى فنجانها، وأمالته بين أصابعها، «لم يقل لي فوكس أي شيء عما حدث. لست أدري إلا أنه كان له ابن، أنه كان لكِ ابن، كان لكما معًا، ثم قُتل في حادثة. ظننت دائمًا أنها كانت حادثة سيارة. هل كانت كذلك؟».

لقد كذبت عليها كثيرًا، ما عدت قادرة على الكذب أكثر من ذلك. فتحت فمي فخرجت الحقيقة منه. أخبرتها بما أتذكّره، بالضبط، خطوة فخطوة. ذكرى القفازين الورديّين على المقبض. صوت اصطدام السيارة بالعربة. كان لا يزال مثبتًا تحت حزامه عندما مات. لم نستطع رؤية جثمانه بعد ذلك. ابنة زوجها التي تحبّها وتثق بها، أخت طفلها، دفعت بتلك العربة أمام السيارة، وقتلت ابني.

أصغَت إليّ من غير أية ردة فعل. ظلّت ساكنة، ظلّت تنظر في عيني إلى أن انتهيت من كلامي. أظنني رأيتها تبتلع ريقها مثلما يفعل الناس عندما يحاولون استيعاب شيء، ويدركون أنهم يتمنّون لو أنهم لم يسمعوه. رأيت صَدْعًا يسري في الجليد. ملت صوبها.

«جيما. هل فكّرت يومًا في أن هناك شيئًا مختلفًا عند فيوليت؟ هل أحسست يومًا لسعة قلق من ألّا يكون ابنك في أمان معها؟».

دفعَت كرسيها إلى الخلف، فأجفلت لسماع زعيق قوائمها على البلاط. وضعت عشرين دولارًا على الطاولة، ثم حملَت معطفها وخرجت إلى ثلج تشرين الثاني المبكر. لم تتوقّف حتى تضع معطفها عليها.

- 73 -

إن في البيت الذي كنا نسكنه زوجًا واحدًا من الأحذية عند الباب. غلاية الماء يتصاعد البخار منها دائمًا. أستخدم كأس الماء نفسها ست مرات قبل أن أغسلها. أقسم قطعة صابون آلة غسل الأطباق نصفين. وفي خزائن الملابس، يفصل إنشان اثنان بين كل علّاقة وعلّاقة، وما من أحد يحرّكها. بقع من الشاي على أرض الممر لم أمسحها بعد على الرغم من ظنّي أنني أمسحها كل يوم. أبالغ كثيرًا في ترتيب الدروج؛ وأبالغ أيضًا في ري نباتاتي. لديَّ في القبو اثنتان وأربعون لفافة من ورق المرحاض. أنسى دائمًا حذف هذا البند من قائمة التسوّق التي أطلبها عبر الإنترنت كل أسبوعين. أتمنى أن يكون عندي فأر. أعرف أنها أمنية غريبة. لكني أحن كثيرًا إلى السكينة التي يوفّرها زائر يأتي كثيرًا... خشخشة كيس في الخزانة، أو وقع القوائم الصغيرة على خشب الأرضية: صحبة مختصرة، صامتة، لا يصعب توقّعها.

أفتح التلفزيون على سباقات «فورمولا-1» في بعض أيام نهاية الأسبوع. أزيز المحركات الحاد، والمعلّق ذو اللكنة البريطانية، يعيدانني إلى صباحات يوم الأحد قبل دروس السباحة عندما كنت أحضّر لك بيضًا وقهوة، وأقدّم إلى فيوليت التوست غير المحمص.

***

لقد أَلِفتُ الوحدة، لكنّ هناك شخصًا لا يأتي إلا عندما تكون فيوليت في بيتك. كان وكيلًا أدبيًا غير ناجح. تعرّفت عليه عن طريق غريس. يحب أن يضاجعني بطيئًا مع ترك نوافذ غرفة النوم مفتوحة حتى يصغي

إلى وقع الخطوات على بلاط الرصيف. أظن أن إحساسه بالقرب من أشخاص غرباء في الخارج يعجّل بلوغه النشوة.

لكن ذكري هذا الأمر قبل غيره قد يعطي انطباعًا غير صحيح. كان شخصًا ذكيًا، معتدلًا. وكان سببًا يحملني على إعداد الطعام ليلًا، وعلى فتح زجاجة نبيذ. كان يستخدم ورق المرحاض أيضًا. ويضفي على السرير دفئًا عندما أكون في حاجة إلى دفء. سرّني أنه لم يسألني أبدًا عن فيوليت... كان كل منهما غير موجود بالنسبة إلى الآخر. من هذه الناحية، لم ألتق رجلًا مثله، يسهل أن أكون معه. ما كان يحب التفكير في حقيقة أن لديَّ أطفال، في حقيقة أن جسدي قد ولد، وقد أرضع. قد يعتبر كثيرون أن الأمومة هي التعبير الأقصى عن المرأة، لكنه لا يرى ذلك. ففي نظره، ليس فرج المرأة إلا وعاء لمتعته. وأما التفكير فيه بأية طريقة أخرى فهو يثير غثيانه مثلما قد يشعر أشخاص آخرون عندما يؤخذ منهم دم. قال لي هذا مرة عندما أخبرته أن لديَّ موعدًا من أجل إجراء فحص لطاخة عنق الرحم.

كان يقرأ ما أكتبه، فنتكلّم في ما أستطيع فعله، وفي ما أستطيع بيعه. أراد أن أكتب أشياء موجّهة إلى الناس في أول الشباب، شيئًا تجاريًا غاضبًا يمكن أن ينجح إذا اختير له غلاف مناسب. بكلمات أخرى، شيئًا يناسبه أن يمثله وأن يجني منه مالًا. كنت أحيانًا أتساءل عن دوافعه في ما يخص هذا الأمر. لكني بلغت عتبة السن التي تقلق فيها النساء من اختفائهن عن أعين الجميع، إلا أعينهنّ، ومن ذوبانهنّ تحت معاطفهنّ العملية وتسريحات الشعر المتَّزِنة. أراهنّ كل يوم سائرات في الشارع كأنهنّ أشباح. أظنني ما كنت مستعدة بعد لأن أصير غير مرئية... ليس بعد... ليس في ذلك الوقت.

1974 - 1972

الظاهر أن إحساس هنري بمسؤولياته الأبوية قد مات مع موت إيتا. بلغ به انكسار القلب حدًّا جعله غير قادر على رعاية أحد. لام نفسه لأن إيتا انتحرت. مع أنه كان الشخص الوحيد الذي أحبها -كانت سيسيليا تدرك أنه أحب إيتا- الشخص الوحيد الذي حاول ما استطاعه من أجلها. لم يقل أحد لسيسيليا أية كلمة عما حدث. ولم يعرف أحد ما يمكن أن يقوله لها.

كادت تنقطع بعد ذلك عن الذهاب إلى المدرسة. لكنها كانت على قدر من الذكاء يكفي لإبقاء نسبة تغيبها عن الدروس تحت النقطة التي يفصلون التلاميذ عندها. كانت تجد مشقّة في مواجهة أي شخص هناك. وقد بدا هذا الإحساس متبادلًا. كان ظنها أن من ينظرون إليها لا يرون فيها إلا صورة أمها الميتة متدلية من شجرة.

صارت تمضي أكثر أوقاتها في قراءة الشعر، الذي اكتشفته من خلالها تجوّلها في مكتبة البلدة أثناء الدروس التي تتغيب عنها. ما كانت مجموعة الأعمال الشعرية في المكتبة كبيرة جدًا. استطاعت قراءة محتوى رفّين كاملين في أسبوعين ونصف أسبوع، ثم بدأت تقرأ الأشعار نفسها من جديد. أتتها أحلام رأت فيها نفسها تعثر على إيتا ميتة ورأسها داخل الفرن مثلما حدث لسيلفيا بلاث التي كانت كتبها تنام معها أحيانًا، تحت وسادتها.

بدأت تكتب أشعارها وتملأ دفترًا بعد دفتر، على الرغم من أنها ما كانت تظن أن تلك الأشعار جيدة. ظلت على هذا المنوال إلى أن بلغت

السابعة عشرة، أي السنة التي تسبق التخرج من المدرسة. توصّلت في ذلك الوقت إلى أن عليها أن تكسب المال بنفسها إن أرادت ترك البلدة... إن أرادت أن تصير شخصًا جديدًا.

عملت في رعاية السيدة سميث التي كانت امرأة متقدّمة السن تعيش على مسافة بضعة بيوت في الشارع نفسه. لقد وضعت السيدة سميث على باب بيتها لافتة مكتوبًا عليها «مطلوب مساعدة» بخط طباعي بدا أشبه بخط طفل. كانت صماء، كفيفة تقريبًا، لكنها ظلّت قادرة على تلبية أكثر احتياجاتها بنفسها. كانت في حاجة إلى من يساعدها في الأشياء التي ما عادت يداها قادرتين عليها. وهكذا، صارت سيسيليا تصلح لها ملابسها بالإبرة والخيط، أو تضع المقدار المناسب من التوابل في حسائها. لقد اعتادت مساعدة نفسها فحسب، لا مساعدة الآخرين. وهذا ما جعلها تجد هذه الوظيفة مرضية على نحو لم تتوقّعه، وإن تكن في بعض الأحيان متعبة قليلًا. لكنها كانت مسرورة بقدرتها على التجول في بيت تعرفه من غير أن تخيفها طيلة اليوم شياطين تخصّ شخصًا آخر. أحسّت هناك بسَكينة وبنظاملم تعرفهما من قبل.

وعندما ماتت السيدة سميث أثناء نومها، كانت سيسيليا مَنْ وجدتها راقدة هناك، نصف جسدها خارج سريرها. كان واحد من ثدييها المنكمشين قد خرج من ياقة قميص نومها الأبيض. راحت تفكّر في ما يتعين عليها فعله بعد ذلك. وأثناء تفكيرها أخذت العلبة التي كانت في الدرج الأعلى من طاولة زينة المرأة. كانت سيسيليا قد راقبت السيدة سميث تدسّ نقودها هناك عند عودتها من المصرف كل أسبوع. وجدت في العلبة ستمئة وثمانين دولارًا. كان هذا كافيًا لشراء تذكرة سفر إلى المدينة، مع إيجار الغرفة وثمن الطعام شهرين اثنين. تساءلت سيسيليا في نفسها إن كانت السيدة سميث قد أرادت إعطاءها هذا المال - لم تحاول أبدًا أن تخفيه عنها، وما كان لها قريب يرثها. على الأقل، خفّفت

هذه الفكرة من إحساسها بالذنب عندما أخذت كل ما عثرت عليه من مال.

في صباح اليوم التالي، أخذ هنري سيسيليا بالسيارة إلى محطة القطار. لم يقل لها كلمة، ولم يودّعها. أدركت أنه ما كان قادرًا على ذلك. قبّلته أول قبلة في حياتها، طبعت قبلتين على خدَّيه غير الحليقين. صار لا يحلق ذقنه إلا لمامًا بعد موت إيتا. همست له بالشيء الوحيد الذي كان قوله ممكنًا آنذاك: «شكرًا لك».

خرجت من سيارته وسوّت ملابسها التي كانت أجمل ملابس لديها، بلوزة وتنورة قصيرة بلون الخوخ اشترتهما من متجر للملابس المستعملة. كانت قد وضعت بقية حوائجها في حقيبة إيتا التركوازية التي تحمل الحروف الأولى من اسمها... حقيبة أهداها إياها هنري، لكنها لم تستعملها أبدًا. لم ترغب إيتا في السفر إلى أي مكان.

كانت سيسيليا قد بلغت الثامنة عشرة؛ وكانت تدرك أن لها جمالًا من النوع الكلاسيكي... جمالًا ما كان لدى أمها أبدًا. توقّعت أن يكون هذا الجمال أكثر نفعًا لها في المدينة منه في بلدتها. ما كادت سيسيليا تنزل من سيارة التاكسي حتى رأت سب ويست الذي يعمل بوابًا في فندق فخم لا تستطيع استئجار غرفة فيه. كان ذلك الفندق المكان الوحيد في المدينة الذي سمعت باسمه من قبل. وما كان لديها عنوان آخر تعطيه لسائق سيارة التاكسي حتى يأخذها إليه. مد سب يده المرتدية قفازًا أبيض حتى يمسك بيدها... ثم لم يتركها بعد ذلك إلا في ما ندر.

أخذ سب سيسيليا في جولة لكي ترى المدينة، وعرّفها على أصدقائه. ساعدها واحد منهم في الحصول على وظيفة ذات أجر منخفض، وذلك في شركة لتأجير السيارات الفاخرة يملكها عمه. صارت تعمل في تسجيل الحجوزات، وفي المحافظة على نظافة المكتب وترتيبه. وكانت تخرج لتناول طعام الغداء مع بقية النساء العاملات هناك. أخبرتها

إحداهن عن شقة صغيرة جدًا معروضة للإيجار تقع فوق معرض فني توقف عن العمل. لكن سيسيليا كانت لا تزال غير قادرة على تحمل تكلفة العيش في المدينة بمفردها. انتقل سب للعيش معها حتى يتقاسما إيجار الشقّة، وصار يدفع ثمن كل شيء آخر في حياة سيسيليا. صارا شريكين بكل ما في الكلمة من معنى. أعجبتها حريّة العيش في المدينة. أعجبها أيضًا ذهابها إلى مكان عمل مهم كل صباح... شراء القهوة من البائعين في الشارع، وقراءة الشعر في الحديقة أثناء الاستراحات. ولقاء أشخاص لا فكرة لديهم عن المكان الذي أتت منه... لا فكرة لديهم أيضًا عن الناس الذين أتت منهم.

كانت سيسيليا محقّة في شأن جمالها، وفي شأن ما سوف يستقطبه من اهتمام. كانت عيون الرجال تتابعها في الشارع، وفي المكتب. كانت الأيدي تمسّها دائمًا... يد هنا، ويد هناك. كان لديها إحساس بالقوة وبالضعف في آن معًا. كثيرًا ما تخرج مع سب من أجل تناول شراب، أو من أجل حضور أمسيات شعرية في بارات تحت الأرض. كلما أدار سب ظهره تحسّ بأنها صارت فريسة للآخرين. وحتى أصدقاء سب العارفين بعيشهم معًا كانوا يمسّونها بأكفّهم أخفض مما ينبغي عندما يمرّون بجانبها.

وذات ليلة، دفعها إلى جدار البار ليني، صديق سب الذي كان يعتبره شخصًا رائعًا، وقبلها مدخلًا لسانه حتى حلقها. فعل هذا عندما كان سب في المرحاض. دفعته سيسيليا بعيدًا عنها متمنية لو أنها لم تستمتع بما حدث.

لكن بقاء العيون عليها طيلة الوقت كان مصدر نشوة لها. كان يجعلها تحس بنفسها منطلقة للمرة الأولى في حياتها. لهذا، صارت تسمح لليني بتكرار ما فعله... مرات كثيرة.

سرعان ما صارا يلتقيان أثناء استراحاتهما وقت العمل. كان ما يقوله

لها يعجبها. زعم أنه قادر على مساعدتها في دخول ميدان عرض الأزياء؛ وقال إن عليها ألّا تهدر جمالها عبثًا في العمل في ذلك المكتب وفي مضاجعة بواب. كان يحب أن يقول لها إن فيها شيئًا خاصًّا، شيئًا لا يستطيع تحديده على وجه الضبط. قالت له إنها تحب الشعر وإنها تتمنّى أن تعثر، في يوم من الأيام، على وظيفة في مؤسسة للنشر، وتتمنّى أيضًا أن تستطيع نشر شيء مما كتبته. لم تقل لسب أبدًا أي شيء من هذا كله.

قال لها ليني إن له صديقًا ذا صلات واسعة، وإنه سيعرّفها عليه. اقترح عليها أن تهجر سب وأن تنتقل لتعيش معه.

بعد أسبوع من ذلك، أدركت سيسيليا أنها حبلى.

في مثل سرعة عثورها على المدينة، فقدتها من جديد.

ما كانت لدى سب أية مدّخرات. أصر على أن ينتقلا إلى بيت والديه في الضواحي إلى أن يتمكّن من توفير بعض المال. سحرته فكرة أنه سيصير ربّ أسرة. لقد كانت طفولته سعيدة، وكانت لديه ذكريات حلوة عن لقاءات العشاء الكبيرة يوم عيد الشكر، وعن الذهاب من أجل التخييم في العطلات.

لكن سيسيليا أحست بنفسها مدمّرة.

عثرت أخيرًا على الشجاعة الكافية لأن تقول لسب إنها تريد إجهاض الجنين، فقال لها ألّا تأتي على ذكر هذا الأمر بعد ذلك أبدًا. قال لها إنها تستطيع العودة إلى بلدتها عودة نهائية ومطالبة زوج أمها بأن يعطيها مالًا... إن كانت ترى فكرة إنجاب طفل منه فظيعة إلى ذلك الحد.

عجزت سيسيليا عن منع نفسها من التفكير في أمها التي رأتها متدلّية من جذع شجرة.

أحسّت بنفسها واقعة في فخ. وأحسّت بنفسها غبية... فما كان منها إلا أن استسلمت.

- 74 -

ما كان هناك شيء يميّز الامتداد الزمني البطيء الفاصل بين خسارة جيما وبين ما حدث بعد ذلك، فأعادها إلى حياتي. كانت سنة عادية لا شيء مميّزًا فيها. أوشكت فيوليت على بلوغ الثالثة عشرة، لكني ما كنت أمضي معها وقتًا طويلًا. لقد عرفَتَ كيف تناور حتى جعلَتها تأتي إلي مرة واحدة كل أسبوع. كتبتُ ذات مرة رسالة إلى محام استعانت به واحدة من معارفي عند طلاقها. اتفقنا على موعد للتواصلّ، ووقفت أنظر إلى هاتفي يرنّ عندما حان وقت ذلك الموعد. ما كانت عندي رغبة في القتال، ثم إن فيوليت بدت أسعد حالًا بأن تعيش من غيري.

فوجئت عندما اتّصلَت بي المعلمة وسألتني إن كنت أحب مرافقة رحلة مدرسة ميدانية إلى إحدى المزارع. جاء اتصالها في الليلة التي سبقت موعد الرحلة: أمٌّ أخرى تذهب مع الرحلة عادة أصابها توعّك واضطرت إلى الاعتذار. أفزعني التفكير في أن فيوليت ستعاملني ببرودها المعتاد أمام تلاميذ صفّها جميعًا. لكني وافقت على الذهاب. طرقت باب غرفة فيوليت لأقول لها إنني سأذهب. لم تظهر لي أية ردة فعل. لم ترفع رأسها عن سوار الخرز الذي كانت أصابعها المتأنّية تصنعه. بدت يداها شديدتي الاختلاف عن يدَيّ.

جلست في مقعد وسط الباص إلى جانب أب أمضى معظم الوقت في قراءة إيميلات على هاتفه، بينما كان الباص المهتز ينطلق بنا خارج المدينة، ومن حولنا غيمة من ضجيج المراهقين الحماسي. كانت فيوليت تجلس خلفي بعدة مقاعد، إلى الناحية الأخرى من الباص،

عند النافذة. إلى جانبها فتاة طويلة القامة بدأ صدرها يتفتّح، وقد أمالت جسدها عبر الممر، فصار ظهرها ناحية فيوليت، وراحت تتهامس مع بنتين لهما شعر أسود مجدول على الطريقة الفرنسية. كانت عينا فيوليت تتابعان المشاهد الريفية المتتالية خارج النافذة.

بدت كأنها غير منتبهة إلى الفتيات المتهامسات؛ لكني كنت مدركة أنها قادرة على سماع كل كلمة: رأيت حنجرتها تعلو وتهبط بحركة بطيئة. تذكرت كيف يكون هذا الإحساس... إحساس المرء بأنه مستبعَد. لم أكن أظن فيوليت مهتمة بالاندماج ضمن الجو الاجتماعي في المدرسة. كانت تبدو لي أكثر ارتياحًا عندما تجد نفسها على الهامش، وعندما تكون بمفردها. كانت مختلفة عن البنات في مثل سنها. ما كانت مثلهنّ أبدًا.

وصلنا إلى المزرعة فسِرتُ متأخرة عن المجموعة، ورحت أراقبها. كانت تمشي متقافزة مع بقية البنات من الباص، لكنهنّ ما كنّ يكلّمنها كثيرًا. وعندما توقفت المجموعة عند مدخل بستان تفاح، نظرت فيوليت من حولها لكي تعرف أين أنا. لوّحت لها بيدي من خلف المجموعة، تلويحة صغيرة. رمت بشعرها المربوط خلف كتفيها، وأقحمت نفسها إقحامًا في مجموعة صغيرة من الفتيات اللواتي كن يتحدّثن بأصوات مرتفعة طغت على صوت المُزارع الذي كان يشرح لهنّ كيفية قطف التفاح بطريقة صحيحة حتى لا تتضرر الأغصان الصغيرة التي ستحمل موسم السنة المقبلة. وزّعت المعلمة عليهنّ أكياسًا بلاستيكية.

كانت لدينا ساعة نمضيها في ذلك البستان قبل أن نذهب لكي يعلّمونا كيف نصنع الفطائر. سرت مبتعدة عن بقية الأهالي الذين كانوا بدورهم يحاولون البقاء متباعدين. عثرت على أشجار تفاح ماكنتوش الأحمر الصلب. أمامي، على مسافة بضعة من صفوف الأشجار، رأيت سترة فيوليت الحمراء تتحرّك بين الجذوع النحيلة. كانت وحدها، إحدى يديها ممسكة بالكيس والأخرى ممتدة بين الأغصان. رأيت في حركتها

أناقة فاجأتني. كانت تتحسّس قشرة التفاحة باحثة عن عيوب فيها. وعندما تقطف التفاحة، تشمها وتديرها بين أصابعها. بدت لي ناضجة جدًا... زال امتلاء وجنتيها، وصار خط حنكها أكثر وضوحًا. وعلى الرغم مما بدأ يظهر عليها من معالم الأنوثة الأولى، فقد كانت حركاتها مثل حركاتكَ تمامًا. رأيت هذا في طريقة نقل ثقل جسدها من قدم إلى أخرى، وفي طريقة عقد ذراعيها خلف ظهرها. لكن رأسها كان مثل رأسي... تميل برأسها جانبًا، وتنظر صوب الأعلى عندما تفكّر في كيفية التعامل مع أمر من الأمور أو في العثور على كلمة مناسبة في قاموس مفرداتها الذي كان يبدو أسرع نموًا من ساقَيْها الطويلتين.

كانت نسمات قوية بعض الشيء تهب من حين لآخر فتلهيها عن قطف التفاح، إذ تتطاير خصلات شعرها على وجهها. وضعت الكيس على الأرض، عند قدميها، نزعت الحلقة المطاطية من شعرها، وجمعته من جديد، ثم ثبّتته ومرّت بيدها على قمة رأسها لكي تتأكّد من أنها ربطته ربطًا محكمًا. ظلت عيناها تنظران إلى الأرض. تساءلت: ما الذي تنظر إليه! لعله طائر، أو تفاحة فاسدة. لكني سرت مقتربة منها فأدركت أنها تنظر إلى لا شيء. كانت غارقة في أفكارها. بدت حزينة.

لكنها أحست بحضوري، فالتقطت كيسها وسارت صوب مجموعة من التلاميذ توقفوا عن قطف التفاح وراحوا يأكلونه. رأيتها تجلس متصالبة الساقين، وتُخرِج من الكيس تفاحة، وتقضمها.

صفّر أحد المعلمين واضعًا أصابعه في فمه، وبدأ يوبّخ التلاميذ. رأيت فيوليت تسير مع رفاقها ورفيقاتها صوب مخزن الغلال. دخلت بدوري، لكني أضعتها في الحشد المجتمع هناك. وقفت أنظر إلى المقاعد التي كان الأطفال يتخذون أماكنهم عليها. رأيت فتيات الباص جالسات معًا إلى إحدى الطاولات.

«هل رأت أي منكنّ فيوليت؟».

نظرت واحدة منهنّ إليَّ وهزّت رأسها. كانت الأخريات تكتبن أسماءهنّ على الطاولة بقِطَع من قشور التفاح. «أنتن صديقاتها، أليس هذا صحيحًا؟».

ألقت واحدة منهن نظرة سريعة على صديقاتها كأنها تلتمس إذنًا بالكلام، «بالتأكيد، أظن هذا. أعني... بعض الشيء».

ضحكت اثنتان منهنّ، لكن التي تكلمت لكزَتهنّ لكي تسكتهنّ.

بدأ قلبي يخفق عنيفًا. بحثت في المكان كله، لكني لم أستطع العثور عليها.

«يا سيد فيليبس، هل تعرف أين ذهبت فيوليت؟».

«ذهبت إلى الباص لكي تستلقي هناك، لقد أصابها صداع. قالت إنكِ ذاهبة معها».

عدوت خارجةً صوب مكان وقوف الباص، لكنّي لم أجد السائق هناك. كان باب الباص مقفلًا.

قال الحارس إنه لم ير أية تلميذة تسير هناك. جريت إلى الاصطبلات الواقعة في الناحية الخلفية، وسألت هناك إن كان أحد قد رأى فتاة داكنة الشعر. بحثت بين أكوام القش إلى الناحية الأخرى من الإصطبلات، ثم رأيت في الأفق حقل ذرة له سور من حبال.

«هل ذهب أحد إلى هناك؟ إنني أبحث عن ابنتي». بدأت أصيح عندها. ظهر عليَّ الذعر. كنت أحاول التقاط أنفاسي.

هز رأسه بالنفي شاب كان يكتب بالطلاء عبارة «المدخل من هنا».

أدركت عندها أنها هربت. كانت تعاقبني لأنني أتيت مع الرحلة. لقد تعلّمنا أن تظلّ كل منا بعيدة عن الأخرى حتى نستطيع أن نتعايش... ذلك كان اتفاقنا غير المعلن. لكن وجودي في تلك الرحلة كان خرقًا للقاعدة. جريت عائدة إلى مخزن الغلال. وجدت ذلك المعلم، وقلت له إنني أضعتها. قلت إنني أظنّها غادرت المكان، لكني لا أدري كيف. قال إنه

سيتفقد كل مكان في المزرعة، وطلب من واحد من أولياء أمور التلاميذ أن يذهب ويخبر المدير.

لم يقل لي إن لا موجب لقلقي... لم يقل لي، لا بد *أنها في مكان ما هنا*.

رأيت طاولة جلس إليها أولاد يتلفّتون من حولهم لأنهم أدركوا أن أمرًا قد حدث. أتى واحد منهم في اتجاهي، وسألني عما يجري.

«لا نستطيع العثور على فيوليت. هل تعرف أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟».

ظل صامتًا. هز رأسه وسار عائدًا إلى رفاقه. نظروا إليّ جميعًا. ظننت أنهم يعرفون شيئًا. ذهبت إليهم واستندت إلى حافة الطاولة واستنشقت نفسًا عميقًا حتى لا يرتجف صوتي: «هل يعرف أي منكم أين ذهبت فيوليت؟».

هزوا رؤوسهم جميعًا، مثلما فعل الصبي الأول. قال واحد منهم بنبرة مهذّبة: «آسف، يا سيدة كونور. لا نعرف شيئًا».

انتبهت في تلك اللحظة إلى الذعر في عيونهم، هم أيضًا.

عرض عليّ الرجل الذي كنت جالسة إلى جانبه في الباص أن يذهب معي في جولة تفتيش أخرى في أرجاء المزرعة. لكن دوارًا بدأ يصيبني، صارت ساقاي خدرتين. عرفت هذا الإحساس مرّة في ما مضى عندما كان عمر فيوليت سنتين وابتعدت عنا كثيرًا في واحدة من مدن الملاهي؛ ثم وجدناها بعد بضع دقائق واقفة عند عربة غزل البنات. يومها، استمر الأمر بضع دقائق، لا أكثر. كنت مدركة أثناء تلك الدقائق أنها في أمان، على الأرجح، وأن من الممكن أن تكون على مسافة قريبة جدًا مني.

ويومها، كان لديّ سام أيضًا. حاولت ألا أفكر فيه الآن. حاولت.

قلت: «لا أستطيع التنفّس». فساعدني ذلك الأب في الجلوس على الأرض المفروشة بالحصى.

راح يدلّك ظهري: «اخفضي رأسك بين ساقيك. ألديها هاتف خليوي؟».

هززت رأسي.

«هل تفقّدتِ هاتفك؟».

لم أجبه. مد يده إلى حقيبة يدي، وأخرج الهاتف منها.

«لديك ست مكالمات فائتة».

اختطفت الهاتف من يده وكتبت كلمة المرور. كانت المكالمات الفائتة من جيما.

قلت بصوت مرتجف عندما أجابت على الهاتف، «فيوليت. لقد ضاعت».

«تلقيت اتصالًا منذ خمس دقائق. اتصال من سائق سيارة شاحنة...». صمتت لحظة كأنها لا تريد قول المزيد... «إنها الآن في مكان لوقوف السيارات عند الطريق السريع. وأنا ذاهبة لأخذها». أنهت المكالمة من غير أن تودّعني. ساعدني الرجل في الوقوف على قدمَيّ، ثم ذهبنا معًا باحثين عن المعلم لكي يوقف التفتيش عنها. وقفت في متجر الهدايا الصغير في المزرعة ممسكة بيدي زجاجة ماء، وحاولت الاتصال بكَ مرة بعد مرة، لكنك لم تجبني.

بعد ساعة كنا عائدين في الباص. وكان كل منا يجلس في المكان نفسه الذي جلس فيه عندما أتينا. كانت أصوات الجميع أقل ارتفاعًا من قبل... خفف أثر الهواء المنعش بركان الطاقة الذي كان في البداية. لم يقل أحد شيئًا عن فيوليت. كان ذلك كأنها ما كانت موجودة من قبل. وعندما وصلنا إلى ساحة وقوف السيارات في المدرسة، وقفت عند مقعدي أنظر إلى التلاميذ يخرجون من الباص واحدًا تلوَ الآخر. تفقّدت المقاعد الخلفية لكي أتأكد من أن أحدًا لم ينس شيئًا، فوجدت السوار حيث كانت صاحبتا الضفائر جالستَيْن. الخرزات البنفسجية والصفراء

والذهبية التي كانت فيوليت منكبّة على ضمها معًا ليلة أمس. لا بد أنها صنعت هذا السوار من أجل واحدة منهن. كان مفكوكًا، مهجورًا. رحت أدير الخرزات بين أصابعي، إلى الأمام وإلى الخلف.

ناديت الفتيات الثلاث. كن جالسات على درجات مدخل المدرسة، منتظرات وصول أهاليهن: «هل سقط هذا السوار منكن؟».

ظلت اثنتان منهما محدّقتين في الأرض.

«إنني أسألكنّ، هل سقط هذا السوار من إحداكن؟».

بسطت يدي بالسوار فهزّت الفتيات رؤوسهنّ. أطبقت يدي عليه ووقفت أحدّق في الفتيات إلى أن توقّفت سيارة أمامنا. سرن ناظرات أمامهنّ، ولم تقل أيٌّ منهنّ كلمة واحدة.

عدت إلى البيت، ووضعت السوار في مكان عميق في الدرج السفلي. وضعته في مكان أعرف أن فيوليت لن تصل إليه. غيّر كل ما حدث ذلك اليوم نظرتي إليها. كانت ضعيفة بين زميلاتها. وما كانت تحب أن أرى ضعفها. ما عدت أراها تلك الفتاة القادرة على إخافة الآخرين بكل سهولة، الفتاة القادرة على جرح الناس من غير جهد، على جرحهم بما تقول أو بما تفعل. لقد صارت الآن مكشوفة أمامهم. مرت بي لحظة كدت فيها أحزن عليها.

اتصلت بجيما تلك الليلة مع أنني ما كنت واثقة من أنها سترد على اتصالي. لصقت ظهري على كرسي المطبخ عندما ردّت.

«أردت فقط أن أطمئنّ عليها. كيف حالها الآن؟».

«إنها صامتة، لكنها بخير». أحسست بأنها وضعت يدها على الهاتف وهمست بشيء. ظلت صامتة. تخيّلتها تلتفت إليكَ وقد اتسعت عيناها دهشة. *إنها لا تفهم الأمر!... لقد هربت فيوليت منها. المشكلة فيها هي*. تخيّلتكَ تشير إليها بأن تنهي المكالمة. تخيّلت زجاجة النبيذ التي لا بد

أنك فتحتَها الآن بعد أن ذهب الطفلان لكي يناما. نظرت من حولي إلى مطبخي الساكن ذي الإنارة الخافتة. وددت تذكير جيما بأنني كنت ذات يوم الأم التي لجأتَ إليها قبل أن ينكشف الأمر كلّه. هي من كانت تنظر إلى وجهي مفتشة عن أسرار تعينها على أن تكون أمّا لطفلها. لقد كذبت عليها. لكني لا أزال تلك المرأة التي كانت تدعوها أعزّ صديقاتها. لم أستطع منع نفسي من القول لها: «كيف حالك؟ وكيف حال جت؟».

«مع السلامة، يا بلايذ».

- 75 -

مر زمن طويل بعد تلك الرحلة لم أر فيه فيوليت. ملأت وقتي بالكتابة، وبقبول رؤية الوكيل الأدبي كلما طلب مني المجيء، مع أنني بدأت في وقت من الأوقات أحسّ بوحدة أكبر عندما يكون معي.

كان يأخذ حمامًا سريعًا بينما أتفقّد حالة الطقس. ماطر وبارد. أقول له أن يحمل مظلّته. يسألني عن خططي. سأكتب، وسأتصل بأحدهم حتى يأتي لتنظيف مصارف المياه. هل لديه وقت لتناول الإفطار؟ ليس لديه وقت... عنده اجتماع في الساعة الثامنة... ألا تتذكّرين هذا؟ هل يحب أن يمضي تلك الليلة عندي؟ لا يستطيع... عشاء مع كاتب جديد. سيأتي غدًا بدلًا من اليوم. هل أعدّ طبق لحم الخروف؟ يدخل خلف الحاجز الذي في الحمام، ويصير تحت الماء المنهمر حيث يمكن أن يكون هناك أيُّ شخص خلف ذلك الزجاج الرطب الذي يشوّه الرؤية. في تلك اللحظة، أنظرُ إليه. يترك باب الحمام مفتوحًا حتى لا يضبّب البخار المرآة. ما كنت أحب العلامات التي تتركها المنشفة على المرآة عندما يمسحها بها قبل حلاقة ذقنه. وما كنت أحب وجود بقايا حلاقته في مغسلتي. أتركه قبل أن ينتهي، وأذهب لغلي الماء من أجل إعداد الشاي. وفي الأسفل، يقبّلني قبلة وداع فلا أكاد أميل صوبه. لست واثقة حتى من أنه يلاحظ هذا.

- 76 -

في يوم من أيام شهر حزيران، اتصلت بي فيوليت وسألتني إن كانت تستطيع البقاء عندي في عطلة نهاية الأسبوع. لم تظهر لي أية رغبة في قضاء عطلة نهاية الأسبوع عندي منذ بداية السنة الدراسية. ألغيت موعدي مع الوكيل الأدبي. وطلبت منها إخبارَكَ بأنها ستكون معي. كانت الحقيبة التي وضعتها في صندوق السيارة عندما أخذتها من المدرسة ممتلئة ملابس لم أرها قبل ذلك. يفوتني قدر كبير جدًا من مجريات حياتها. أحزنتني رؤية البنطلون الضيق ذي اللون الذهبي اللامع... هذا شيء كان عليَّ أن أشتريه من أجلها لو رأيته في متجر من المتاجر. لكنني ما عدت أفكر في شراء أشياء لها.

ذهبنا إلى السينما. وتناولنا الآيس كريم بعد ذلك. لم يجر بيننا كلام كثير، لكنني لمست فيها شيئًا أقل استفزازًا... أقل وخزًا من ذي قبل. أثار هذا فضولي. منحتها فسحة. وأثناء عودتنا بالسيارة، قدّموا في الراديو مسرحية هزلية قصيرة عن قطة في فترة السفاد. ما كنت واثقة من أنها تعرف معنى هذا؛ لكن كلًّا منا نظرت إلى الأخرى، ثم ضحكنا فأحسست غصّة في صدري... لا لأننا تشاركنا تلك اللحظة معًا، بل لأنني أحسستها لحظة غريبة. ما أكثر ما ضاع منا!

كانت في مثل سني عندما رأيت أمي آخر مرة.

عادة ما كنت آتي لأقول لها تصبحين على خير من باب غرفتها. وأما في تلك الليلة، فقد جلست على حافة سريرها ووضعت يديّ على قدميها تحت البطانية، ضغطت عليهما. شيء كنت أفعله عندما كانت

أصغر سنًا، أي قبل أن تكفّ عن السماح لي بمسها. رفعت رأسها عن كتابها، فتلاقت عيوننا. لم تبعد قدميها عني.

«جدّتي مشتاقة إليك. قالت لي هذا منذ أيام».

«أوه»، قلتها بصوتٍ خافتٍ، فقد فاجأني أن تذكر لي فيوليت هذا الأمر. لم يجرِ أي كلام بيني وبين أمّكَ حتى الآن.

«وأنا مشتاقة إليها أيضًا».

«فلماذا لا تتصلين بها؟».

تنهّدت وقلت: «لست أدري. أظن أنني سأشعر بحزن كبير إذا كلمتها. لا بد أنها تحب جت، أليس كذلك؟».

هزّت فيوليت كتفيها كأنها تريد التقليل من أهمية ما قلته. تساءلت لحظة إن كانت تغار منه لما يستقطبه من اهتمامٍ في بيتكَ، لكني عدت فقلت في نفسي إنها قد تظن أن من الأفضل لي ألا أسمع شيئًا عن ابنكَ. لمعت عيناها عندما جالتا في أرجاء الغرفة فتساءلت إن كانت قد تذكّرت سام في تلك اللحظة مثلما تذكرته. كنت شديدة التوق إلى الحديث عنه، إلى وضعه معنا، في تلك الغرفة. عادت عيناي إلى شكل قدميها تحت يديّ. أحسست هدوءًا غريبًا.

«إن كان لديك شيء تحبّين أن نتحدّث فيه... أي شيء في المدرسة... أو أي شيء آخر». ما كنت أريد مغادرة غرفتها. ما كنت أريد رفع يديّ عنها.

هزت رأسها: «لا. أنا بخير. ليلة سعيدة، يا ماما». فتحت الكتاب على الصفحة التي وضعت إصبعها عندها وأسندت ظهرها إلى الوسادة... «أشكرك لأنك أخذتني إلى السينما».

نمت تلك الليلة على الأريكة من غير أن أبدّل ملابسي. نمت وأنا أقول لنفسي إن وجودها معي لطيف جدًا. لعل الأحوال بدأت تتغيّر!

استيقظت على صوت خطوات خفيفة على الأرضية الخشبية في

الطابق العلوي. مرت ست سنين على موت سام، لكن غريزة الاستيقاظ في منتصف الليل على أدنى صوت لا تزال قوية مثلما كانت منذ ولادته.

كانت فيوليت تمشي على أطراف أصابعها ذاهبة من غرفتها إلى غرفتي. انفتح الباب. هل تبحث عني؟ تساءلت إن كانت ستناديني. صار وقع خطواتها أكثر هدوءًا. إنها الآن على مقربة من خزانة ملابسي. سمعت حركة مقبض باب الخزانة، ثم سمعت صوت إغلاقه من جديد. كان بحثها سريعًا، فعّالًا. في أي دُرج نظرت؟ عمّ كانت تبحث؟ السوار الذي وجدته مرميًا منذ شهور في الباص كان في الخزانة، بالطبع. كان عليَّ أن أرميه، لكنّي ما كنت أتخيّل أبدًا أنها ستجده. لا أتذكّر آخر مرة دخلَتْ فيها غرفتي. سمعت صوت خطواتها عائدة إلى سريرها. انتظرت، ومنحتها وقتًا حتى تعود إلى النوم، ثم صعدت من غير إحداث أي صوت. ارتديت قميص النوم، وتفقّدت الدرج. لا يزال السوار هناك. لم تأخذه... لست أدري إن كانت قد رأته.

كان حضورها بهيجًا وقت الإفطار. ليس ودودًا، ولا ميالًا إلى الكلام، لكنه مبهج. أوصلتها إلى بيتكَ، ونظرت إليها تجري في الممر المفضي إلى البيت، ثم تدخل الباب مسرعة. رأيت جيما من نافذة غرفة المعيشة، رأيتها تنهض لتحيّتها، للترحيب بعودتها إلى البيت. أتتني الفكرة في تلك اللحظة. أتتني أول مرة. فكرة أن أعود في وقت لاحق بعد مغيب الشمس. فكرة أن أعود لكي أراقبكم طيلة الليل.

- 77 -

عندما التقيتكَ، كففت عن الذهاب إلى أبي من أجل الأشياء التي أنا في أمَسّ الحاجة إليها. النصح، والمواساة، والراحة. صار أقل فائدة لي. لا بد أن هذا كان واضحًا له من خلال أسلوبي في الامتناع عن الخوض معه في تفاصيل حياتي عندما يتّصل، وفي محاولتي تغيير وجهة حديثنا لكي يصير حديثًا عنه. توقّفت عن استقباله عندي. يخجلني هذا... أعرف أنني كنت كل ما لديه.

قبّلني مودعًا يوم أوصلني بالسيارة إلى مكان إقامتي في السكن الجامعي، قبّلني على رأسي، ثم ابتعد صامتًا. نظرت من النافذة بعد ساعات، فرأيته هناك مستندًا إلى شجرة رافعًا رأسه ينظر إلى المبنى الذي كنت فيه. أغلقت الستارة قبل أن يراني أنظر إليه. كثيرًا ما أتذكّر هذا. كثيرًا ما أتذكّر كيف كان واقفًا هناك.

في شهر تخرجي، تذكّرت ذات صباح أنه لم يتّصل بي أبدًا منذ كنت في البيت وقت العطلة. اعتزمت الاتصال به في عطلة نهاية الأسبوع، لكنّي لم أتّصل مع أنني قلت لك إنه توّاق إلى رؤيتي. بدلًا من ذلك، ذهبت إلى بيته من غير إخباره. ذهبت في المساء بعد انتهاء امتحاناتي. قلت له إنني أتيت لكي أضع في البيت بعض الحوائج التي أتيت بها من غرفتي في السكن الجامعي. تبادلنا بضع كلمات وديّة، ثم ذهب لكي ينام في وقت مبكر تلك الليلة. قرّرت أن أبقى ليلة أخرى. وفي مساء اليوم التالي، طهوت دجاجة بطريقة أعرف أنه يحبّها. انتظرت عودته من العمل، لكن الساعات مضت ولم يأت. وعندما عاد بعد الساعة العاشرة

ليلًا، فاحت منه رائحة كحول. جلس إلى طاولة المطبخ ونظر إلى طبق الطعام البارد في حين وقفت مستندة إلى الجدار. أظننا تذكّرنا أمي في تلك اللحظة، تذكّرناها معًا. سكبت كأس ويسكي لكل منا، ثم جلست. لم أعتزم سؤاله، لكني سألت: «لماذا تركتني أمي؟».

استيقظت في الصباح فوجدته قد ذهب. صداع في رأسي من أثر الزجاجة التي أتينا عليها معًا. قدت السيارة عائدة إلى الجامعة، وحزمت بقية حوائجي. في اليوم التالي، سنبدأ عيشنا معًا، أنا وأنت. صار التفكير في أبي صعبًا عليّ بعد تلك الليلة. وصرت توّاقة إلى أن أترك الماضي خلفي. لقد كان أبي جزءًا مني ومن أمي أكثر مما ينبغي، مع أنه لم يكن هو المشكلة في يوم من الأيام.

عندما اتصلت بي الشرطة وأخبرتني أنه قد عثر عليه ميتًا في بيته، وقالوا إنهم يظنّونه قد مات نتيجة نوبة قلبية أتته أثناء النوم، ناولتكَ سماعة الهاتف واستلقيت على أرضية الباركيه الدافئة تحت شعاع من شمس الصباح. في ذلك الوقت، كنا نعيش معًا في شقّتنا منذ أربعة شهور.

جلستَ إلى جانبي ووضعت يدك على شعري: «يسعدني أنك ذهبت لزيارته».

انقلبت على الأرض مبتعدة عنك. ما كنت قادرة على التفكير إلا في آخر ما قاله أبي في تلك الليلة وهو ينظر في قعر كأسه. كانت قد مرت علينا ساعات ونحن نشرب ونتحدّث.

كنت أنظر إليكَ وأقول لسيسيليا: «ألسنا محظوظين؟»... لكنها ما كانت قادرة على رؤية أن...

تمالك نفسه في منتصف جملته وقام عن الطاولة من غير قول أي شيء آخر. كان يحدّثني عن الأيام التي أعقبت ولادتي. وكنت أتلقف كل كلمة يقولها.

أدرك الآن أننا كسرنا قلبه، أمي وأنا.

***

عدت إلى البيت من أجل تنظيم الجنازة. كنت متوجّسة عندما اقتربت منه. أعطتني السيدة إلنغتون المفتاح الاحتياطي الذي كان لديها. لقد نظفتَ البيت قبل وصولي. عرفت هذا على الفور لأن البيت كان يفوح برائحة الليمون، رائحة المواد المنظّفة التي تستخدمها السيدة إلنغتون دائمًا. كان سريره مختلفًا. عرفت الملاءات النظيفة الموضوعة عليه. إنها ملاءات السرير الاحتياطي في بيت السيدة إلنغتون. أتت السيدة إلنغتون بعد الظهر لكي تكون معي. ساعدني دانييل وتوماس في إفراغ البيت قبل يوم الجنازة. وهبتُ كل ما كان فيه. أردته بيتًا خاليًا. أردت اختفاء كل شيء.

وفي الفصل الذي أعقب ذلك، وضعت إعلانًا لبيع البيت. عرضت سعرًا أدنى من سعر السوق. لم تحرّك مشاعري رؤية ذلك البيت يخرج من حياتي. أتت السيدة إلنغتون يوم توقيع أوراق البيع.

«كان أبوكِ شديد الاعتزاز بك. لقد جعلتِه سعيدًا جدًّا». وضعت يدي على يدها. كانت لطيفة إلى حدٍّ جعلها تكذب عليّ.

- 78 -

اتصلت جيما بعد ثلاثة أيام من زيارة فيوليت السارّة.

أدركت من نبرة صوتها أن أمرًا قد ألمّ بها.

لقد وجدت جت ذلك الصباح في غرفة الغسيل وكان يلعب بسكين حادة. كان لحظة دخولها موشكًا على غرسها في بنطلون الجينز الذي كان عليه.

«هل هي لك؟».

«ماذا تعنين بهذا؟». كنت في طريقي إلى البيت عائدة من المسبح. ذهبت لرؤية بلاطات سام عل ذلك الجدار. لم أستوعب ما قالته بعد... وكنت لا أزال مشدوهة لرؤية اسمها على شاشة هاتفي.

«أعني، هل هي سكين من بيتك؟».

فكّرت في الشفرة التي أخذتها من علبة أدوات فوكس منذ أربع سنين، النصل الذي كان في آخر درج في خزانة ملابسي. كان ملفوفًا بوشاح. لم تمتد يدي إليه منذ ذلك الوقت. فيوليت. لعلّها دخلت غرفتي من أجل هذا!... إن كانت عارفة بوجود النصل هناك.

«لا أستطيع التفكير في مكان آخر يمكن أن تكون هذه السكين قد أتت منه. فوكس لا يترك أدواته وسكاكينه هنا. قالت فيوليت إن أدواته القديمة لا تزال عندك في القبو، لا تزال متناثرة هنا وهناك. على مقربة من مكان غسل الملابس».

قلت: «هذا سخف». ثم فوجئت بالحرارة التي داهمتني. تخيّلتها

تعطيه تلك الشفرة في حين كانت جيما في الطابق السفلي، ثم تسير مبتعدة، منتظرة سماع صراخه. ازدادت حرارة وجهي.

«عليكِ أن تكوني أكثر حرصًا، يا بلايذ. كان ممكنًا أن يجرح أي منهما نفسه».

نفخَت غاضبة، ثم أنهت المكالمة. لقد صارت وضيعة. فيما مضى، كانت مشفقة علي فحسب. والآن، صارت لا تحبني.

أطلقت شتيمة بصوت منخفض، وأسرعت صوب البيت. خلعت حذائي، وجريت إلى الأعلى، إلى غرفتي، وفتحت الدرج. وجدت الوشاح، لكن الشفرة لم تكن فيه.

- 79 -

أسابيع مرّت بعد ذلك لم أعرف فيها نومًا. وعندما أنام، أحلم بسام. تتقطّع أصابعه، إصبعًا بعد إصبع، وهو يتلوّى بين ذراعيّ، وهو يصرخ. لست أدري من كان يقطع أصابعه. أظنها فيوليت. وبعد ذلك، أشعر بأطراف أصابعه تدور في فمي، فأمضغها وأمصها كأنها سكاكر طرية. أبصق في المغسلة عندما أستيقظ، أبصق منتظرة أن أرى دمًا. كنت أحس الأمر حقيقيًا إلى هذا الحد! أتتني فيوليت في الشهر الذي أعقب ذلك. كنا أكثر صمتًا هذه المرة، وكان كل منا أقل بهجة للآخر. لقد عادت البرودة بيننا. كانت جيما قد اتصلت بي، وكنت أعرف أنها أخذت الشفرة من خزانتي. لكني لم أدرِ إن كان عليّ أن أواجهها بالأمر. لم أدرِ ما ينبغي فعله. استنفدَتني قلّة النوم. كان من الأسهل ألّا أفكر في ما جرى.

قررت نسيان الأمر إلى أن جاء يوم طرحت فيه عليّ سؤالًا. كنت أنظّف بساط الحمام البلاستيكي في غرفة الغسيل، في الطابق السفلي. أشارت إلى الرمز المرسوم على زجاجة سائل التنظيف، إلى الرمز الذي يشير إلى أن في الزجاجة مادّة سامة، ثم فتحت فمها لحظة قبل أن تخرج الكلمات منه، «يعني هذا أن الإنسان يمكن أن يموت إذا شرب كمية منه، حتى إن كانت كمية صغيرة. أليس هذا صحيحًا؟». صمتت لحظة... «لماذا تحتفظين هنا بشيء خطير هكذا؟».

«لماذا تسألين؟».

رفعت كتفيها. ما كانت باحثة عن إجابة. خرجت من غرفة الغسيل، ثم سمعتها تكلّمك لكي تأتي وتأخذها في وقت مبكر. انتابني القلق،

انتابني ذلك الذعر المألوف الذي شلّني فكاد يطبق على أنفاسي. عرفت هذا الأمر من قبل؛ وما نجوت منه إلا بصعوبة كبيرة.

وضعت الزجاجة في الخزانة الصغيرة حيث أحتفظ بمواد التنظيف كلّها. نظرت إلى الرف. نظرت إليه حتى أتذكّر كل ما كان عليه.

طلبت رقم جيما عدة مرات بعد ظهر ذلك اليوم. كان قلبي يخفق عنيفًا. ردت على اتصالي في المساء.

قلت لها ما سمعته من فيوليت عن السم. وقلت لها إن سكّينًا قاطعًا قد اختفى من درج خزانتي.

قلت لها إنني قلقة عليها، وعلى أسرتها. قلت لها إني قلقة على جت. لا بد لنا من النظر إلى فيوليت بطريقة مختلفة. أخشى أن يحدث شيء من جديد... غريزتي تقول لي هذا. استندت برأسي إلى الطاولة منتظرة أن أسمع منها شيئًا. أرهقني كثيرًا تفكيري في فيوليت. وما كنت أريد لها أن تظل مشكلة بالنسبة إليّ. لا أريد أن تظلّ مصدر خوفي.

ظلّت جيما صامتة. ثم تكلّمت بصوت هادئ، «يا بلايذ، هي لم تدفع عربة سام. أعرف أنك تظنين هذا، لكنه شيء اختلقته من عندك. لقد رأيتِ شيئًا يحدث، لكنه لم يحدث أبدًا. لم تفعل فيوليت ذلك».

أنهت المكالمة. سمعت صوت المفاتيح في الباب. إنه آتٍ لكي يمضي الليلة عندي. ناديته إلى المطبخ، وخلعتُ ملابسي. ضاجعني على طاولة المطبخ، ورفع ثديي الرخوين الذاويين اللذين أماتتهما كثرة الرضاعة، رفعهما كأنه يتخيّل كيف كانا ذات يوم.

- 80 -

بقيت عدة سنين أفكر في العودة إلى زاوية الشارع تلك. كانت تلك الفكرة تأتيني من غير عناء مثلما تأتي فكرة الذهاب لمشاهدة فيلم في أمسية يوم أحد لا مشاغل فيها. حسنًا، *إنها موجودة دائمًا. أستطيع فعل ذلك اليوم*. وبعدها، أقنع نفسي بأن أنظّف الحمام أو أرتب خزائن المطبخ بدلًا من الذهاب.

لكن اليوم الذي أتحدّث عنه كان يومًا مختلفًا. عاد نومي قليلًا، وعدت أتجوّل في أرجاء البيت من غير هدف ولا أستطيع فعل شيء غير التحديق في ما أراه: المملحة التي لم أملأها، ساعة التوقيت في الموقد لا تزال متقدّمة ساعة كاملة. كومة الرسائل التي أريد رميها لا تزال على مسافة إنشات من سلة القمامة. بقيت شهورًا كثيرة أسمع صوت جيما، أسمعه صدًى مكتومًا كأن هناك من لفّ رأسي برقائق الألمنيوم. لقد كلّمتني كأنها تعرف شيئًا لا أعرفه... كأنها كانت هناك يوم مات ابني. أردت أن أصرخ في الهاتف وأقول لها، *كيف تعرفين ما حدث؟ كيف يكون ممكنًا أن تعرفيه؟*

لكن عليّ أن أعترف الآن: بدأت أشك في نفسي، وراح شكّي يتزايد مع مرور الوقت. لست أدري كيف راحت القناعة التي حملتها سنين طويلة تفقد وزنها. صرت أجد صعوبة أكبر في رؤية ما حدث يومها. أستيقظ في الصباح أحيانًا، فيكون ذلك أول شيء أفعله... أفتّش في ذاكرتي باحثة عن إجابة. هل خبَت ذكرياتي؟ هل صارت اليوم أبعد عني مما كانته يوم أمس؟

كنت قادرة على الذهاب إلى ذلك المكان... هو ليس بعيدًا عن البيت، ليس بعيدًا كثيرًا. لكن قيادة السيارة تجعلني أراه بعيدًا قدر ما أريده أن يكون بعيدًا عني. تجوّلت في الحي عدة مرات، وأوقفت سيارتي على مسافة كتلة سكنية واحدة من حيث حدث ذلك. أغمضت عينيّ وأسندت رأسي إلى ظهر المقعد. بقيت جالسة حينًا من الزمن.

ثم خرجت من السيارة وسرت. نظرت من تحت حافة قبعة معطفي، فرأيت لافتة مقهى جوي. كانت حروفها الآن لامعة، جديدة، سوداء، تلك الحروف التي كانت في ما مضى باهتة. وضعت يدي على صدري لأرى إن كنت أستطيع الإحساس بنبض قلبي من فوق معطفي. أحسست بأن الدم الذي يضخّه قلبي كان دموعًا.

استدرت فصرت في مواجهة ذلك التقاطع.

بدا لي كل شيء مختلفًا عما هو في ذاكرتي. مع هذا، كم يمكن أن يبدو أي تقاطع مختلفًا عن غيره؟ الأسفلت الرمادي المتشقق، وخطوط القار الطري كأنها عروق دموية فيه، والطلاء الأصفر اللامع الذي يحدّد ممر المشاة. الإشارة الضوئية تتأرجح في الريح، ولعلعة إشارة المشاة الصوتية مع هدير السيارات المتصاعد من خلفي.

نظرت عيناي إلى الرصيف باحثة عن علامة. دم. فضلات. ثم تذكّرت أن الزمن كان حقيقيًا، أن ألفين وأربعمئة واثنين وأربعين يومًا طويلًا فارغًا قد مضت. انتظرت لحظة قلّت فيها حركة السيارات، فنزلت إلى الشارع وجثمت عند تلك البقعة، حيث مات. لم أفعل شيئًا غير الابتعاد عن الزاوية عند أقصى يمين الشارع، بضعة أمتار قبل ممر المشاة. مررت بيدي على الإسفلت، ثم ضغطتها على خدي البارد.

رفعت رأسي ونظرت إلى الرصيف متخيّلة كيف تدحرجت العربة مبتعدة عنه. الأخدود الذي كان عند حافة الرصيف، ذلك الأخدود الذي أتذكّره بوضوح تام، ما كان موجودًا. رأيت نهاية الإسمنت ناعمة، متّصلة

بالشارع. رأيت ارتفاع الرصيف من حيث كنت جاثمة: ما كان ارتفاعًا بسيطًا مثلما أتذكّره. عدت إلى الرصيف، وأخرجت قلم حمرة الشفاه من جيبي، وضعته على جانبه ونظرت إليه يتدحرج مبتعدًا عن طرف حذائي، بطيئًا أول الأمر، ثم متزايد السرعة، إلى أن توقّف في وسط الطريق. صارت الإشارة الضوئية خضراء، وبدأ إصبع أحمر الشفاه يقفز تحت بطون السيارات العابرة. رجل في أواسط العمر يرتدي بدلة رسمية أبطأ خطواته ونظر إليّ أثناء سيره. أشحت بوجهي، ونهضت واقفة.

استعدت المشهد في ذهني مرة أخرى. الخروج من المقهى. الوقوف على الرصيف. كأس الشاي في يدي اليسرى. يدي اليمنى على مقبض العربة. مسست رأسه آخر مرة. إحساسي بالبخار الحارّ متصاعدًا إلى وجهي. فيوليت إلى جانبي. شيء يجذب ذراعي. إحساسي بالسائل يلسع جلدي. قفاز فيوليت الوردي على مقبض العربة الأسود. مؤخر رأس سام يبتعد عني. بأية سرعة تحرّكت العربة؟ هل كان اندفاعها كبيرًا؟ أكان ممكنًا أن تبتعد تلك المسافة كلها من غير أن يدفعها أحد؟ هل مست فيوليت مقبضها؟

راقبت المشهد وهو يتكرّر في عقلي، راقبته بكل طريقة ممكنة، راقبته مرة بعد مرة يجري هناك، أمامي. من الممكن أن يكون الأمر كذلك. من الممكن أن يكون هذا هو ما حدث.

اصطدم أحد العابرين بمرفقي، ثم اصطدم بي شخص آخر. وجدت نفسي فجأة أقف هناك وسط سيل من الناس... أشخاص في أيديهم علب طعام وكؤوس قهوة. أحسست بنفسي غير مرئية وسط تلك المخلوقات البشرية التي لها حياة حقيقية ووظائف حقيقية، التي تذهب إلى أماكن تهمّها... أشخاص ينتظر وصولهم بشر آخرون في حاجة إليهم. قلت في نفسي، وكنت أود أن أصيح بهم، *اللعنة عليكم جميعًا. لقد مات هنا،*

هنا تمامًا. وأنتم تمرّون بهذا المكان كل يوم كأن شيئًا لم يحدث! كنت غاضبة، وكنت مرهقة. استدرت ونظرت إلى المقهى.

هنا حدّقت في عينيّ سام آخر مرة عندما كان حيًّا. الآن، صار كل شيء مختلفًا. رأيت عبر واجهة المقهى أن الأرضية الخشبية قد استبدلت بها بلاطات متعامدة من السيراميك. رأيت على الجدران لوحات كبيرة مطلية بلون أسود فاحم، الأماكن التي كان عليها من قبل ورق جدران معرّق. حاولت تذكّر كيف كان شكل المناضد قبل هذه المناضد الطويلة المصنوعة من الستانلس ستيل. كان المكان هادئًا وقت الغداء... اعتدت رؤيته مكانًا شديد الازدحام.

دخلت المقهى فلاحظت أن الأجراس المعلّقة فوق الباب قد اختفت، تلك الأجراس التي كان سام وفيوليت معجبين بها. جوي لا يزال هناك. كان ظهره في اتجاهي، وكان منشغلًا بآلة القهوة.

استنشقت نفسًا عميقًا وقلت: «جوي». رفع رأسه بحركة بطيئة. تهدّل كتفاه. دار من حول الطاولة التي كان خلفها، ومد يديه صوب يدي. شدّ عليهما.

«كنت آمل دائمًا أن تعودي».

نظرت من حولي وقلت: «يبدو كل شيء مختلفًا».

فتح جوي عينيه على اتساعهما، «إنه ابني. سوف يتولّى القيادة الآن لأن ظهري يؤلمني. العمل هنا يتطلّب الوقوف زمنًا طويلًا». نظر إليّ وابتسم ثم قال: «كيف حالك؟».

نظرت عبر واجهة المقهى، نظرت إلى التقاطع.

«ماذا تتذكر مما حدث؟». ابتلعت ريقي. لم أنوِ دخول هذا المكان. لم أنوِ التحدّث إليه.

قال: «أوه، يا عزيزتي». ومن جديد، وضع يديه على يديّ. نظر عبر واجهة المقهى، نظر معي. لا أتذكّر إلا أنك كنت مذهولة جدًا. كنت

مصدومة. تعلّقت ابنتك بخصرك. أرادت أن تحتضنيها. لكنك كنتِ غير قادرة على الانحناء. كنت غير قادرة على الحركة.

أبدًا لم تفعل فيوليت ذلك من قبل... أبدًا لم تتعلّق بي... أبدًا لم تلجأ إليّ طالبة حناني مثلما يفعل بقية الأطفال مع أمهاتهنّ. التمسك، والاحتياج.

جلسنا معًا إلى طاولة عند الواجهة، ورحنا ننظر إلى أضواء إشارة المرور تتغير، وإلى السيارات تمر بها. كانت السماء بيضاء.

«أرأيتَ ما حدث؟».

أجفل، لكنه لم يحوّل عينيه عن الشارع. كان يفكّر في ما سيقوله لي. أشحت بوجهي عنه، ثم رأيته يهزّ رأسه نفيًا، رأيته من طرف عيني.

«هل رأيت كيف تدحرجت العربة فصارت هناك؟».

حاولت من جديد، أغمضت عينيّ.

«كان واحدًا من تلك الحوادث الرهيبة، غير المعقولة».

فتحت عينيّ ونظرت إلى كفّيه المبسوطتين على الطاولة. ضمَّهما معًا وشد عليهما كأن وخزة ألم أصابته.

«فكّرت فيك كثيرًا على مر السنين، وتساءلت كيف يمكن أن تواصلي حياتك بعد ذلك...». صارت عيناه دامعتين... «شكرت الرب دائمًا لأن لديك تلك الطفلة الصغيرة لكي تعيشي من أجلها».

عندما عدت إلى البيت، صفقت هبّة ريح تشرينية الباب من خلفي فكاد يغلق على أصابعي. انهرت على الأرض، ورميت بالمفاتيح صوب الجدار. فكرت في سام، في وجهه الذي كان قد بدأ تحوّله من وجه طفل صغير ممتلئ إلى وجه الشخص الذي سيكونه. فكرت في رائحة الحليب الحلوة التي كانت دائمًا في ثنايا رقبته، وفي الجرعة الأخيرة التي يمتصها من ثديَيّ عندما ينتهي من الرضاعة. تذكّرت كيف كانت يداه تبحثان عن وجهي في الظلمة عندما أرضعه.

أغمضت عينيّ وحاولت أن أحسّ بثقل جسده في حضني. أستطيع الوصول إلى هناك؛ أستطيع أن أكون هناك. صوت برامج التلفزيون الصباحية في خلفية المشهد، وبخار متصاعد من غلاية الماء في المطبخ. وقع قدميّ فيوليت الحافيتين يأتي خافتًا من الطابق العلوي. الماء الجاري في مغسلة الحمام عندما تحلق ذقنك قبل ذهابك إلى العمل. إحساسي بشعري الذي لم أغسله بعد. بكاؤه المتصاعد قادمًا من الغرفة الأخرى. الحياة العادية، المبتذلة، الخانقة... لكنها حياة مريحة، مطمئنة. كانت كل شيء. تركت ذلك كله يضيع مني.

لعلي تركته يضيع مني، هو أيضًا.



- 81 -

في تلك الليلة، كنت قد شربت نصف زجاجة النبيذ. نعم. لكني أفكر في الاتصال بكَ منذ أيام. تكوّرت على الأريكة؛ وكان نائمًا في الطابق العلوي. كان نائمًا في سريري، على الجانب الذي كنت تنام عليه. تمنيت لو أنه لم ينم عندي هذه الليلة. إنه منتصف الليل، تقريبًا.

حدثت نفسي كثيرًا بنسخ مختلفة مما يمكن أن أقوله لك، لكني لم أشعر أنني اهتديت إلى شيء صحيح. لا أريد الاعتذار عن الأم التي كنتها... لست آسفة. وما أردت القول إنني كنت مخطئة... لست أدري إن كنت مخطئة. أردت أن تعرف فقط أن شيئًا في داخلي قد تغير. أردت أيضًا أن أرى ابنتنا أكثر.

ردّت جيما عندما اتصلت ثالث مرة. قالت: «هل كل شيء بخير؟».

قد يكون *الأمر كذلك*... وددت أن أجيبها هكذا. لعل كل شيء قد صار الآن على ما يرام!

بدلًا من ذلك، قلت لها إنني أريد أن أكلمكَ. كنت في السرير إلى جانبها. سمعت صوت انزياح الملاءات عندما انقلبت لكي تأخذ الهاتف منها.

«أريد أن أراها أكثر. أريد أن أصير أفضل».

سألتك عن اللوحة، تلك اللوحة التي أخذتها من غرفة نومنا عند انتقالك من البيت. لم أفكر مسبقًا في سؤالك عنها؛ بل إنني لم أفكر فيها تلك الليلة. لكني أحسست فجأة أنني في حاجة ماسة إليها. نهضت واقفة، ورحت أذرع الغرفة عندما طلبت مني أن أظل على الخط،

وصمت صوتك. تخيّلت اللوحة معلّقة على جدار أبيض ناصع في ممر بيتك الجديد الجميل. جيما تمسّ إطارها الذهبي مسًا رقيقًا عندما تمر بها، وتفكّر بطفلها الصغير... كيف يمسّ وجهها.

«لا أعرف مكانها».

- 82 -

أخذت فيوليت من المدرسة في الأسبوع التالي. كانت جالسة وحدها على الدرجات الباردة كأنها جلمود صخر وسط شلال الأطفال المندفع من حولها.

قلت لها عندما نهضت واقفة: «تستطيعين فعل أي شيء هذا المساء. اختاري ما تريدين. لكننا سنبدأ برنامجًا جديدًا. ستكونين معي كل ليلة أربعاء وكل ليلة خميس».

نظرت إليها بطرف عيني. كانت تكتب رسالة على هاتفها، تكتبها بسرعة غاضبة.

قالت آخر الأمر: «أريد الذهاب إلى البيت». قالت هذا وهي تنظر إلى الخارج عبر نافذة السيارة.

«سنذهب. لكن، دعينا أولًا نفعل شيئًا ممتعًا. ماذا تحبين؟».

« الذهاب إلى البيت. أعني إلى جيما. إلى بابا».

«حسنًا، أنت ابنتي. وأنا أمك. لذا، سنحاول التصرّف على هذا النحو».

دخلت ساحة محطة وقود. توقّفت هناك. لم أدر أين آخذها. كان وجهها في اتجاه باب السيارة. وكانت تكتب شيئًا في هاتفها. أدركت أنني لا أعرف متى صار عندها هاتف.

«إلى من تكتبين؟».

«ماما وبابا».

لم أظهر لها أية ردة فعل... كنت مدركة أنها تنتظر ردة فعلي.

بدلًا من ذلك، ملأت خزان الوقود في سيارتي، ثم قدتها إلى الطريق السريع.

توقّفنا بعد ساعتين لشراء وجبة من أول مكان يبيع الطعام للسيارات العابرة عند أحد مخارج الطريق. ما كنت أعرف أنها صارت الآن نباتية. اكتفت بالبطاطس المقلية. لم تسألني أبدًا عن وجهتنا. لم تسألني عن أي شيء طيلة ساعتين كاملتين في السيارة. بدلًا من ذلك، ظلت مسندة ذراعها إلى النافذة، وكانت يدها تعبث بخصلات من شعرها تدعكها بين أصابعها ثم تمرّ بيدها على امتداد الشريط الحريري كأنها قوس كمان. كانت تلك أيضًا واحدة من حركاتي أيام طفولتي.

لان قلبي عندما توقّفت هناك واشتريت بطاقة من الآلة عند مدخل موقف السيارات. لم آت إلى هذا المكان منذ زمن بعيد جدًا. خرجت من السيارة ووقفت في البرد منتظرة أن تلحق بي. لكنها لم تتحرّك. فتحت بابها ووضعت يدي على كتفها.

«هناك شخص أحب أن تلتقيه».

لم تقل شيئًا أثناء تسجيل دخولنا لدى مكتب الاستقبال. أبرزت بطاقتي الشخصية، وعلّقت بطاقة الزائر على معطف كل منا. سارت خلفي صامتة حتى بلغنا المصعد الذي لم نلبث أن خرجنا منه إلى قاعة الطابق الرابع. كانت في المكان رائحة هواء راكد، هواء معقّم إلا من نفحة من رائحة بول تظهر من حين إلى حين. أرهقني تنفّس ذلك الهواء. نقرت نقرة خفيفة على باب غرفتها.

«ادخل».

كانت جالسة في كرسي عليه غطاء مشمّع تضع ساقًا فوق ساق، وفي حِجرها رقعة كلمات متقاطعة لم تملأها بعد. كانت أنوار الغرفة مطفأة؛ وكان غطاء قلم الحبر الجاف الذي في يدها لا يزال في مكانه. تدلّت

من كتفيها أطراف بطانية خفيفة. فتحت فمها لكي تتكلّم، لكنها تنهّدت فحسب. نسيَت ما تريد قوله.

ثم... «أنت هنا! كنت في انتظارك».

ظلت فيوليت تنظر إليّ حين عانقتها بلطف. ضغطت مفتاح النور الذي كان خلفها فرفعت رأسها ناظرة إلى المصباح وقد فاجأها نوره. أشرت لفيوليت بأن تجلس على حافة السرير.

«ما أسعدني بأن أراكِ!». مدّت إليّ يدها فمررت بإبهامي على جلدها الرقيق كورق الأرز. تحرّكت عروقها تحت شفتيّ عندما قبّلت يدها. كانت رائحتها مثل رائحة الكريم المطرّي للبشرة.

«أنت اليوم جميلة جدًا». قالت هذا بنبرة صادقة جدًّا جعلتني أحسّ بنفسي جميلة حقًّا. شكرتها. كانت شفتاها جافَّتَين، فتناولت كأس الماء عن الطاولة الصغيرة عند السرير وقدّمتها إليها.

«لا، أشكركِ يا عزيزتي. اشربي أنت قليلًا. أنت ظمأى دائمًا. هكذا أنت منذ كنت طفلة صغيرة».

نظرت فيوليت إليّ، فأدركت من انقباض شفتيها أنها منزعجة. ما كانت مرتاحة في هذا البناء الغريب ذي الرائحة الغريبة، مع هذه المرأة التي لم ترها أبدًا من قبل. تململت في جلستها على السرير. نظرت إلى الباب.

«جئت لكي أعرفك على هذه الفتاة. إنها ابنتي. اسمها فيوليت». ألقت فيوليت نظرة سريعة في اتجاه المرأة الغريبة الجالسة على الكرسي وتمتمت بكلمة تحيّة.

«أوه، ما أجملها! أليست جميلة؟».

«جميلة بالتأكيد».

سألتني: «هل تعرفين كيف جئتُ إلى هنا؟».

بانَ القلق على وجهها.

أمسكت بوجهها من جديد، «جلبوك بالسيارة إلى هنا. كنت تعيشين في مكان غير بعيد، في بيت في داونغتون كريسينت. ألا تتذكرين؟».

«لا أتذكّر شيئًا».

دخلت الغرفة ممرّضة تحمل طبقًا مغطّى وضعته على طاولة صغيرة ذات عجلات. «حان وقت العشاء».

«ليدا، أريد أن أعرفك على ابنتي». شدّت على يدي وابتسمت للممرضة ابتسامة لطيفة، «أليست جميلة؟».

للمرة الأولى، نظرت فيوليت إليّ. نهضت واقفة وسارت صوب الباب. سارت ممسكة مرفقيها بيديها. كان رأسها مطرقًا، فظننت أنها قد تبكي. ابتسمت الممرضة لي، ثم انحنت فوق السرير وسوّت الوسادة الرقيقة. أسقطت قرصَيّ دواء في كأس بلاستيكية على طاولة إلى جانب السرير، ثم نزعت غطاء طبق العشاء. ملأت الغرفة رائحة فظيعة، رائحة خضار معلّبة حارّة. أشاحت فيوليت بوجهها عنا.

«أوه. عليّ الآن أن آكل وأن أستعد للنوم». نهضَت عن الكرسي تتحرّك حركة بطيئة، وحاولت طي البطانية التي كانت على كتفيها. دخلت الحمام وأغلقت بابه من خلفها. رتّبتُ طاولة الطعام من أجلها، ووضعت كتاب الكلمات المتقاطعة على منضدة الزينة. ظلّت فيوليت تنظر إليّ صامتة إلى أن سمعنا صوت انهمار الماء في المرحاض ورأيناها تعود وتجلس على كرسيها.

«إذًا، سنذهب الآن». انحنيت لكي أقبل وجنتيها... «سأعود لزيارتك في العطلة. هل ترين دانيل وتوماس؟ هل زاراك في الآونة الأخيرة؟».

«من هما؟».

«إنهما ولداك». ما عاد لي اتصال بهما منذ زمن بعيد.

«ليس عندي أبناء. ليس عندي غيرك».

قبّلتها من جديد. كانت تنظر إلى السكين والشوكة متسائلة في نفسها

عما تفعله بهما. وضعت الشوكة في يدها، وساعدتها في غرسها في حبّة فاصولياء خضراء. أومأت برأسها، ثم رفعَتها إلى شفتيها.

جلسنا في السيارة وسرنا دقيقة. انتظرت أن تُخرج فيوليت هاتفها وتبدأ كتابة الرسائل فيه. لم تفعل ذلك. ظلت عيناها إلى الأمام حتى بلغنا الطريق السريع تحت السماء المظلمة. تساءلت إن كانت قد نامت.

وفي منتصف الطريق إلى البيت، نطقت أخيرًا. كلّمتني.

«من كانت تلك المرأة؟ هي ليست أمك. إنها سوداء».

كانت نبرة صوتها لاذعة... كأنني كنت أحاول خداعها. كأنني كنت أحاول، بطريقة من الطرق أن أجعلها ترى نفسها غبية.

«كانت أقرب الناس إليّ».

«لماذا لا تبحثين عن أمك الحقيقية؟».

بقيت لحظة صامتة. كنت أفكر كيف أجيب عن سؤالها إجابة صادقة.

«لأنني مذعورة من معرفة كيف صارت».

حوّلتُ نظرة عيني من الطريق أمامي إليها، إلى الظل الجالس إلى جانبي. غصصت حزنًا. ظللت أربع عشرة سنة راغبة في العثور على شيء بيننا، على شيء لا وجود له. لقد أتت مني. لقد صنعتها. هذا الكائن الجميل الجالس إلى جانبي... أنا صنعتها؛ وقد مر بي وقت أردتها فيه، وقت جعلني أظن أنها ستكون عالمي كلّه. تبدو امرأة الآن. حكمة أنثوية تظهر في عينيها. كانت موشكة على التفتح من دوني. سوف تختار عما قريب حياة لا مكان لي فيها. وسوف أبقى متروكة، وحدي.

1975

أدركت سيسيليا منذ وقت مبكر أنها ليس مقدَّرًا لها أن تصير أمًا. كانت قادرة على الشعور بهذا الأمر في عظامها منذ أول أمومتها. كانت ترى طفلًا يده في يد أمه يجرجر قدميه على الأرض، فتنظر في اتجاه آخر. كانت هذه ردة فعل جسدية مثلما يتأوّه المرء عندما يكون الماء المنهمر من الصنبور حارًّا أكثر مما ينبغي. في ما يخصّها، ما كان لديها ذلك الشيء الموجود لدى بقية النساء؛ وما كانت لديها رغبة في رعاية طفل، ولا كانت قادرة على رؤية الفرحة في كائن صغير ممتلئ. وبالتأكيد، ما كانت لديها رغبة في رؤية نفسها منعكسة في كائن حي آخر.

كان الحيض يأتيها كل شهر منذ بلغت الثانية عشرة؛ يأتيها مثلما يأتي صديق مخلص لكي يذكّرها: أنت تنزفين. هذا دمك. أنت لا تريدين طفلًا في داخلك. إياك أن تصغي إلى العالم عندما يقول لك إن عليك فعل ذلك.

كانت لها أحلامها، وكانت لها حريتها. لكنها تخلّت عن ذلك كلّه.

يتحرّك الطفل في أحشائها، فتسأل نفسها أحيانًا إن كانت مشاعرها قد تغيّرت. وذات يوم، وقفت أمام المرآة عارية وراقبت حركة قدم الجنين تحت جلد بطنها، حركة رسمت خطًا هلاليًا. ضحكت بصوت مرتفع، فازدادت حركة الجنين. ضحكت أكثر، ثم أكثر. كانا يعيشان لحظة مرحة، كلاهما معًا.

أعطوها دواء مهدئًا من أجل المخاض. كان الجنين غير راغب في الخروج فأحدثوا ثلاثة شقوق جراحية واستخدموا ملقطًا جعل رأس

المولودة يبدو مثلثي الشكل. عندما استعادت سيسيليا وعيها، وجدت أنهم قد لفّوا ابنتها ببطانية ناعمة ووضعوها في منطقة المواليد الجدد.

«لقد أتتك طفلة». قالت الممرضة هذا كأنه شيء تحب سيسيليا أن تسمعه.

أشارت سيسيليا إلى طفلتها، إلى طفلتها تحديدًا مع أنها كانت في الصف الثالث، المهد الرابع إلى جهة اليسار.

«كيف عرفت هذا؟».

«إنني أعرف».

حملت الممرضة الطفلة ورفعتها عاليًا حتى يروها. كانت ساكنة، واسعة العينين. قالت سيسيليا في نفسها إنها تشبه دميتها القديمة، بث آن.

أشارت لها الممرضة من خلف الزجاج تسألها إن كانت تريد إرضاع طفلتها. نظرت سيسيليا إلى سِب وسألته إن كانا يستطيعان الذهاب إلى الخارج بدلًا من ذلك. أخذها وخرج بها من باب المستشفى في شبشبها وقميص نومها؛ وكانت عجلات حامل كيس المصل الموصول إلى ذراعها تقرقع على الإسمنت. أعطاها سجائرها. وقفت تنظر إلى ساحة وقوف السيارات أثناء تدخينها.

أطفأت سيسيليا السيجارة على ركبتها، وقالت: «نستطيع الآن أن نجلس في السيارة ونذهب. نحن الاثنان فقط». ابتسم ابتسامة عريضة، «لا بد أن الأدوية المسَكّنة قد فعلت فعلها». أدارها حتى يعود بها إلى الداخل. «هيا بنا، علينا أن نختار لها اسمًا».

أخذا الطفلة إلى البيت، ووضعاها في مهد على طاولة المطبخ في بيت أبيه وأمه. لم يأت حليب سيسيليا أبدًا. سرعان ما صار جسد الصغيرة ممتلئًا لتناولها حليب الأطفال؛ ورأت سيسيليا أنها صارت تشبه إيتا. نادرًا ما كانت تبكي في الليل كما يفعل بقية الأطفال عادة. كان سب يقول لسيسيليا، كل يوم تقريبًا: «ألسنا محظوظين؟».

- 83 -

كانت فرشاتها تعلق في شعري الطويل الرطب. تجلس أمي على مقعد المرحاض وتستخرج خصلة بعد خصلة من تلك الأجمة الخشنة على رأسي. قلت لها من جديد إن من الممكن أن تقصّه. كنت في الحادية عشرة، وما كان عندي بعد أي اهتمام بمظهري. لكنها ظلت مصرّة على أن الشعر القصير لن يعجبني. عجبت مما يجعلها مهتمة بهذا الأمر إلى هذا الحد، وليس بأي أمر آخر غيره. أظل صامتة وهي تصارع شعري. صوت الراديو في الخلفية، وصوته يخشخش كل بضع ثوان. أحدّق في أقواس قزح الباهتة على قميص نومي.

«كان شعر جدتك قصيرًا».

«هل أنت شبيهة بها؟».

«في الحقيقة لا. كنا متشابهتين من نواحٍ كثيرة، لكن ليس من حيث المظهر».

«هل سأصير مثلك عندما أكبر؟».

توقّفت لحظة عن جذب خصلات شعري. رفعت يدي لكي أتلمس ذلك الشعر المتشابك، لكنها دفعت يدي بعيدًا.

«لست أدري. آمل ألا يحدث هذا».

«أنا أيضًا أريد أن أصير أمًا ذات يوم».

توقّفت أمي من جديد، وظلّت صامتة. وضعت يدها على كتفي. أبقتها عليه. تقوّس ظهري. بدت لي رقة لمستها غريبة.

«تعرفين أنك لست مضطرة إلى هذا. لست مضطرة إلى أن تصيري أمًا».

«هل تتمنّين لو أنك لم تصيري أمًا؟».

«أتمنّى أحيانًا لو كنت شخصًا من نوع مختلف».

«من تتمنين أن تكوني؟».

«أوه، لست أدري». بدأت تصارع شعري من جديد. صار صوت الراديو كله تشويشًا؛ لكنها تركته على هواه، عندما كنت صغيرة، حلمت أن أصير شاعرة.

«لماذا لم تصيري شاعرة؟».

«ما كان هذا مفيدًا لي». ثم أضافت بعد قليلٍ: «لم أكتب كلمة واحدة منذ أنجبتك».

لم أجد في هذا الكلام أي معنى. فكيف يكون وجودي في هذا العالم قد أخذ الشعر منها... «تستطيعين المحاولة من جديد».

ضحكت ضحكة قصيرة، «لا. اختفى ذلك كلّه مني».

توقّفت. شعري لا يزال في يدها. ملت إلى الخلف مستندة إلى ركبتيها. «هناك الكثير في أنفسنا مما لا نستطيع تغييره... شيء ناتج عن كيفية ولادتنا. لكن أجزاء أخرى منا تتشكّل بفعل ما نراه، وبفعل تعامل الناس معنا، وبم يجعلوننا نحسّ». أبعدت الفرشاة عن رأسي آخر الأمر، وراحت تمرّرها على قبضة من شعري الذي تساقط إلى أن صارت نظيفة. انكمشت على نفسي عندما انتهت. ناولتني الفرشاة من فوق كتفي ففردتُ ساقي النحيلتين لكي أقف.

«بلايذ».

«ماذا؟». استدرت عند عتبة الباب.

«لا أريد أن تتعلّمي كيف تصيرين مثلي. لكني لا أستطيع تعليمك كيف تصيرين شخصًا مختلفًا».

هجرتنا في اليوم التالي.

- 84 -

في الصباح الذي أعقب زيارتنا السيدة إلنغتون سمعت فيوليت تتّصل بجيما من الحمام بعد أن فتحت ماء الدوش حتى يخفي صوته كلماتها. لم أتوقّف عند الباب حتى أحاول الاستماع إليها. ذهبت إلى المطبخ وأعددت لها إفطارًا. أتيت بفنجان القهوة وجلست قبالتها أنظر إليها وهي تأكل.

«ماذا؟». رفعت ملعقتها فتساقطت قطرات الحليب على الطاولة. لقد أزعجتها نظراتي. لم تكلّمني منذ أن كنا في السيارة. لاحظت السير الرقيق لحمالة الثديين ظاهرًا من ياقة كنزتها، عند كتفيها.

«أنا سعيدة لأن لديك جيما في حياتك. أتيت بك لكي تري السيدة إلنغتون، ولكي تري أنني أفهم. أتمنّى أن تحسّي نفسك محبوبة من قبل شخص تثقين به، من قبل شخص تستطيعين الاتكال عليه. ما من ضرورة أن أكون أنا ذلك الشخص... إن كنت لا تريدين أن أكونه».

سقطت الملعقة من يدها، سقطت في الطبق. دفعت كرسيها إلى الخلف مبعدة إياه عن الطاولة، فاندلقت قهوتي. لحقت بها لحظة كادت تغلق باب البيت من خلفها. «انتظري، لقد نسيتِ معطفك. سوف آخذكِ بالسيارة». قلت لها هذا محاولة أن أديرها صوب الباب. لم أتوقّع أن تكون ردة فعلها هكذا. ظننت أنني أمد لها يدي بغصن زيتون، بالتفهم المتبادل: لم أكن الشخص الذي تريده؛ لقد اعترفت لها بهذا واستسلمت.

«بالطبع، يسعدك تقديمي إلى جيما. تتمنّين لو أنك لم تنجبيني، أليس هذا صحيحًا؟».

«تعرفين أنه ليس صحيحًا».

«أنت كاذبة. أنت تكرهيني».

حاولت تخليص ذراعها مني. لكن قبضتي كانت قوية. فكّرت في سام. فكرت في جسده المحطم في عربته. أحسست بألم ذلك اليوم وألم افتقاده في كل يوم تلاه. أحسست سنوات اللوم القاتل، والذعر، والشك. وعندها، صرت قادرة على الإحساس بأمي. جذبتها إليّ. لويت ذراعها بقوة أكبر مما ينبغي. اكتسحتني موجة الأدرينالين فجذبتها إليّ مرة ثانية. قرّبتها من وجهي. لم أعش من قبل أبدًا شيئًا مثل هذا الاندفاع الجسدي لإيذائها. لم أعرف قبل الآن أبدًا.

أدركت لحظتها كم بدت راضية بما يحدث. ارتفعت زاويتا شفتيها بحركة بطيئة وهي تقول بصوت يكاد يكون باكيًا، *استمري، واصلي إيلامي. فلتحمل ذراعي أثر قبضتك*. تركتها. جرت مبتعدة.

لم أجدها على درجات المدرسة عندما ذهبت لإحضارها بعد انتهاء الدروس. أوقفت السيارة، ودخلت لأرى أين هي. قالوا لي إنها مرضت وذهبت إلى البيت. قالوا إنك أتيتِ وأخذتها.

كتبت لكَ، *ظننت أن لدينا اتفاقًا على تقاسم الأيام*.

أجبتني، *لا أظن أن اتفاقنا ناجح*.

دقة خفيفة على باب البيت في تلك الليلة... خفيفة إلى حد كاد يجعلني لا أنهض من فراشي لكي أرى من في الباب. ارتديت ثوبي المنزلي، ونزلت السلم بخطوات حذرة في الظلام. فتحت الباب. لم أر أحدًا. لكني وجدت رزمة كبيرة مغلّفة عليها بطاقة. وقفت على الأرض الباردة، وفتحت الرزمة. إنها اللوحة. لوحة سام. كانت البطاقة رسالة من جيما.

تستحقين أن تكون اللوحة لك. إنها معلّقة في غرفة فيوليت منذ أن

أعطاها فوكس إياها، لكنها أنزلتها عن الجدار هذا الصباح. إطار اللوحة متصدّع. وقد ثقبت فيوليت القماش. يؤسفني هذا.

ما كنت أعرف مقدار ما تعنيه هذه اللوحة بالنسبة إليك.

من فضلك، امنحيها فرصة.

آمل أن تفهميني.

عيد ميلاد مجيد.

جيما.

لم تكن قد بلغت سيارتكَ بعد. أعرف شكلك أينما كنت، استدارة كتفيك، وارتفاع مرفقيك قليلًا عندما تمشي. لم أفكر قبل أن أنادي باسمك. لم تفكر قبل أن تستدر. وهكذا كنا هناك معًا. يحدق كل منا في الآخر، غريبان، قريبان.

انتظرتُ أن تستدير عائدًا إلى سيارتك، لكنك عدتَ في اتجاهي. عدتَ إلى الشرفة الأمامية التي بنيتها أنت، إلى البيت الذي كنت تحبه، عدتَ إلى البيت الذي لا يزال شراكة بيننا، على الورق. رفعتَ رأسك ونظرت إلى حيث كان إطار الباب متشققًا، إلى حيث كانت فيه شظية خشبية ناتئة كأنها نصل سكين.

«عليك أن تصلحي هذا».

«أشكرك. أشكرك لأنك أعدتِها». أشرت إلى الخلف، إلى اللوحة التي كانت في المدخل، غلافها نصف مفتوح».

«اشكري جيما».

لم أقل شيئًا.

«لا يمكنك الاتصال بزوجتي بعد الآن، عليك أن تواصلي حياتك. أنت تعرفين هذا. إنه في مصلحة الجميع».

كنت أدرك هذا. لكني لم أرد سماعه منك.

استدرتَ وسرت مبتعدًا عني، فظننت أنك سوف تذهب. نظرت

إلى جانب وجهك محاولة تقرير ما أشعر به نحوك الآن. مر زمن طويل جدًا منذ آخر مرة كنا فيها قريبَيْن هكذا. لم تبدُ لي حقيقيًا بل كنتَ كأنك شخصية من حياة لم تكن حياتي أبدًا. أردت أن أمد يدي إلى ذقنك، أن ألمسك، أن أرى كيف أحسك بين أصابعي الآن بعد أن صرتَ تحب غيري، الآن بعد أن صرت أبًا لطفل ليس طفلنا معًا.

أحسست عينَيَّ مسلطتين عليك، فسألتني: «ماذا؟».

هززت رأسي. هزّ كل منا رأسه ناظرًا إلى الآخر. ثم أغمضت عينيك وبدأت تضحك ضحكًا خفيضًا.

«أتعرفين... كنت أفكر في شيء خلال الطريق إلى هنا». جلستَ على الدرجة العليا أمام الباب، وتكلّمت كأنك تخاطب الطريق. جلستُ إلى جانبك، وأحكمت لف ثوبي المنزلي على جسدي... «حدث أمر لم أخبرك عنه أبدًا». سمعتك تضحك لنفسك من جديد. تهدّل كتفاك. ما كان عندي أي تصوّر عما ستقوله لي.

«ألا تتذكرين تلك المرة، تمامًا بعد ولادة سام، عندما اختفت ملابسك الجميلة كلها من خزانتك؟... ثم لم نستطع العثور عليها أينما بحثنا؟».

قلت بنبرة ساخرة: «إنها شركة تنظيف الملابس التي اعتمدنا عليها؛ تلك الشركة السخيفة التي عرضت تخفيضات في السعر». تذكّرت ما حدث. ظننت يومها أن جنونًا أصابني: اختفى كل ما لدي من بلوزات وكنزات جميلة. اختفت كلّها في لحظة من اللحظات. ظللت شهورًا بعد ولادته أستخدم كنزات كبيرة المقاس، ولا أستطيع الآن تذكّر متى اختفت الملابس على وجه التحديد. لكن اختفاءها كان شديد الغرابة. لقد جرّبنا شركة تنظيف ملابس جديدة في حَيّنا، وكان ذلك التفسير المحتمل الوحيد الذي استطعت التوصل إليه. في ذلك الوقت، كنت مرهقة جدًا، وكنت مشغولة الذهن جدًّا، فلم أبال بالأمر كثيرًا. قلت لي يومها ألا أقلق، فسوف نعوّض كل شيء.

رفعتَ رأسك وبدأت تضحك. «حسنًا، في يوم من الأيام...». ضغطت أنفك بين إصبعيك، واهتز كتفاك... «ذهبت في يوم من الأيام إلى خزانة ملابسك بعد أن طلبت مني جلب كنزة منها، و...». لم تستطع إتمام جملتك. ضحكت حتى سالت دموعك. منذ سنين، لم أر أحدًا يضحك ضحكًا شديدًا مثل هذا الضحك.

«ماذا؟ أنت تغيظني... قل لي!».

«فتحت باب خزانتك فوجدت كل شيء فيها... كانت الملابس كلّها مشوّهة». كنت شبه عاجز عن النطق. سالت دموعك على وجهكَ. هززت رأسك. كانت متابعة الكلام عسيرة عليك... «أذرع الكنزات، كانت مقصوصة كلها، والقمصان ممزّقة. بدأت أفحص الملابس قطعة بعد قطعة وأقول في نفسي، *ماذا جرى؟*». مسحت وجهك بظهر يدك... «ثم نظرت إلى الأسفل فوجدت فيوليت مختبئة تحت فساتينك المعلّقة. كانت معها أنصال سكين كتلك النماذج التي في مكتبي. هي من فعلت هذا. لقد فعلت ما فعله إدوارد سيزر هاندز عندما ذهب إلى المدينة. لذا، رميت تلك الملابس كلّها ولم أقل لك شيئًا».

فتحت فمي ذهولًا. ملابسي! لقد ذبحتْ خزانة ملابسي كلّها. عندما كنت جالسة على الأريكة في الطابق السفلي أُرضع طفلي، صعدت فيوليت إلى غرفتي وقصت ملابسي الجميلة كلّها. وأما أنت، فقد تسترتِ عليها.

«هذا جنون». كان ذلك كل ما استطعت قوله. نظرت إليّ وضحكت من جديد ضحكت ضحكًا جنونيًا. ضحكت ضحكًا مجنونًا أغاظني. هززت رأسي همست قائلة إنك أحمق. كيف تجد هذا مضحكًا؟

لكني لم ألبث أن ابتسمت. لم أستطع منع نفسي من الابتسام. ما أسخف هذا، وما أغربه! لا يزال لك ذلك التأثير عليّ، ولا تزال قادرًا على جعلي راغبة في أن أكون مثلك. جلسنا ضاحكين معًا مثل كلبين

عجوزين يعويان في الليل. التفكير في غرابة ما حدث، وفي سخف إخفائه عني. مضحك أننا لا نزال قادرين على أن نكون هنا، بعد كل شيء، في تلك الليلة، على درجات المدخل الباردة... أن نكون معًا.

مسحت أنفي بكم ثوبي وتوقّفت عن الضحك: «كان عليك أن تخبرني».

«أعرف هذا». صرت هادئًا في تلك اللحظة. تغيّر شيء في وجهك. نظرت إلي، نظرتَ في عينيّ أول مرة منذ سنين. كنا جالسَيْن هناك معًا، جالسين تحت ثقل كل ما لن نقوله. وجدت نفسي مرغمة على الإشاحة بوجهي. أغمضت أجفاني الثقيلة وفكرت في ابننا. ابننا الجميل. فكّرت في إليجا، الولد الذي سقط في حديقة الأطفال. فكرت في الأطفال الذين كانت تتنمّر عليهم... في الليالي التي كانت تقف فيها وتنظر إلى سام في الظلام وهو نائم. فكّرت في انفصالها عن الناس، في الشفرات، في اللعبة التي رمتها من نافذة السيارة عندما كنا عائدين من حديقة الحيوانات. فكّرت في أسرار أمي، وفي عارها. فكّرت في آمالي. فكّرت في مخاوفي القاتلة. فكّرت في الأمور التي كانت عادية، وفي الأمور التي قرأت عنها. فكرت في ما رأيت، فكرت في ما لم أر، فكّرت في ما كنت تعرفه.

سمعتك تتنحنح، ثم تنهض واقفًا.

«لم تكن دائمًا طفلة سهلة. لكنها تستحق منك المزيد». نظرت إلى الشارع، في اتجاه سيارتك، وأغلقتَ سترتك. وضعتَ يديك في جيبيك، ونزلت درجة واحدة مبتعدًا عني... «وأنتِ تستحقين مني المزيد».

عندما دخلت البيت، وجدت في انتظاري رسالة صوتية. كانت رسالة من امرأة متقدّمة في السن لم تقل فيها اسمها. صوتها متقطّع، وضجيج فارغ من حولها. لقد اتّصلت لكي تخبرني بأن أمي قد ماتت في ذلك

اليوم. لم تقل أين، ولا كيف. توقفت عن الكلام لحظة ووضعت يدها على السماعة... لعل أحدًا قاطعها. ثم تركت لي رقم هاتفها. انتهت المكالمة قبل أن تكمل قول الرقم. كانت شديدة البطء في كلامها.



- 85 -

نزلت من سيارتي أحمل هذه الصفحات في يدي، بينما كانت واقفة خلف نافذة بيتك ليلة عيد الميلاد تمد يدها إلى الستارة. وقفت وسط الطريق تحت الثلج المتساقط الذي ينيره مصباح الشارع الأصفر. نظرت إليها.

أريد أن تعرف أنني آسفة.

سقطت ذراعا فيوليت إلى جانبيها، ثم رفعت ذقنها وتلاقت أعيننا. أظننت أنني رأيت رِقّةً تظهر على وجهها؟ أظننت أنها قد تضع يديها على زجاج النافذة كأنها تريد القول إنها تريدني، تريد أمها؟ في لحظة عابرة فقط، أتساءل إن كانت الأمور ستصفو بيننا.

أراها تنطق شيئًا، لكنّي لا أستطيع تمييزه. أسير مقتربة من النافذة وأرفع كتفي ثم أهز رأسي وأقول لها... *كرري ما قلتِ. كرري ما قلت.* يتحرّك فمها حركة بطيئة هذه المرة، فينطق الكلمات من جديد. ثم أراها تميل إلى الأمام. تضع يديها على النافذة وتدفعها كأنها تريد العبور من الزجاج. تظلّ يديها على النافذة. أرى صدرها يعلو ويهبط.

أنا التي دفعته... أنا التي دفعته.

هذه الكلمات التي أظن بأنني أستطيع سماعها.

أصيح هذه المرة: «قوليها ثانية». أريد سماعها من جديد، لكنها لا تقول شيئًا بعد ذلك. تنتبه إلى الصفحات التي أحملها بين يدي. وبدوري، أنظر إلى صفحاتي. تعود كل منا فتنظر إلى الأخرى. ما عدت قادرة على رؤية تلك الرقّة في وجهها.

يظهر ظلّك في آخر الغرفة، فتسير إليك مبتعدة عن النافذة، مبتعدة عني. إنها لك. تنطفئ أنوار بيتك.

بعد سنة ونصف سنة

انقضت فصول كثيرة منذ لاحظتْ أنها تحس نسمات أوائل شهر حزيران الدافئة لطيفة جدًّا في رئتيها. تقف أمام بيتها، وتتنفّس من جديد، تستنشق الهواء عميقًا إلى جوفها مثلما كانت تفعل عند نهاية كل جلسة مع معالِجتها. تنفث الهواء وتعد، واحد، اثنان، ثلاثة، ثم تبحث عن مفاتيحها.

أمسيات أيام السبت مثلها مثل أمسيات أي يوم آخر من أيام الأسبوع. تقطف الوريقات الخضراء عن حبات الفراولة التي معها، ثم تقطعها أنصافًا لكي تأكلها وقت الغداء، لكي تأكلها متمهّلة وهي جالسة إلى طاولة مطبخها. سوف تحمل بعد قليل كأسًا صغيرة من الماء وتصعد إلى الغرفة التي كانت في وقت مضى غرفة ابنها. سوف تصالب ساقيها وتجلس بحركة بطيئة على وسادة التأمل الموضوعة قبالة النافذة مباشرة. ستمطّط ظهرها، وستجلس هناك في ضياء بعد الظهر، ستجلس خمسًا وأربعين دقيقة، وستفكّر في لا شيء. لا فيه. ولا فيها. ولا في الأغلاط التي وقعت فيها عندما كانت أمًّا. ولا في إحساسها بالذنب لما تسبَّبت به من ضرر. ولا في وحدتها التي لا سبيل إلى احتمالها.

لا، لن تفكر في شيء من هذا كله. لقد بذلت جهدًا مضنيًا حتى تتركه يمضي.

أنا قادرة على التحرك وتجاوز أخطائي.

أنا قادرة على التعافي من الجرح والألم اللذين تسببت بهما.

سوف تكرّر هاتين الجملتين التوكيديتَيْن بصوت مسموع، ثم تضع

يديها على صدرها؛ ثم ستنفض يديها مثل من ينفض غبارًا... سوف تتخلّص من ذلك كلّه.

وعندما يأتي وقت العشاء. تغلق اللابتوب وتُعِدّ لنفسها طبقًا من السلطة. تبيح لنفسها سماع شيء من الموسيقى، ثلاث أغنيات، لا أكثر... لا يزال قسم من متعها في الحياة محسوبًا. وأما في هذه الليلة، ستهز كتفيها قليلًا وستنقر بقدميها على الأرض.

إنها تحاول. لقد صارت المحاولة الآن أكثر سهولة.

وبعد العشاء، مثلما تفعل كل ليلة، تنير المصباح عند مدخل البيت. تفعل هذا لأن ابنتها قد تقرّر أخيرًا أن وقت المجيء لرؤيتها قد حان.

تصعد إلى الطابق العلوي، وتدندن بكلمات من أغنية استمعت إليها في المطبخ. تخلع ملابسها. يمتلئ حوض الاستحمام ماء حارًا، وتكتسي المرآة ضبابًا. تنحني صوب المرآة وتمسح زجاجها. تريد أن تتفحّص وجهها وأن تربّت على الجلد المرتخي تحت عينيها؛ لكنها تسمع رنين الهاتف.

تجفل وتغطي ثدييها بمنشفة كأن في الغرفة المجاورة شخصًا متطفلًا. ترى مصباح الهاتف الصغير يومض عند حافة سريرها. تقول في نفسها، *إنها ابنتي. قد تكون ابنتي*... تعوم على ذلك الأمل لحظة.

تمر بإصبعها على شاشة الهاتف، ثم ترفعه إلى أذنها. صوت المرأة هستيري. تبحث المرأة يائسة عن كلمات يبدو أنها لن تعثر عليها أبدًا. تسير حتى آخر غرفة نومها، ثم تسير إلى الزاوية الأخرى كأنها تبحث عن بقعة أفضل لاستقبال إشارة الهاتف، كأن هذا سوف يعين المرأة على الكلام. تهمس لها في الهاتف بكلمات مهدّئة. وعندما تفعل هذا، تدرك هوية المرأة التي تحاول تهدئتها. تغمض عينيها. إنها جيما.

تهمس جيما أخيرًا: «بلايذ... لقد حدث أمر لجِت».

شكر وتنويه

أشكرك يا ميديلين ميلبورن لأنك وكيلة أدبية استثنائية ولأنك إنسانة استثنائية. أشكرك على حماستك، ورؤيتك، ودفئك، وفطنتك. لقد غيّرت حياتي.

أشكر للفريق المتميز جدًا في «مؤسسة ميديلين ميلبورن للآداب والتلفزيون والسينما». وأخص بالشكر آنا هوغارتي، وجورجيا ماكفي، وغايلز ميلبورن، وسوفي بيلسييه، وجورجينا سيموندز، وليان لويز سميث، وهيلي ستيل، وريتشل يوه... أشكركنّ جميعًا على كل ما فعلتموه. وإلى باميلا دورمان، أشكرك على إيمانك بهذه الرواية وعلى إيمانك بي. كان التعلّم منك شرفًا وبهجة؛ أحسّ بنفسي محظوظة إلى حد لا يصدّق لأنني كنت واحدة من المؤلفين العاملين معك. أشكر برايان تارت وفريق «فايكينغ بنغوين»، فقد أسعدني الحظ كثيرًا بأن أضع هذه الرواية بين أيديهم: بِل دانتا، وجين كافولينا، وتريشيا كونلي، وآندي دودلي، وتيس إسبينوزا، ومات غياراتانو، وريبيكا مارش، وراندي مارولو، ونيك مايكل، وماري مايكلز، ولورين موناكو، وجيراني أورتون، وليندسي بريفيت، وجيسون راميرز، وأندريا شولتز، وروزان سيرا، وكيت ستارك، وميري ستوم، وكلير فاكارو.

وأشكرك يا ماكسين هيتشكوك، الزميلة لدى «أوسكار مام»، على ثقتك، وعلى يدك البارعة التي جعلت هذه الرواية أفضل. أشكرك أيضًا لأنك كنت بهجة لي خلال هذه العملية. أشكر أيضًا لويز مور والمجموعة الرائعة لدى «مايكل جوزيف» على مساندتي منذ البداية: كلير بلورين،

وكلير بوش، وزانا تشاكا، وآنا كورفيس، وكريستينا إليكوت، وريبيكا هليزدون، وريبيكا جونز، ونيك لونديز، ولورا نيكول، وكلير باركر، وفيكي فوتيو، وإليزابيث سميث، ولورين ماكفيلد.

أشكرك يا نيكول وينستينلي، أشكرك على الإرشادات المهمّة كثيرًا التي تلقّيتها منك، بصفتك ناشرة وبصفتك أمًّا، وكذلك على ما منحتني من ثقة كريمة طيلة الطريق. إيمانك بهذا الكتاب يساوي العالم كله في نظري. أشكر أيضًا كريستين كوتشرين، والفريق الرائع في «بينغوين كندا» و«بينغوين راندوم هاوس كندا»: أشكركم لأنكم ساندتم هذا الكتاب مساندة قوية ولأنكم جعلتم ما كان لدى وكيلة الدعاية السابقة هذه من أحلام تتحقّق أخيرًا. أشكر خاصة بث كوكيران، وأنثوني دو ريدر، ودان فرينش، وتشاريدي جونستون، وبوني ميتلاند، وميريديث بال، وديفيد روس.

أشكر بث لوكلي التي لا نظير لذكائها، فصداقتها تحتل مكانًا أثيرًا في قلبي منذ أكثر من عشر سنين... أشكرك لأنك شجعتيني على إنجاز هذا الكتاب منذ أن كان فكرة أولية، ومنحتيني مساندة لطيفة أتمنى أن تحظى كل امرأة بمثلها في حياتها.

أشكر الناشرين الدوليين الذين انضموا إلينا بكل حماسة... الشكر لكم.

أشكر ليندا بروسين على مساعدتي في تعلم كيف أكتب قصة أفضل. وأشكر آمي جونز على ثقتها التي كان لها مغزى كبير عندي.

وإلى د. كريستين لادروت، أشكرك لأنك سمحت لي بالاستفادة من خبراتك في ميدان علم النفس.

أشكر آشلي بينيون، النصف الثاني من مجموعة الكتابة المؤلفة من اثنتين، النصف الثاني الذي له معزة كبيرة في قلبي. أشكرك لأنك قرأت ما لا يُحصى عدده من المخطوطات الأولية؛ وأشكرك على مئات

الإيميلات التي تبادلناها، وعلى سنوات من مساندتك لي في الكتابة وفي أمور أخرى.

أسعدني الحظ بأن تكون لي صداقة عظيمة مع بضع نساء متميزات بكل ما في الكلمة من معنى. أشكر كل واحدة منكنّ على ما منحتني من مساندة، وأشكركن لأنكن تسألنني دائمًا، «كيف تسير الكتابة؟» مع أنني أتفادى الإجابة عادة! أشكر خاصة جيني (ريد) ليرو، وجيني إيميري، وآشلي ثومبسون. أشكرك يا جيسكا بيري على مساعدتك الذكية في هذه القصة، وعلى حماستك الكبيرة التي جعلت هذا المشوار كلّه أفضل... أشكرك كثيرًا.

أشكر عائلة فيزيل: أشكركم على حبكم ومساندتكم.

أشكر جاكلين نابيلان: أشكرك على رعايتك المحبة المخلصة.

أشكر سارة أودرين وسمانثا أودرين: أشكركما على حماستكما الكبيرة وعلى جعلكما أيام الصيف البطيئة مع الكتاب حالة عشناها معًا. أشكر كيثي أودرين التي عملت على أن نكون أسرة من القارئات النهمات، وأشكرك على حبك وتفانيك اللذين لا نظير لهما. أشكر ماث أودرين: أشكرك على ما لديك من موهبة كتابية، وعلى إيمانك الثابت بي، وكذلك على ما لديك دائمًا من اعتزاز بي. نعمة كبيرة أن أكون ابنة والدين مثل والديّ اللذين أجد نفسي شاكرة لهما كل يوم.

بدأت كتابة هذه الرواية عندما كان ابني في شهره السادس. كانت الأمومة والكتابة علامتين على بداية جديدة في حياتي؛ وكانت كل منهما بهجة وتميزًا. أوسكار وويفرلي: أنتما نبع إلهام لا ينضب. هذا الكتاب هدية لكما. وأخيرًا، أشكر شريكي، مايكل فيزل، لأنه جعل كل شيء ممكنًا، ولأنه جعل كل شيء أفضل.

انتظرتُ أن يكون قدوم المولودة الجديدة فيوليت أسعد يوم في حياتي كلّها. عندما حملتها بين ذراعَيَّ شعرت بأن هناك أمراً غير صحيح. كنت أدرك أن النساء في عائلتي ليس مقدَّراً لهنّ أن يكنَّ أمهات. يقول زوجي فوكس إنني أتخيَّل الأمر. يقول لي إنني لا أشبه أمي وإن فيوليت أحلى طفلة.. لكنني أشعر بأنها مختلفة. هناك شيء أحسّه غير سليم أبداً.

هل هي المشكلة؟ هل أنا المشكلة؟ هل هي الوحش؟ أم إنني أنا الوحش؟

***

"رواية **مَن دفع العربة؟** كتاب قوي، مثير، يجعل المرء يحبس أنفاسه. كتاب عن الهواجس وعن أعمق مخاوفنا التي تظلّ ترافقنا زمناً طويلاً"

قائمة "Sunday Times" للكتب الأكثر مبيعاً

"رواية عن الجانب المظلم في الأمومة. آسرة، ذكية، مكتوبة بحيوية... خاتمتها مذهلة".

The Guardian

"رواية شديدة التوتّر، مفزعة، منفَّذة بدقة فائقة. حاكت أودرين غموضَ روايتها بكلِّ براعة".

The New York Times

"قرأتها في جلسة واحدة. لا يجوز تفويتها".

Lisa Jewell

"انعطاف إبداعي في صياغة الرواية النفسية. تنجح أودرين في براعة المحافظة على التشويق من خلال تعاملها الواثق مع صوت بطلة روايتها على امتداد هذا العمل".

Sunday Times

***



آشلي أودرين: شغلت في دار نشر بينجوين - كندا منصب مديرة الدعاية، وقبل ذلك عملت في مجال العلاقات العامة. هذه روايتها الأولى.


ISBN 978-614-472-176-6



توزيع حصري: دار التنوير



منشورات الرمل